مِحْنَتِي مَعَ القُرْآن وَمَعَ اللَّهِ فِي القُرْآن

MY ORDEAL WITH THE QUR'AN AND THE GOD OF THE QUR'AN

www.muhammadanism.org
October 7, 2007
Arabic

عَبَّاس عَبْدُ النّور

'ABBAS 'ABD-UL- NOUR

مِحْنَتِي مَعَ القُرْآن وَمَعَ اللَّهِ فِي القُرْآن

مِحْنَتِي مَعَ القُرْآن
وَمَعَ اللَّهِ فِي القُرْآن

عَبَّاس عَبْدُ النّور

(طبعة تجريبيّة)

دمنهور
جمهوريّة مصر العربية
2004

[Blank Page]

تقديم

عبّاس عبد النّور، من مواليد دمنهور، سنة 1927، شيخٌ، متصوّف، تقيٌّ، مسلم الدِّين، سنّي المذهب، فقيه، مدير تكيّة، ورث الدِّين عن آباء وأجداد مشهود لهم بالتقوى، وصلابة العقيدة، وحسن السلوك. له، في مدينته، مريدون، نشّأهم على صدق الإيمان وحرارة العبادة.

التحق بكلّيّة أصول الدين في الأزهر، وبقي فيها ثلاث سنوات، وعزم على إتمام الرابعة في جامعة فؤاد الأوّل، كلّيّة الآداب، قسم الفلسفة، حيث درس على مفكّرين عمالقة، أمثال: «عبد الرحمن بدويّ، زكي نجيب محمود، محمّد عبد الهادي أبو ريده، الأهواني، ويوسف مراد»، وغيرهم.

ومع هذا، لقد خاب أمله في الجامعتّين معاً، وأضاعَ، على حدّ قوله، أربع سنوات من حياته، ومن فؤاد الأوّل انتقل إلى معهد التربية العالي، فنال شهادةً في ذلك. ومُنح مساعدة من دائرة الأوقاف الإسلاميّة، فانتقل إلى باريس، إلى جامعة السوربون، ليحضّر دكتوراه في فلسفة العلم، فحاز ما أراد.

ولمّا عاد إلى مدينته، أكمل مسعاه الديني، فكان واعظاً، إماماً، وخطيباً في أحد مساجدها. ثمّ واظب على التعليم الجامعي، وتأليف الكتب الفلسفيّة العلميّة، فكانت له مؤلّفات عدّة في الفكر الفلسفي الإسلامي والعربي، طُبعت مراراً في

القاهرة وفي بيروت، وبعد أن أحيل على التقاعد، تفرّغ إلى الكتابة والأبحاث في مختلف ميادين الفلسفة والأدب والدِّين.

إلاّ أنّ حياتَه الفكريّة لم تكن من دون قلق، ولا حياته الدينيّة من دون شكوك. صحيح أنّه نشأ في بيتِ ورعٍ وتُقيٍ؛ ولكنّ في عقله حَيرة واضطراب وتساؤلات لا حدّ لها. كان عقله يطرح موضوعات مثيرة، وكان إيمانه يكفيه الجواب على كلّ معضلة.

صراع العلم والإيمان ابتدأ عند عبّاس باكراً. صراع لم تُتَح له الفرصة ليُطرح علناً. ولو خرج من الخفاء منذ نشأته، لما وصل إلى هذا الحدّ من العنف المعبَّر عنه في هذا الكتاب الذي قلّ نظيره. لو سُمح لصاحبنا بالتعبير عن مكنونات عقله وقلبه، لكانت النتيجة هي هي، ولكن، لما كانت بهذه الحدّة والعنف.

عبّاس ليس هو المسؤول عن رفض القرآن وإله القرآن؛ ولا القرآن، أو الله، هو المسؤول أيضاً. المسلمون كافّة، وبنوع خاص، المفسّرون «الثرثارون» هم المسؤولون عن هذه النظرة الغريبة العجيبة إلى القرآن وإله القرآن.

لقد انتزع المسلمون النصَّ القرآني من بيئته، وقدّموه لنا نصَّاً إلهيَّاً، أزليَّاً، أبديَّاً، لا علاقة له بالفكر البشري وظروف نشأته. هنا تكمن، بالنسبة إلى الشيخ الدكتور عبّاس، المشكلة كلّها، هو لا يريد سوى العودة إلى التاريخ: نصّ رائع في حينه، ومليء لأخطاء والضلالات في غير حينه.

فليتمهّل القارئ ليحكم. وليقرأ بمعاناة المؤلّف. وليدع عقله وإيمانه يعملان معاً. وليعلم أنّ الإيمانَ يعمل حيث لا يعمل العقل؛ لكن ليس من دونه.

م.ح.

مقدِّمة

هذا الكتاب دعوة ملحّة وصريحة من أجل قراءة القرآن من جديد لنفهمه على حقيقته، وكسر القيود والأغلال التي شوّهت تفكيرنا، وأفسدت قراءتَنا للحياة والكون والمصير، وفرضت علينا أن نرى الوجود والأشياء من منظورها الإيديولوجي الواحد. وبقدر ما كان القرآن في عصوره الأولى عامل تقدّم وبناء، أصبح اليومَ عاملَ تخلّف وتخريب، وكابوساً يجثم بكلكله على العقول والنفوس.

هذا الكتاب محاولة نقديّة جادة للتحرير والانعتاق من الثوابت التي انتهت بنا إلى ما نحن عليه اليوم. إنّه إضاءة للحظة المعتمة الراهنة، مدعمة بالشواهد المأخوذة من النصّ القرآني، ونقدٌ له وتحليلٌ لآياته، ونزعٌ للأغطية التي تحجب الرؤية؛ بل تعطلها وتشلّ حركة الفكر الحرِّ وتخدّره، وتقتل فيه روح المعاناة، وتحوّله إلى عنصر سلبيٍّ، لا همّ له إلاّ تبرير النصّ، والدفاع عن النصّ، والإستغراق في «ذخائر» النصّ، والحِكَم البالغة الكامنة في النصّ.

كتبتُ هذا الكتاب بقلبٍ مخلصٍ يشتاق إلى التغيير، ويريد العمل على القيام بأعمق تغيير، وبالتالي تقديم صورةٍ عن القرآن غير الصورة المعروفة المتداولة في أسواق العامّة، بل حتّى في أسواق الخاصّة، فعبادة النصّ، والعكوف على النصّ، والإنحناء أمام النصّ، لا تفرّق في كثير من الحالات بين عامّة وخاصّة، فكم من عملاق تصاغر أمام النصّ حتّى بدا قزماً يرتجف هلعاً كفأرٍ رأى شبحَ قطٍّ. هكذا يفعل بعملاقنا المغرور زئيرُ النصّ.

ولا همّ لي في هذا الكتاب إلاّ اقتحام عرين النصّ. يجب أن ننزع عن النصّ أولاً قشرة القداسة التي تحيط به، وبغير ذلك لا يسلس لنا قياد النصّ. إن تعرية النصّ، والتشكيك في قداسة النصّ، وتطبيق المنهج العقلي على النصّ، تفتح لنا آفاقاً لا يبلغها أولئك الذين على أبصارهم غشاوة قدسيّة النصّ، هؤلاء هم عبدة أصنام، ولا فرق بين عبدة الأصنام وعبدة النصّ.

يجب إعادة النظر في التفرقة بين المقدّس وغير المقدّس (ما هو غير مقدّس ليس دنساً بالضرورة)، أو ادْعاء الخصومة بينهما، فلا مقدَّس إلاّ الإنسان والعقل الذي يميّز الإنسان. لذلك يجب ألاّ تشغلنا قداسةُ النصّ عن حيويّة التجربة العقليّة، فالتجربة العقليّة نشاط وقدرة وقلق، وهيمنة الْدِين على الفكر والثقافة مصادرةٌ للعقل، وعزل له عن الواقع، وعن الحياة والإنسان. وبحكم هذه المصادرة، وبفعل المعرفة التي تتولّد منها، تبدو الثقافة العربيّة كأنْ لا شأن لها بالحياة إلاّ بقدر انشغال هذه الحياة بهموم الآخرة وما فيها من نعيمٍ وجحيمٍ وحُورِ عِينٍ وفاكهةٍ ممّا يَشتهون.

لقد أن لنا أن نتخطّى الأسوار التي تضربها علينا هذه المصادرة، ولا سبيل إلى ذلك إلاّ بانقلاب معرفي في كلّ ما يتعلّق بالأصول . نصوصاً وقراءات . إنقلاباً ينطلق من النظر إليها ومعاملتها على أنها مادّة خاضعة للعقل وأفقٌ مفتوحٌ أمام العقل، قابلٌ للنظر وإعادة النظر. وإلاّ بقي النصّ مهيمناً ثابتاً لا مبدِّل لكلماته، ومن ثمّ بقيت المعرفة ثابتة محدودة مغلقة.

ثمّ إنّ الهويّة ليست تطابقاً مع جوهرٍ ماضٍ تكوّن مرة واحد وإلى الأبد، وإما هي عمليّة تاريخيّة وابتكار دائم، فالإنسان يصنع هويّته ويبدعها، وهو يصنع فكره ونظام حياته. الهويّة حياةٌ والنصُّ موت، فكيف ترتهن الحياة بالموت؟ الهويّة تولد في

المستقبل، والنص عود إلى الماضي، ومتحف للماضي، فكيف يعود المستقبل أدراجه إلى الماضي؟ الهويّة وعد في طريقه إلى الإنجاز، والنصّ غلّ يعرقل كلَّ إنجاز، فكيف يتفق الإنجاز واللاّإنجاز؟ النصّ إلغاء لديناميّة الإنسان، ولديناميّة المعرفة، ولديناميّة التطوّر والتاريخ. فاخترْ لنفسك ما يحلو، لا يستوي الحرّ والظلّ!

علينا ألاّ نُحبَس في غرفةٍ مظلمة ضيّقة والعالم من حولنا يترامى ويمتدّ إلى غير نهاية. يجب أن نخرج إلى النور ونعمل في النور، وأن نكفّ عن خدمة منطق النصّ لخدمة منطق النور، لنتعاطَ مع الواقع الحيّ ونشارك في الأحداث وفي انبثاق النور، ليت شعري! إلى متى سنظلّ نستمرئ الظلمة ونرسف في أغلال الظلمة ونرفض النور؟!

لقد غاب عنّا أنَّ النصوص لها أعمار تعيش إلى أجلٍ مُسمّى، فإذا جاءَ أجَلُها فمن الواجب أن تفسح الطريق لغيرها، لا أن تلوي عنقَ الزمان والمكان لتمدَّ في أجَلِها وترفض النداءات التي تطالب برحيلها. يجب أن نتعلّم كيف نمارس عملية التحرّر من ربقة النصوص بعد عصور وعصورٍ من تحكّم النصوص والحنين المستمر إلى ماضٍ زاهٍ عامرٍ بالنصوص وعبادة النصوص.

إنّ النصوص التي لا نجد لها اليوم معنىً كانت بالأمس تُشبع حاجات أسلافنا وتُغني حياتهم. لقد وجدوا فيها نشوةً روحيّةً لا حدود لها، من الصعب علينا فهمها في هذه الأيام، وانخرطوا في سجالٍ وسط تدافعٍ وتزاحم لاكتشاف دور المعاني التي ينطوي عليها كتاب الله. لقد كان ذلك مقصوراً على زمن مضى وانقضى.

فقد انكبّ أجدادنا على دراسة القرآن دراسةً مليئة بالإفتعال والصنعة والتكلّف، وحمَّلوه من الفصاحة والبلاغة

والإعجاز ما لا يحتمل، وانتزعوا منه من المعاني والمقاصد والأغراض ما لم يخطر على بال صحابه. ونشروا حوله مواكب من الصور والألوان والأطياف والمشاهد، لم يحظَ بها كتاب غيره حتّى اليوم.

هذا ما يفعل الإيمان بعبَدة النصوص والأوهام. لقد هوت الأنصاب والأزلام والأوثان، وفي أعقابها النصوص، وتغيّرت النفوس لتغيُّرِ الزمان. وعصرُ الخلافة ولّى، فأدبر زمانٌ وأقبل زمان.

لقد أعطى القرآن الشخصيّة العربية طابعاً أسطورياً مميَّزاً لا نظير له؛ جعلها تعيش خارج التاريخ، والأحداث من حولها تضجّ بالتاريخ؛ فمتى تخرج من النفق المظلم لتدخل باحة التاريخ؟ إنّ خطاب الماضي لا يصنع تاريخاً، إنما يصنع التاريخَ الحضورُ في التاريخ.

لقد طغت فكرة النصّ على سرّ النهضة وعلى حلم النهضة حتّى توقفت النهضة وخابت جميعُ الآمال في إنجاز مشروع النهضة، وانتعشت السلفية والأصوليّة والدمويّة والتجهيليّة لخنق أنفاس النهضة وتعطيل جميع المبادرات التي تؤدي إلى النهضة.

من المؤسف أن التاريخ لا يرقد ولا يركد إلاّ في بلادنا.

ماذا أقول؟ إنّه حتّى في كثير من بلدان العالم الثالث لا يخلو من التدافع والحركة، فهو في الدنيا كلها تقريباً نهر متدفق بل خضم متلاطم الأمواج، ولكنّه في بلادنا بحيرة ساكنة لا تثور.

ولا غرض لهذا الكتاب ولا هاجس وراءه إلاّ أنْ يُلقي حجراً في هذه البحيرة لعلّه يثيرها ويُخرجها عن هدوئها وانتظامها.

***

في أعماق هذا الكتاب رسالة تفوح منها ثورة حادّة، ورغبة قويّة في التغيير، واعتراض أساسي على منهج الحياة، وخوف من مصائرها وتقلّباتها. حلم عميق يتردّد في كلّ صفحة فيه.

في الكتاب تقريع كثير وبكاء أكثر. فهو دعوة صارخة إلى أن نأخذ حياتنا مأخذاً جاداً، ونعمل على تصحيح واقعنا وتاريخنا وإنساننا إذا كنّا عقدنا العزم حقّاً على قبول التحدّي ومواجهة الحقيقة المرّة التي نجد صعوبة كبيرة في تحسّسها والاعتراف بها. لقد ساهمنا في إنتاج التخلف بدلاً من محاولة القضاء عليه.

الكتاب الذي بين يديك يستحق المعاناة وصبر التأمل، إنه ينهك الأعصاب وقد يثير الرعب. ولعلّ أقلّ ما يُقال فيه إنّه يحمل على التذمّر. القرآن حجر عثرة وسدٌّ منيع أمام كلِّ نهضة أو تطور. إنْ أقول إلاّ الحق، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، وما كنتُ عليكم حفيظاً. لقد بلَّغتُ الرسالة، وأدّيتُ الأمانة، فاشهدوا، وأنا معكم من الشاهدين. لقد أتيتُكم بسلطان مبين، فماذا تحكمون؟

إننا نتحدث كثيراً في ما لا ينفعنا، ونسكت عما ينفعنا. أريد أن أكون صديقاً للقارئ، فما كتبتُ ما كتبتُ إلاّ بقلبٍ مخلصٍ يشتاقُ إلى التغيير، وإنّي لعلى استعدادٍ أنْ أموت على مذبح التغيير.

في الكتاب صورة تختلف عن الصور المتداولة في «السوق». أريد بناء عقليّة جديدة على أنقاض العقول السائدة، أريد أن أغرس نبتة من التفكير العلماني الحرّ المستقلّ الذي لا يخاف ولا يعبأ بالتضحيات والأضاحي. أريد أنْ أثير جواً ساخناً من الأسئلة والتساؤلات حول المأساة التي نتردّى فيها، حول أصل الداء وحول ما يوصف له من دواء.

أنا لا أشجّع القارئ على أن يوافق على ما أقول موافقةً صمّاء، وإنْ كنتُ واثقاً من كلِّ ما أقول ومن أنَّ كلَّ كلمة أقولها هي كلمة محسوبة موضوعة في مكانها الصحيح، ولكن حريّة القارئ فوق ما أكتب وما أقول.

الإنسان العربي هو أكبر همّي. إنّ غاية ما أتمنّى أن أزجّ بهذا الإنسان، لا في «تيار الحداثة» فحسب؛ بل و«في آتّون الحداثة»؛ لأنّ التيار لا يُطهّر، بل قد ملوَّثاً، وأمّا الأتّون فهو كفيل بإحراق جميع الشوائب. فالنار هي المطهِّر الأكبر، فلا تلوُّثٌ في النار.

لقد أخذت نفسي بالمغامرة والحدس والسؤال وأنا أكتب هذا الكتاب. إنّي أعمل وسط تزايد الإحساس بمخاطر لا تغيب عن عقل اللبيب وروحه، فالكتاب يواجه الأسطورة.

أَإلى الله المشتكى؟! والله لا يطعم جائعاً، ولا يغيث ملهوفاً، ولا يرحم مظلوماً، ولا يشفي مريضاً؟! فهل تُراه يردّ على كسالى تبلّدَ حسُّهم كأمثالنا؟ إنّ الصالحين أحق بالإجابة منّا. ومع ذلك فهو لا يستجيب لهم؛ فما قولك بالطالحين؟ هذا إذا صحّ وجوده فكيف إذا كان عدم وجوده حقاً مبيناً؟

لو كان وجودُ الله حقًّاً مبيناً لكان لوجوده أثَر ما في أحداث هذا العالم الذي يجري كلُّ شيء فيه كأنّ اللّهَ غير موجود. يقولون إن الإنسان مفطور على الإيمان بالله، فالإيمان به بديهي لا يسع الإنسان أن يشكّ فيه، ويحتجّون لذلك بهذه الآية: «أفي اللّه شكٌّ فاطِر السموات والأرض؟» (10/14).

نعم في اللّه شكوك وشكوك. فلو كانت معرفة اللّه حقيقة مقررة لا تقبل الشكّ، لو كانت مغروزة في النفس بالفطرة، لما احتيج إلى مئات الآلاف من الكتب والفلسفات والديانات لإثبات وجوده، وبالتالي لما شكّ أحدٌ في وجوده.

هذا ولم يتخلّص لي الحقُّ الذي انتهيتُ إليه إلاّ بقراءة القرآن، لا قراءة تعبّد تزيد الأعمى عمىً، بل قراءة تحليل وتركيب وموازنة ومقارنة وشكّ ونقد وتقويم وتتبع كلّ آية فيه، واستنطاقها على حدة، وربطها بغيرها من الآيات، وذلك بعد فهرستها وتبويبها وتقسيمها إلى موضوعات، وألحقت كل آية بالموضوع الخاصّ بها.

فمرجعي الوحيد هو القرآن ولم أرجع إلى شيء آخر غيره. ولم يَفتْني بطبيعة الحال الرجوعُ إلى أقوال المفسّرين وآرائهم، في هذه الآية أو تلك، مستأنساً بها رافضاً لأكثرها، ولم أعلن أي نتيجة من النتائج التي تمكّنت من الوصول إليها إلاّ بعد توثيقها بالآية المطلوبة مشفوعة . ما أمكن . بآيات أخرى مشابهة لها.

لقد كانت دراسةً ممتعةً حقّاً خرجتُ منها بنتائج غريبة حقّاً لم أكن أتوقّعها وإنْ كان لديَّ إحساس غامض بها منذ راهقتُ البلوغ قبل بلوغ العشرين وأنا على مقاعد الدراسة في عنفوان الصبا وريعان العمر، فكنت كلّما سألتُ شيوخي عنها أنكروا عليّ السؤال، وحذّروني من الزيغ والضلال. وكنت إذا حظيت بجوابٍ ما مِن أحدهم أحسستُ في كلامه التكلّف، ومع ذلك فقد كُنتُ متصوِّفاً عميقَ الإيمان . يا للمفارقة . ولم أقرّر إلاّ أخيراً أن أتولّى الأمر بنفسي.

لقد مررتُ بأزمةٍ حادّة خانقة في بداية السبعينات من عمري، كانت منطلقاً لصراعاتٍ مختلفة تفجّرتْ في نفسي، ومنعطفاً خطيراً قَلَبَ حياتي رأساً على عقب. وبعد تردّدٍ كبيرٍ وحرَجٍ أكبر، رأيتُ نفسي أهلاً لوضع كلام يؤثَر عنّي ويُذكَر. وقلت لنفسي هلمّ أصدع بما تؤمر، إنّك على الحقِ والحقُّ أولى بالإتباع وأجدر. فأقدمتُ مصرّاً على تنفيذ مشروع هذا الكتاب، غير وجلٍ ولا متحفِّظ ولا هيّاب، نزولاً على إلحاح المتنوِّرين الثوريّين من

الصحاب والأصحاب، رغم ما سيجرّه عليّ من الأنواء والعواصف وهجمات الذئاب. فإذا أردتَ أنْ تكون رجلاً فعش في خطر، ذلك فصل الخطاب!!

الكتاب طرحٌ جديدٌ للمشكلة القرآنيّة من منظور ثوري، ولكنّه ليس خاتم الكلام ولا فصل المقال، ولا نظريّة كاملة، وإنما هو اجتهاد يغري بالمشاغبة والنزاع، يضاف إلى كتب أخرى أثارت الشغب وألقت ببعض الأحجار في المياه الراكدة. وهو ينتظر اجتهادات أخرى تالية أكثر شغباً، مدعومة بالشواهد والبيّنات والتحليل الشمولي، لتكون أساساً لوعي عقلاني نقدي ومنهج عمل مستقبلي واعد.

والآن، وقد بلغ الكتاب أجله أدفع به إليكم ليشقَّ طريقه اللاّهب، ويواجه مصيره وحده، في عالم مشحون بالقوى وصراع القوى ومضادات القوى. فإنْ وجدتم فيه ما لا يُرضيكم فأستميحكم العذر، إنْ أريدُ إلاّ الإصلاح، وأفوّض أمري إلى التاريخ، وعاجلاً أو آجلاً سيحاسبني التاريخ.

وفي الختام دونكم الكتاب. فرِفقاً بالكتاب. وداعاً أيّها الكتاب!!

الفصل الأوّل

رحلتي من الإيمان إلى الشكّ

[Blank Page]

مقدِّمة

أنا على كرسي الإعتراف، فَمَنْ جلس على هذا الكرسي فليذكر ما له وما عليه. وقد التزمتُ بذلك حرفيّاً في هذا الكتاب، وفي هذا الفصل الذي أعلنت فيه **«رحلتي من الإيمان إلى الشكّ»**، وذلك رداً على كتاب تهريجي موضوع للعامّة ظنّ فيه صاحبُه[1] أنّه بلغ فيه غاية المنى، ألقَمَ به جميعَ الشكّاكين والمتشكّكين من الخاصّة، لا حجراً واحداً، بل كلَّ أحجار الدنيا والعالمين، وأعني به كتاب **«رحلتي من الشكِّ إلى الإيمان»**. فليهنأ بهذه الرحلة التي وضع بها الأمور في نصابها، وأعاد الحقوق إلى أهلها!

من واجبي منذ البداية وقبل كلِّ شيء أنْ أنبّه القارئ إلى نشأتي وقاع تفكيري منذ راهقتُ البلوغ . بل قبل ذلك بزمان . حتّى أناف السنُّ على الثمانين، لأشركَه في حَيرتي ومعاناتي واضطرام نفسي.

فقد نشأت نشأة المسلم المتحمِّس، وترعرعت في أعطاف الدين والهدى، وكان طموحي، بل أكبر أحلامي، التبشير بالإسلام في بلاد الهند. ولا أدري وأنا أفكّر الآن في ذلك، لِمَ اخترتُ بلاد الهند دون غيرها للحنيفيّة البيضاء! فأنا غارق في الدين من مفرق رأسي إلى أخمص قدمي. فكنتُ منقطعاً للصلاة والعبادة وحضور

---

(1) مصطفى محمود.

حلقات الذِّكْر، وكنتُ لا أغادر مجلسَ علمٍ أو وعظٍ في أحد المساجد إلاّ لأحضر مجلساً آخر، لأجمعَ العلم من أطرافه، والدين من مظانّه، وأكونَ القدوة والأسوة والمثَل.

بل لقد ابتُليت بعد وفاة والدي بأنْ أنضمَّ إلى هيئة علماء المدينة، حفاظاً على العلم «الشريف» الذي ورثتُه كابراً عن كابر، وإشفاقاً عليه من أن يندثر في أسرتي التي ظلّتْ راعيةً له طوال خمسة قرونٍ على الأقلّ. وقد قمتُ بنصيبي الكامل في الوعظ والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا سيّما أيام الجمعة، وسائر المواسم الدينيّة المعروفة، بل في بعض المناسبات غير الدينيّة أيضاً.

وبي انتهى السلف «الصالح»، فأنا آخر العنقود من خدّام العلم «الشريف» في أسرتي، والثمرة الأخيرة من الدوحة التي طالما أمدَّت دمنهور بالعلماء والفقهاء والخطباء والقضاة والأئمّة والمؤلِّفين في الأوراد والأذكار وعلوم الدين المختلفة. ولا يبدو أنّ أحداً من أسرتي اليوم يتطلّع إلى وصلِ ما انقطع بي، فقد أصبح الدينُ بضاعةً كاسدة في هذه الأيّام والعياذ بالله تعالى!

وثالثة الأثافي التحاقي بالأزهر «الأنور»، وتلقّي العلم «الشريف» فيه. وكم طاردوني هناك وألحّوا عليّ بوجوب وضع العمامة ولبس القفطان! ولكنّ اللَّه سلّم، فحسبي ما عانيتُ منهما، تزيّنهما لحيةٌ كثّة ووجهٌ مهيب! ولا أزال أحتفظ بذكريات «طيّبة» لشيوخي وزملائي القدامى من «الزُهر الأزاهير»، رضوان اللَّه عليهم ونفَّعنا ببركاتهم. فهم الذخر والذخيرة، والمؤونة والخميرة!

والحقّ، لقد أُصبتُ بخيبة أمل عندما دخلتُ الأزهر، ولذلك غادرتُه في السنة الثالثة، أي قبل التخرّج بعام واحد، وأنا غير آسفٍ. وقد نصحني الكثيرون حينئذٍ بأن أُكمل دراستي الدرامية

المشؤومة لنيل شهادة المماحكات الفارغة والعبث بالألفاظ والمعاني، وكان يمكنني بهذه الشهادة دخول السنة الثانية في كليّة الآداب بجامعة فؤاد الأول.

وكان ذلك في أوائل الأربعينات على عهد الشيخ المراغي. لقد ضقتُ بدراساتهم ذَرعاً حتّى لم أعد أحتمل المزيد. لقد أضعتُ ثلاثة أعوام من عمري ذهبتْ هدراً. فلماذا أضيف عاماً رابعاً، لا لشيء إلاّ للحصول على ورقة أنيقة الطباعة زاهية الألوان، جميلة المظهر، تافهة المخبر، عديمة المضمون، هزيلة المحتوى، تُذكّرني كلَّ لحظة بالأيام الضائعة والأوقات الفارغة، والآمال الخائبة، والمعاناة القاتلة.

وكان طلاق بالثلاث وكان فراق، هذا مع أنّي كنت ملتحقاً بأرقى كلّيّة من كلّيّات الأزهر آنذاك، وأقربها إلى نفسي، وهي كليّة أصول الدين بشبرا... ولكنّ الأزهر هو الأزهر!

أوّلاً

مرحلة الإيمان

في وجهي سيماء تدلّ عليّ لا يخطئها البصر، هي أوّل ما يبدو منّي ويبرز من ملامحي، تلك هي التي أشار إليها القرآن الكريم: «سيماهُم في وجوههم من أثَر السجود» (48/ 29). إنّها تلخّص دهراً من الصلاة والتهجّد والدموع والخشوع والعبادة والتوبة والاستغفار والمجاهدة ومحاسبة النفس.

لقد كانت الصلاة قرّةَ عيني وغايةَ مهجتي، فيها جلاء قلبي وصفاء روحي وسكينة نفسي. لقد كان قلبي معلَّقاً بالله لا يغفو عنه طرفة عينٍ ولا يطيق فراقَه، وكان مهيَّئاً دائماً لاستقبال فيضه النوراني.

وبالفعل، فقد كانت تحملني ريحُ التصوف إلى ذراه العالية، أستشرفُ منها عالم الملكوت أويقاتٍ أغتصبُها من بطن الزمن، يكتنفني فيها إحساسٌ غامرٌ لا يصفه بيان، وينعقد دونه اللسان، وتتمرّد فيه الكلمات على الشفاه، ولا تدخل في طاعة السطور!

لقد حاولتُ عبثاً أن أخترق هذا النور الساطع الذي يفجّر كلّ شيء، أو أن أكون جزءاً منه، أو ذرّة من هذا اللُّجَيْن الذي يتلألأ كأنّه كوكب درّي. بحيرات من البلور الصافي تملأ الأفق المفتوح، ناعمةً تكاد من ذراها تترقرق نهراً مشعشعة بالنور. مرايا لا يرى المرء فيها وجهه فقط، بل يرى الأكوان والأزمان، ومواكب العصور والدهور. في هذه الساحة اللألاءة أقف دهشاً مبهوتاً يملؤني شعورٌ طاغ بالحسرة والأسى، لأنّي لست رسّاماً ولا شاعراً، فأسجّل ما أنا فيه من بهجة

وحبور! ومَن يدري؟ فربما حتّى لو كنت شاعراً ملهَماً لتمرّدت عليّ حروف اللغة التي أتقنتُها دهراً فتهرب منّي لحظة واحدة.

ولا غرو، فلربما كان من شأن ذلك الجمال الروحي الخالص، ذلك المشهد الملكوتي السرمدي أن يورثني عُقلةً في اللسان يقف أمامها نُطُس الأطباء مكتوفي الأيدي، بل هذا ما هو حاصل بالفعل. فهناك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، إنّ كثيراً من الأمور التي قد تخطر على قلوب البشر يتعذّر وصفها. فكيف بأمرٍ لا سبيل إلى خطوره على القلب، ولا هو من عالمه، ولا من طوره؟

وزبدة القول، إنّ تلك الحالات التي كانت تتجلّى لي في لحظات الإشراق هي مما لم يقم ببالِ أحد، فمن رام التعبير عنها فقد رام مستحيلاً!

إنّ ذلك كلّه كان يستغرق منّي لحظات قليلة، لا ألبث بعدها أن تعود إليّ حواسي، فأصحو من حالي تلك التي تكون في العادة شبيهة بالغشي. وهكذا تزلُّ قدمي عن ذلك المقام، ويلوح لي العالم المحسوس كأنّه مرآة صدئة قد ران عليها الخَبَث. لقد اخترق قلبي هذا الجمالُ الإلهي الذي كنتُ أشاهده، وأعادني إلى الفطرة التي خلقني الله عليها، وولج بي إلى الطبيعة البكر من خلال أفق مفتوح على التصوف وعالم الروح، بكلِّ ما فيه من خشوعٍ ودموعٍ وتبتلٍ واستغراق القلب بذكر الله وإفراغه من كل ما سواه.

وهكذا بدأت رحلتي الصوفيّة، وأقبلتُ بهمّتي ومبلغ طاقتي على طريق الخيار الصعب. فمن أراد الآخرة وسعى لها سعيَها فليسلك طريق التصوف، «فالصوفيّة، كما يقول الغزالي[2]، هم

---

(2) **المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزّة والجلال**، ص 103.

السالكون لطريق اللَّه خاصة». لقد كانت روحي بحبّ اللَّه سكرى، وبتنسّمِ نفحاته نشوى. وكلّ غايتي إنما كانت أن يتحقق وجودي في الوصول إلى اللَّه وأن أحظى بلقائه. فلا حق ولا خير ولا جمال. كلاّ، ولا محبوب إلاّ الله، وكل ما عداه سبحانه أثر من أثاره، وعطر من طيب جوده، وذرّة من خزائن قدرته، ولمعة من أنوار حضرته.

تاهت العقول في بحار جلاله، وحارت الأذهان في لألاء جماله. احتجب عن الأبصار وهو الظاهر في وضوح آثاره، وتجلّى للأفهام وهو الباطن في خفايا حكمته وأسرار كماله. وإنْ مِنْ شيءٍ إلاّ يسبّح بحمده يلهج بذكره. فقد أوحى اللَّه تبارك وتعالى إلى جميع مخلوقاته أن تسبِّحه بلسان الحال إن لم يكن بلسان المقال. ومَن لا يحرِّكه الربيع وأزهارُه، ولا يهزُّه العود وأوتاره، فهو أصمُّ أبكمُ فاسدُ المزاج، وأعمىً مريضٌ ليس له علاج!

كنتُ متيَّماً بحبِّ اللَّه متحرِّقاً إلى وصاله، أتلظّى بنار الشوق إليه وأوار العشق لذاته، أراه في كلِّ شيء، وأسمع صوته يناديني في كلّ مكان! لم أترك باباً للتقرّب إليه إلاّ طرقته، ولا عملاً يرضى به عنّي إلاّ فعلتُه، بأقصى ما يتطلب منّي ذلك من التقوى والخشية والإخلاص في العمل بما يليق به سبحانه.

وكنتُ دائم الذكر له، مقبلاً عليه، متضرِّعاً إليه، شاكراً لأنعمه الظاهرة والباطنة. وكنتُ كثير التوبة والاستغفار والبكاء والندم على ما فرّطت في جنب الله. لقد كنت مراقِباً له في جميع حركاتي وسكناتي، بل وجمحات قلبي وخلجات نفسي، فهو مطَّلع عليّ يعلم سرّي وعلني. فإذا لم أكن أراه فهو يراني، «يَعلَم خائنةَ الأعين وما تُخفي الصدور»[3]. وكنتُ أحمده في السراء

---

(3) **سورة غافر** 40/ 19.

والضراء وحين البأس، وكنتُ أصبر وأصابر، فإذا أصابتني مصيبة قلت: «إنّا للهِ وإنّا إليه راجعون. أولئك عليهم صلوات من ربِّهم ورحمة، وأولئك هم المهتدون»[4].

وكان الليل فرصتي الذهبيّة للدعاء والبكاء، والذكر والفكر والمناجاة والعبادة، والتوجّه إلى الله تضرّعاً وخيفة، وزجر النفس الأمّارة بالسوء. بل لقد ذهب بي الورع والتشدد والوسواس إلى حدِّ أني لم أكن أسأل الله شيئاً إلاّ بعد محاسبة عسيرة للنفس على ما قدّمت وأخّرت. فقد كنتُ أستحي أن ألقى الله وعليّ شاهد بذنب!

ولا مجال هنا أبداً للادّعاء أو الغلوّ أو المبالغة، فسيماء السجود في وجهي تغني عن كلّ ذلك، فهي أكبر شاهد على ماضٍ يعبقُ بالدين، وقلب يعمره الإيمان.

وبينما كان الناس يكتفون من الصلاة بالفرائض، وقد تزيد عليها قلّةٌ منهم بعضَ السنن، لبعض الوقت، فقد كانت كلٌّ صلاة تتطلّب منّي أكثرَ من ساعة، لما أُضيفُ إليها من أذكار وأوراد وأدعية ونوافل. فكنت أصلّي مثلاً صلاة الشكر (ركعتين)، وصلاة الحفظ من كلِّ سوءٍ (ركعتين)، وصلاة التوفيق (ركعتين).

وكنت مغرماً بصلاة السّحَر قبل صلاة الفجر، لأنّه وقت استجابة الدعاء. فقد جاء في الحديث الشريف في فضيلة صلاة السّحَر: «إنّ الله يهبط إلى سماء الدنيا وقت السّحر فيقول: هل من داعٍ فأجيبه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ حتى يطلع الفجر».

---

(4) **سورة البقرة** 2/ 157.

وكنتُ لا أسأل أحداً إلاّ الله، عملاً بالحديث الشريف: «يا بُنَي! إذا سألتَ فاسألِ الله، وإذا استعنتَ فاستعن بالله، واعلمْ أنّ الأمّة لو اجتمعوا عليك ليضرّوك، فلن يضرّوك بشيء لم يكتبْه الله لك، ولو اجتمعوا عليك لينفعوك، فلن ينفعوك بشيء لم يكتبُه الله لك. جفّت الأقلام، وطُويت الصحف».

وكنت أحمد الله وأشكره على هذه النوافل والأذكار، لأنّه اختارني لهذه الساعات العذبة الطويلة أنتزعها من حياتي اليومية انتزاعاً أخلو فيها به سبحانه وأشكو فيها بثّي وحزني إليه، وأمحضه حبّي وعبوديّتي.

وكنتُ لا أُقبِل على طعام أو شراب أو حركة، ولا أذهب إلى عيادة طبيب أو زيارة صديق، ولا أدخل بيتاً ولا أخرج منه، ولا أقابل مسؤولاً ولا ألقي كلمة أو مداخلة... إلاّ بعد ذكر اسم الله واستخارتِه والتوكّلِ عليه وطلب التوفيق منه.

وكان من عادتي أنّي إذا رأيتُ مريضاً أو ذا عاهة أحمد الله على سلامتي وأدعو له بالعون والشفاء، وكنتُ على يقين وثقة تامّة بأنّ من أحبَّ الله وأخلص له فقد ملك العالم. بل لقد اعترتْني لحظات أحسست فيها حضور الله فيّ وحضوري فيه، وأني جزء منه وهو جزء مني، فَمَنْ أقوى منّي وأعزُّ في هذا العالم؟! وذكرت الحديث القدسي الشريف: «ما يزال العبد يتقرّب إليّ بالنوافل حتّى أحبّه، فإذا أحببتُه كنتُ يدَه التي يبطش بها، وعينَه التي يبصر بها، وسمْعه الذي يسمع به».

وكنتُ إذا أقدمت على عمل ونجحت فيه أعزو الفضل في ذلك إلى الله. وإذا فشلت فلا ألوم إلاّ نفسي وأسأله تعالى التوفيق. وكنت في الحالَيْن أحمده وأشكره وأعوذ به من شرّ نفسي وسيّئات أعمالي. وفي هذه الحال كنت أتذكر قوله تعالى:

«وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم، وعسى أن تحبّوا شيئاً وهو شرٌّ لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون» (2/ 116). فهو وحده سبحانه علاّم الغيوب. وهكذا تطمئنّ نفسي بذكر اللَّه «ألا بذكرِ اللَّه تطمئنُّ القلوب» (13/ 28) متأسِّياً في ذلك بالأنبياء والصالحين، وحبيبه المصطفى سيّد المرسلين، وخاتم النبيّين، وخير الناس أجمعين.

ثانياً

مرحلة الامتحان

والآن جاء الإمتحان، ففي الإمتحان يُكرم المرءِ أو يُهان. هوذا الامتحان الصعب، الذي تنكشف فيه حقيقة الرب والوعود التي لطالما أغدقها علينا الرب! والوعود التي لطالما أغدقها علينا الرب! لقد اقتربت ساعة الحسم، فإمّا أن أستمر في الرجوع إلى الله والاتكال عليه، وشحذ الهمّة للوصول إليه، وتوزيع أوقاتي على وظائف الخير والعبادة، من تلاوة القرآن ومجالسة أرباب القلوب، وإدامة الصيام والقيام وسائر الفروض والعبادات، وإمّا أن أقطع الحبل بيني وبينه.

فقد وقعتُ في أزمات وشدائد، وركبتني ديون وهموم وغموم لا مخرج منها. لقد أقفلتِ الدنيا في وجهي وانسدّ أمامي كلّ أفق، فلم أترك باباً إلاّ قرعته، ولا طريقاً إلا سلكته. لقد «أزَفَتِ الآزِفةُ، ليسَ لها من دونُ اللَّه كاشفةٌ» (53/ 57 . 58)، ثمّ لمّا أحسستُ بِعجزي، وسقط بالكليّة اختياري تذكّرتُ قولَه تعالى: «أم مَنْ يُجيبُ المضطَرَّ إذَا دعاه؟» (27/ 62)، فقلت:

اللّهم إنّي ألتجئ إليك التجاءَ المضطرِّ الذي لا حيلة له فأجبْني. اللّهمّ ارحم ضعفي، وفرّج كربي، ويسِّر أمري. اللّهم لا تدع لي ذنباً إلاّ غفرتَه، ولا كرباً إلاّ فرّجتَه، ولا حاجةً إلاّ قضيتَها. يا هو، يا هو، يا ذا الجودِ والإحسان، ويا ذا الجلال والإكرام، أنتَ ظهر اللاّجئين، وأمَان الجائعين، ومُغيث المستغيثين، ومجيرُ المستجيرين، ومجيبُ دعوة المضطرّين! لقد ذهب الناس إلى مضاجعهم، وهجعوا في بيوتهم، وخلا كلُّ حبيبٍ بحبيبه. وأنت حبيبي، يا أحبَّ محبوب، أنتَ أملي وغايةُ مطلَبي، يا مَن قلتَ ووعدُك الحقُّ: «ادْعُونِي أسْتَجِبْ لَكم» (40/ 60)، استجبْ دعائي، فقد جئتُك

مسبِّحاً متبتِّلاً، مقرّاً بعجزي، معترِفاً بذنبي. أقف ببابك مستغيثاً مسترحِماً، فارحمني يا أرحم الراحمين!

وهكذا أفرغتُ كلَّ ما في جعبتي من أدعيةٍ وتضرّع واستغاثة . أنا بها خبير بصير . كفيلة وحدها بتذليل جميع العقبات التي تقف في وجهي، بل بزلزلة الجبال من حوالي، فكيف إذا أضفتُ إليها صدقَ النِّيَّة، وصالحَ العمل، والإخلاص لله وحده. هذا فضلاً عن السعي الدائب وكمال الجدِّ في الطلب حتى انتهى إليَّ العجزُ وسقوط التدبير.

يا إلهي! استمع إليّ مِنْ قلب الجوع، من قلب الحاجة، من قلب الحرمان. من قلب المعاناة، أناديك. لقد تراكمتْ ديوني وعظمت كثيراً. إلهي! لقد ادّخرتُك لهذه الساعات السوداء، كيف أقضي هذه الديون؟ هل أبيع بيتي وهو كلُّ ما أملك؟ أين عساي أسكن أنا وعائلتي إذن؟ يا مَن عندك خزائن السموات والأرض «ولله خزائن السموات والأرض» (63/ 7)، «وإنْ من شيءٍ إلاّ عندَنا خزائنُه» (15/ 21)، اللّهم تكفيني سنبلة واحدة من السنابل السبع التي وعدتَ بها مَن ينفق ماله في سبيلك «مَثَلُ الذينَ يُنفِقون أمْوَالَهم في سَبيلِ اللَّه كَمَثَل حبَّةٍ أَنْبَتَتْ سبعَ سنابل، في كلِّ سُنبُلةٍ مَائَةُ حبَّةٍ، واللّهُ يُضاعفُ لمَنْ يَشاء. واللّهُ واسِعٌ عليم» (2/ 261).

وابتهلتُ ثمّ ابتهلت، وجاء الإبتهال نحيباً، مناجاة، همْساً متواصلاً خفيضاً، وأدعيةً خاشعة، تطلب العون والرحمة والمغفرة، وعندما تأمّلت دعائي وجدتُه مُلِحّاً في طلب الدنيا، رغّاباً في وفاء الدين والتوسعة في الرزق وطلب المال والغنى. فلم أكفّ عن الابتهال والدّعاء. وأخذت أعتذر عن الدنيا التي أحملها فوق ظهري فأنوء بها وتنوء بي. وسقطتُ منهوك القوى تسيل مدامعي، وأنا في حالة من الضعف والإعياء تتقطع لها نياط القلب!

وانتظرتُ ثمّ انتظرتُ، عسى اللَّه أنْ يأتي بالفرج، ولكن عبثاً. وأخذتِ الشكوك تستيقظ في نفسي بعد أن كانت هاجعة مقموعة. لقد تجدّدت الشكوك وذرَّ قرنُها مرّة أخرى لتفتنَني في ديني. ولا أخفي أنّني عندما أخذتْ هذه الشكوك تتناوشني كنت أشعر بشيء من وخز الضمير والبعد عن اللَّه الذي طالما أحببتُه ونذرتُ له حياتي.

تُرى هل تخلّى اللَّه عنّي في أحلك ساعاتي؟ لقد بذلتُ الكثير لقمع هذه الشكوك ابتغاء مرضاة الله، فما له سبحانه يُخزيني؟ ومع أنّي بدأت أفقد الأمل ألقيتُ بنفسي بين يديه، وتوجّهت إليه بهذا الدعاء الذي كنت أخشى أن يكونَ الأخير: اللّهمّ! أدركْني، اللّهمّ! لا أطيق فراقك، اللّهم! أخاف الإنزلاق الذي لا ترضاه لي ولا أرضاه لنفسي، اللّهم! أنا على شفا جرف هار، اللّهم! أنا على شفا حفرة من النار، فأنقذْني منها يا عزيز يا جبّار.

وكم تجدّدتِ الدموع! وكم تجدّد الدّعاء والإبتهال! بل لقد لاحظتُ بعد هذه الأدعية والإبتهالات . ويا لَهول ما لاحظت . أنّ اللَّه يستجيب بالمقلوب، فلعلّه سبحانه لا يفهم العربيّة جيداً. فبأي لغة أتحدّث معه؟ هل هذا معقول؟ لا أدري. مع أنَّ لغة آدم هي العربيّة، ولغة أهل الجنّة هي العربيّة أيضاً. فلعلّ عربيّة آدم غير عربيّتنا؟ أم لعلّه لا يسمعني؟ مع أنّه سبحانه يسمع دبيبَ النملة السوداء على الصخرة الصمّاء، في الليلة الظلماء. أم هو يتصامُّ عنّي لأسباب أجهلها؟

ومَن يدري؟ فقد يكون دعائي مجموعة من الأصوات الناشزة تؤذي أذنيه عزّوجل. وإلاّ فما معنى أنّني كلّما كنتُ أقترب منه كان يبتعد عنّي؟ ألا يدلّ ذلك على أنّه لا يريد سماع صوتي؟ أم إنَّ الأمر لا يهمّه أساساً، لأنّي لا أعدو أنْ أكون بعوضةً في هذا الكون،

ولكنّني أعطيت نفسي حجماً أكبر منّي؟

والغريب أنّ الفراق بيني وبينه لم يشتدّ إلاّ بعد قولي له «لا أطيق فراقك»! أم لعلّ «لا» النافية كانت تخرج من لساني مختنقة بالدموع فلم يسمعُها؟ هل يمكن أن تكون كلمة «أطيق» و«فراق» لهما عنده معنى آخر غير المعنى الذي لهما عندنا؟ أم إنّه سبحانه لا يحبّ الكلام المحدَّد والمحدود المعاني؟! وقد يكون هذا ما يفسّر لنا أخيراً وجودَ آيات في القرآن عجيبة غريبة مشحونة بالكلام الفضفاض المتناقض، واللفظ المرصوف المقفّى الذي لا معنى له والذي استطاع مفسِّرونا الثرثارون أن يكتشفوا له ألف معنى، وألف حكمة، وألف بلاغه، وألف إعجاز، كما سنرى في حينه؟!

ثالثاً

مرحلة الإعصار

وما أنا حتّى عصفتْ بي هدأة الذهول وتملَّكتْني الحيرة. وما أنا حتّى هبّ في نفسي الإعصار، وتداعى في متناول الإعصار كلُّ ما كان في نفسي قائماً ثابتاً. وبقيتُ مدّةً أعاني من أعقد أزمان الفكر وأشدها وطأةً. فإنّ التشكّك في الموروث الديني والثقافي خطوة جريئة لا بدّ منها لبناء عقليّة جديدة، وفكر جديد، إذ الشكوك هي الطريق إلى الحقائق. «فمَن لم يشكّ لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقي في العمى والضلالة»، كما يقول الغزالي[5].

يا لَخيبة أملي! فإنّ جميع ما قدّمتُ في حياتي من صلاة وعبادة وخشوع ونسك في سبيل الله وابتغاء مرضاته... كلُّ ذلك لم يظفر من الله. إذا كان لهذه الكلمة من معنى. أيَّ لفتة أو مبالاة. فله سبحانَه، على ما يبدو، همومٌ أخرى غير هموم هذه الحشرات البشريّة التي تدبّ على الأرض، بل حتّى غير هموم عباده المخلصين الذين استثناهم إبليسُ من إغوائه والوقوع في حبائله عندما قال مخاطباً الله في جلاله: «فبعزّتِك لأُغْوِيَنَّهم أجمعين، إلاّ عِبادَكَ المخلَصين»[6]، هؤلاء الذين حذّره الله سبحانه من الاقتراب منهم ومسِّهم بأيِّ سوء: «إنَّ عبادي [هؤلاء] ليس لكَ عليهم سلطان»[7].

---

(5) **ميزان العمل**، ص 409.

(6) **سورة ص** 38/ 83؛ **وسورة الحجر** 15/ 40.

(7) **سورة الحجر** 15/ 42؛ **وسورة الإسراء** 17/ 65.

أقول حتّى هؤلاء الذين كنتُ واحداً منهم (وعلامة أو سيماء السجود لا تزال بارزة على وجهي لا تمحوها الأيام)، حتّى هؤلاء الذين وعدهم الله بأنهم «لا خوف عليهم ولا هم يحزنون» في ثلاث عشرة آية[8]، لا يبدو أنّه سبحانه يعبأ بهم أو يقيم لهم وزناً. هذا إذا كان يحسّ بهم. يقول المفسِّرون الثرثارون إنَّ هذا الوعد ينسحب على الآخرة دون الدنيا، لأنّ الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة! وإذا صحّ ذلك فهل معناه أن يهملَهم الله في الدنيا حتّى يموتوا جوعاً وهو القائل: «ومَا مِن دابّةٍ في الأرض إلاّ على الله رزقُها» (11/ 6)؟ هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان؟

ومنذ ذلك الحين وأنا في دوّامة الشك. وبعد أن كنتُ أظنُّ أنَّ كلَّ توفيق أصيبُه في هذه الحياة هو نعمة من الله أنعمها عليّ تستوجب منّي الشكر والحمد، أصبحتُ أنظر إلى هذا التوفيق على أنّه نتيجةُ سعيي الدائب وكدحي المستمرّ لبلوغ أمري والوصول إلى غايتي ليس لله أيُّ فضل فيه.

ومعنى ذلك أنّي لم أعد أرى أيَّ أثر لقوله تعالى: «قلْ ما يعبأ بكم ربّي لولا دعاؤُكم» (25/ 77). فالظاهر أنّه سبحانه لا يُعنى بالأرض ومَنْ عليها، ولعلّه لم يسمع بها في هذا الحشد الهائل من العوالم الحجريّة والسديميّة التي يكتظّ بها الفضاء، لا بداية له ولا نهاية، له شواغل وهموم أخرى لا تسمو إليها مداركنا ولا شأن لها بآلامنا وأوجاعنا. هي أعظم كثيراً من شجون الحاج سعيد خمخم وأبي قاسم الطنبوري وأم غنطوس والسيّدة حليمة. فما له وهذه الضفادع والحشرات التي لا تفتأ تنقُّ وتملأ الأرض صراخاً كأنها سيّدة الكائنات. وهذه عنها في شغلٍ شاغل؟!

---

(8) رَ: 2/ 8 و62 و112 و262 و274 و277؛ 3/ 170؛ 5/ 69؛ 6/ 48؛ 7/ 35 و49؛ 10/ 62؛ 43/ 68؛ 46/ 13.

ويْحُ سُخفي وغبائي! يا لَبلاهتيَ تُرى كم كنتُ ساذجاً عندما سمحتُ للأساطير أن تأكلَ عمري وزهرةَ شبابي! يا حسرتي على عمرٍ قضيتُه مع حبيبٍ لا يعبأ بي، ولم يشعر يوماً بوجودي! تباً لي وتعساً! كيف لم أكتشفْ ذلك وأرجع إلى رشدي إلاّ وأنا على أبواب أرذل العمر! ماذا دهاني؟! ماذا تبقّى لي من العمر لأشعر بمتعةِ وجودي؟! ليتني لم أعرف ذلك! ويلٌ لمن عرف الحقيقة! طوبى للبله فإنّ لهم ملكوت السموات!!

والأنكى من ذلك، وحرصاً على العلاقة الفريدة بيني أنا المخدوع الذي كنتُ آخِرَ مَن يعلم وبين الحبيبِ الذي كنت لا أطيق فراقه، أنّي ذهبتُ في تفسير استخفافه بي وإعراضِه عنّي مذاهب شتّى. فتارة كنتُ أفسّر ذلك بأنّه نوع من الغنج والدلال، لعلّه يريد أن يبلوَني ويختبرَ مدى حبّي له. فكلّما صدّني كنت أزداد شوقاً إليه. لقد تغلّب فيّ الصبّ على الصدّ، والوجد على الردّ! لم أصدق يوماً أنّه يلهو بي. وهكذا سقطتُ في أسطورة الابتلاء التي ترددها الأديان كثيراً وتُعَوِّل عليها لابتزاز أتباعها وتعويدهم على الخضوع والاستسلام. وإلاّ فما حيلتي وهل أمامي أي خيار آخر؟

والخلاصة، كم كنت بليدَ الحسّ عندما أخذتُ أفلسف المصيبة وأحاول كلّ يوم اكتشاف حكمة جديدة لها. واستهوتْني هذه الفلسفة، وغرقتُ في التصوّف حفاظاً على إيماني بربّي، وتخلّيتُ عن نفسي لأُبقي على ربّي، وأسكر بخمرةِ ربّي. آه! ماذا دهاني من ربي! آهِ! كم عانيتُ من ربّي، يا حسرتي على عمرٍ قضيتُه مع ربّي!!

وَيْحي، كما فلسفتُ المصيبة على طريقة «تنابلة» المؤمنين، وسخّرتُ كلَّ ثقافتي الفلسفيّة. وما أقدر الفلسفة على ذلك، فتاريخها في البحث عن الحقيقة والانغماس في تفسير الحقيقة، مليء بالدفاع عن السُخف والعبث والهراء واللّعب بالألفاظ. كم

سخّرتُ كلَّ ما أملك من مهارة وحذق ومغالطة وبلهوانية للدفاع عن المصيبة، واستخراج أقصى ما يمكن من الحكم والعبر والدروس منها! فكنتُ إذا أصابَني مكروهٌ، أو لحق بي ظلمٌ، أو حزبني كربٌ وغمٌّ، كنتُ أعتمد على السجود والتضرّع واللجوءِ إلى الله والابتهال إليه، وانطبع ذلك على جبهتي سيماء لا يخطئها البصر أبداً.

وكنتُ أتأسّى دائماً بالأنبياء والمرسلين والصالحين، وأقول لنفسي: إنّ المصيبةَ تعيد الإنسان إلى الله. فالمؤمن مبتلى. ثم أذكر قوله تعالى: «أحَسَبَ الناسُ أنْ يُتْرَكُوا أنْ يَقُولوا آمَنَّا وهُمْ لا يُفْتَنون؟» (28/ 2): وقوله عزّ من قائل: «وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بشيءٍ مِنَ الخوفِ والجوعِ ونقصٍ مِن الأموالِ والأنفُس والثَّمَرَاتِ، وَبَشِّرِ الصابِرين، الذينَ إذا أَصَابتْهم مُصِيبةٌ قالوا إنّا لله وإنّا إليهِ راجعون. أولئكَ عليهم صلواتٌ من ربِّهم ورحمةٌ. وأولئكَ هم المهتدون» (2/ 155 . 157).

بل لقد بلغ بي لترحيبُ بالمصيبة وشكرُ اللَّهَ عليها مبلغَ الصوفيّة. فكنت أذهب مذهبهم وأقول على طريقتهم بأنّ المصيبة معصية عُجِّلتْ عقوبتُها في الدنيا، حتى نلقى اللَّه في الآخرةِ وليس علينا شاهدٌ بذنب!! لقد نسيتُ ولعلِّي قد تناسيت . ولي مصلحة في هذا التناسي كما سنرى بعد قليل . أنّ المصيبة إذا كانت تعيد الإنسان إلى اللَّه أحياناً، فإنّها في أحيان أخرى تبعدُه عنه أيضاً. المصيبة طريقٌ إلى الله، وهي أيضاً طريقٌ إلى الشيطان!

لقد كنتُ دائماً أحمد اللَّه على عافيتي و«سلامتي» من الأمراض، وكنت أقول لنفسي: إذا كان سبحانَه قد حرمني المال فقد أعطاني خيراً منه وهو الصحّة والعافية، فالصحة لها ثمن، وما بالي نسيت هذا الثمن؟ فهذا فلان الغني من مدينتنا قد ذهبَ إلى أوروبا أو أمريكا للاستشفاء، وأنا لا أملك أجرة الطريق إلى أيٍّ

منهما، فما قولك بأجور الأطباء، وأثمان الأدوية ونفقات المستشفى؟

احمدِ اللَّه يا بُنَي، احمد الله! نعم يا بُني، إنّ هذا غنيّ، ولكن ما أغنى عنه ماله وما كسب؟ فكلُّ ثروته قد انتقلتْ إلى حسابات الأطباء والمستشفيات والصيادلة والمصارف، مع ما تَدُرُّ عليهم من فوائد تكفي وحدها لنفقات عائلات كاملة تعيش في حزام البؤس في إحدى مدن الصفيح المتناثرة في أطراف العواصم الكبرى في بلدان العالم الثالث.

أذكرْ يا بني أيضاً ذلك الغني المصاب بالسكّري الذي يعيش على مقربة منك في نفس الحي، إنّه يشتهي طبَقاً من الحمُّص والفول المدمّس، وهو يمتلئ غيظاً كلّما رأى عمّالَه يُقبلون على هذا الطعام بشهيّة بالغة. فهل أغنى عنه ماله من اللَّه شيئاً؟ احمد اللَّه وكنْ من الشاكرين، وهكذا فلا أملك إلاّ أنْ أحمد وأشكر.

ونسيتُ في نشوة إيماني الصوفي . ولا أدري ما إذا كنت قد تناسيت . عدداً لا يحصى من البشر منحهم اللَّه الصحة والعافية، إلى جانب المال والجاه والرفاه! كما نسيتُ كذلك أنّ الله، إذا كان قد نجاني من بعض الأمراض، فقد أصابني ببعضها الآخر. وحسبي أن أُجريتْ أربع عمليات جراحيّة لعيني كان أخطرها الانفصال الشبكي، كما أُجريتْ لي خمس عمليّات لرجلي وأنا دون البلوغ. وبعد وفاة والدي تولّيت ذلك بنفسي. وكانت آخر هذه العمليات في مستشفى ليوبولد بلان بباريس سنة 1951. وقد أورثتْني هذه العمليّات المتكررة هشاشةً في القدمَين لا تحتملان فيها أيَّ صدمة تالية. فضلاً عن أنّ جميع هذه العمليّات لم تستطع إصلاح ما تبقّى من عَرَج. ولذلك لا أزال حتّى الآن أجد بعض الصعوبة في المشي الطويل، غير أنّي تأقلمت لهذا الوضع الجديد بحكم الإلف والعادة.

وإذا كان أمري كذلك فعلام أحمد اللّه وأشكره؟ كلّنا في الأمراض سواء.

وأما بخصوص جارنا الغني الذي حرمَه اللّه الصحّة ووهبَه المال فهناك مرضى آخرون لا حصر لهم محرومون من الصحة والمال؛ ومع ذلك، لا يعانون فقط من السكّري أو السرطان أو ضغط الدم، أو منها جميعاً، أو من غيرها من الأمراض الوبيلة، بل لقد بلغوا فوق ذلك مستوى من الفقر لا يستطيعون معه دفع أجرة استشارة الطبيب، فضلاً عن شراء الدواء، فيتحاملون على أنفسهم ويجلسون على قارعة الطريق، أو يقفون على أبواب المساجد، أو يدقّون أبواب البيوت إذا أطاقوا ذلك، وإلاّ أنابوا عنهم نساءهم وأولادهم يتكففون الناس ويسألونهم المعونة والإحسان!

رابعاً

مرحلة البحث

أذكر أنّي في تلك الأثناء أحسست ببعض الميل إلى المسيحية. بل لقد خطر لي اعتناق هذه الديانة الروحانيّة السامية، لولا أنّي لا أطيق أبداً ما فيها من تثليث، وصلب، وفداء، وتجسّد، وقربان، وتقبّل المسيح للإهانة والضرب والصفع والبصق من غير أن يبدي أيَّ مقاومة، واكتفائه بالتهديد بأبيه الذي لم يفعل له شيئاً. فأين كرامة اللّه الذي أوذي في ابنِه الوحيد الذي أحبّه؟

كما لم أفهم أيضاً سكوت المسيح المطبَق أمام الحكّام والمسؤولين الرومان وانطلاقه في الكلام بغير حساب مع تلاميذه الدراويش الفقراء، وإغداق الوعود عليهم، لا في هذا العالم فقط بل في ملكوت السموات. ممَّ يخافُ وهو اللّه أو إبنُ اللّه كما يقولون؟ لا أدري أيّهما. ولا هم يدرون.

ألوهيّة مشلولة عاجزة عن الدفاع عن نفسها تكتفي بالتهديد بأبيها، بل تدعو الآخرين إلى نشر رسالتها، ثمّ تفرّ إلى أبيها الذي تخلّى عنها! ثمّ ماذا قدّم المسيح للإنسانيّة في نزوله على الأرض واختلاطه بالناس، وشفاء الصمّ والبكم والعمي وإحياء الموتى وغير ذلك من المشاهد الفلكلوريّة؟ هل خفّف ذلك شيئاً من بؤس البؤساء وجوع الجياع وظلم المظلومين وجبروت الجبارين؟ كلّ ما فعله المسيح هو التبشير بالضعف والبكاء. لقد طفق يبكي مع الباكين. لقد زادوا به باكياً جديداً من غير أن يقدّم لهم شيئاً يوقف هذا البكاء ويمسحون به دموعهم!!

ثمّ إنّ المسيح لم يكن رجلَ كِفاح ونضال، بل زَجّ بتلاميذه

في المعارك والحروب، وهرع مسرعا ليجلس إلى يمين الآب الذي في السماء كأنّ هذا الآب سيهرب!! أهكذا يكون النضال؟

لا ينطق بكلمة واحدة أمام الحكّام، ثمّ يوصي تلاميذه لا بالمواجهات الكلاميّة التي تملّص منها بالصمت المطبق، بل بالمواجهات الفعليّة النضالية والجهاد لإعلاء كلمة الحقّ.

لقد زجّ بهم في الجحيم وفرّ إلى النعيم. لقد تنبّأ لهم بما سيعترضهم على الأرض من مهالك ونجا بنفسه من المهالك! تُرى أين نضاله من نضال بولس؟

ومع أن رأيي في المسيحية أنّها ديانة تبدأ بالأسطورة وتنتهي بالأسطورة، ولا تتحرك قط إلاّ في فضاء الأسطورة . ولعل هذا من أسباب انتشارها الواسع . فقد قررتُ بكلِّ إخلاص أن أسلّم نفسي إلى يسوع عسَاي أجد عنده الملاذ والملجأ.

ومَن يدري، فقد يكون كلُّ هذا المنسوب إليه في الأناجيل الرسمية غير صحيح، لا بدّ أن يكون المسيح غير ذلك، لأنّ مسيح هذه الأناجيل رجل اكتنفته الأساطير من كلّ جانب، حتّى لقد غدا من غير الممكن تبيّنُ شخصيته؛ بل إنّ كثيراً من الدارسين أخذوا يشكّون في حقيقة وجوده التاريخي، وإنْ كنت أنا شخصيّاً لا أذهب في الشكّ هذا المذهب، لأنّ كثيراً من الوقائع التاريخية لا يمكن فهمُها وتفسيرُها إلاّ بفرض وجوده. لكن إذا كان هناك مسيح آخر تاريخي، فكيف اختفى وحلّ محلَّه هذا المسيح الأسطوري؟

وبصرف النظر عمّا إذا كان مسيح الأناجيل هو المسيح الحقيقي أو غيره، فقد توجّهت إليه بكلّيّتي . وهذا من تناقضاتي . لكنّه الضعف الإنساني! وسألتُه تفريجَ كربتي وإقالةَ عثرتي، وإنهاضي من كَبوتي، بعد أن قصصتُ عليه قصّتي، وذكرت له

حكايتي، واستشهدت بقوله تعالى في الإنجيل المقدس: «اسألوا تُعطَوا، أُطلبوا تجدوا، إقرعوا يُفتح لكم»[9]، سألت حتّى بُحَّ صوتي، وطلبتُ حتّى جَفَّ حلقي، وقرعتُ حتّى دمت يدي، وأعدتُ ذلك مرّات ومرّات، بكيت وابتهلت، وناديت واستغثت، ولكن عبثاً. فكلا الإلهيْن . إله القرآن وإله الإنجيل . أفلسُ من أخيه. لقد رجعتُ بخفَّي حنين كما رجع الملايين قبلي ومن المسيحيّين أنفسهم. ولكن أيًّا منهم لا يريد الاعتراف بذلك، والفرق بيني وبينهم أنّي أعملت عقلي بينما اكتفوا هم بوضعه على الرفّ. لقد خاب أملي في يسوع، أمّا هم فليسوا على استعداد لأنْ يخيب لهم فيه أيُّ أملٍ. إنّهم يتّهمون أنفسهم كيلا يتّهموا يسوعَهم.

تُرى، كيف يُصدّق الناس هذه الأقاويل التي يظهر كذبُها كلَّ يوم؟ كيف كانت المسيحية تشهد كلَّ يوم نصراً جديداً، من غير أن يؤثر ذلك في عنفوانها وقوّة انتشارها، ودخول أجيال جديدة كلّ يوم فيها!

أجل، كيف يصدّق الناس هذه الأقاويل؟ كيف يَكْذِب بها صاحبُها على الناس؟ هل قالها بالفعل؟ فلولا أنّه أبله، أو أنّ الذي يخاطبهم بله، لما نطق بها. والحقّ إنّه على درجة عالية من الذكاء بحيث لا تخفى عليه بلاهتهم، وإلاّ لما ظلّوا عشرين قرناً يسألون يسوعَهم، ويطلبون، ويقرعون من غير أن يعبأ بهم أحد.

والأغرب من ذلك، أنهم يختلقون الأسباب والمبرَّرات لعدم ردِّ يسوع عليهم وعدم استجابة مطالبهم التي لا يفتأون يلاحقونه بها، ولا يفتأ هو بتجاهلها. حكمة بالغة. طوبى للبله، فإنّ لهم ملكوت السموات! ويظهر أن الأديان لا تستقيم إلاّ بالبلاهة والأكاذيب والوعود الخلاّبة!

---

(9) **إنجيل متى** 7/ 7.

وأعود فأتساءل كيف يصدر عن المسيح مثلُ هذه الأقوال، وكيف يصدّقها الناس، ويدافعون عنها بحماسةٍ لا نظير لها رغم عقمها وعدم جدواها؟ فلو كان الأمر يتعلّق بوعود أخرويّة فالحكم فيه عندئذ حكم سائر الوعود الأخرويّة التي لا يمكن التحقق منها، بل يُكتفى فيها بالإيمان الذي يتّسع له العقل، وأمّا الأمور الدنيويّة فمن السهل جداً التحقّق من صدقها وكذبها، ومع هذا فإنّ المؤمن لا يُعمل عقلَه فيها، بل يتلقّاها كما هي، ويُلحقها بالشعبة الأولى من غير أن يخضعها للتجربة، فالكلُّ عنده واحد، وهذا من أعاجيب الإيمان، إنّه يفعل ما لا يفعله العقل. لقد قطعت السماء قول كل خطيب!

خامساً

مرحلة القطيعة

وهنا تسارعت الأحداث بيني وبين ربي. لقد خاب أملي به كما خاب بيسوع. فكلاهما أفلسُ من أخيه. لقد أحرجني فأخرجني، ووعدني فأخلفني، ومنّاني فخذلني، فيا ضيعة العمر على إخلاصي له بغبائي وحسن ظنّي.

ولم أزل بين تجاذب الإيمان والشكّ حتّى وقعتِ القطيعة بينه وبيني. فتركتُ الصلاةَ والزكاة والصوم وما كانت تُمنِّي، وندمت على كلِّ ما بدا في هذا السبيل منّي. وكان طلاق وكان فراق، وعن طول بلاهتي لا تسألني. فمَنْ لي بنزع سيماء السجود فهي تشوّه وجهي، ولا تليق برجل عركه الدهر في مثل سنِّي!

ومنذ الآن سأعيش وحدي بلا إله يبتزّني. وأنا أعرف مقدَّماً أنّ الوحدة موحشة. كلاّ ليست موحشة، كلاّ ليست موحشة بالنسبة إليّ على الأقل وإلى كلّ إنسان يؤمن بذاته وبما يجيش فيه من مطامح وآمال. فأنا أعيش مع أحلامي وإيماني بذاتي وقدرتي على كشف الزيف وعلى العمل والإنجاز. فالويل لمن عرف الحقيقة إذا لم يكن أهلاً لها، غير قادر على استيعابها. فإذا لم يكن على قدّها فنصيحتي إليه ألاّ يقرب هذا الكتاب!

الشكوك لم تكن شيئاً جديداً في حياتي، بل كانت تنتابني قبل ذلك بوقت طويل، ولكنّي كنت أسارع إلى دفنها في الحال وإخفاء معالمها. فأنا شكّاك منذ نعومة أظفاري بقدر ما أنا متصوّف. وكانت تعتريني على الدوام موجات من كلٍّ منهما كأنّها بروق تومض إليّ ثمّ تخمد عنّي، وكنت لا أُخفي شكوكي وأنا على

مقاعد الدراسة، حتى لقد حُرِمتُ من منحٍ ومساعدات كثيرة كان أثرياء المدينة يغدقونها على زملائي للدراسة في الخارج، بل إن بعضهم كان يتبرّع بتشويه هذه الشكوك والمبالغة فيها إمعاناً في حرماني وللحلول مكاني.

ولا أنكر أن هذه الشكوك كانت نفعيّة إلى حدٍّ ما، فهي تختلف في حال الشدّة عنها في حال الرخاء، فهل يُعرف الصديق (أي الله) إلاّ في وقت الضيق؟ ولكن ذلك لا يعني بحال من الأحوال أنّ النفعيّة وحدها كانت وراء هذه الشكوك، فالأمر أعقد من ذلك بكثير. وكذلك كان تصوّفي، وكانت الحرب سجالاً بينهما. سبحان مُقَلِّب القلوب، هكذا كان يقول العامّة. فالقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يُقلِّبها كيف يشاء، كما جاء في حديث شريف. وهم يستندون في ذلك إلى قوله تعالى: «فاعلموا أنَّ الله يحول بين المرءِ وقلبه، وإنَّكم إليه تُحشَرون» (8/ 24).

لقد انقطعت علاقتي بالله منذ زمن لا أسأله شيئاً ولا أطلب منه شيئاً، بل إني أتحدّاه أن يمنع تحقيق ما يمكنني تحقيقه أو تحقيق ما لا سبيل إلى تحقيقه، فأنا لا حاجة بي إليه إذا كان حقّاً له دخل في قضاء الحاجات. هذا إذا صحّ أنّه يعبأ بأصحاب الحاجات أو يسمع دعاءهم أو . وبالأحرى . يعلم بوجودهم! ومع ذلك فكلُّ شيء في حياتي يسير اليوم على سجيّته الأولى، من صعود وهبوط، ورفْع وخفض، وبسْط وقبض، وسعْد ونحس، وإقبال وإدبار. لقد ظلّت الحياة هي الحياة، بتعقيدها وتركيبها ومسؤوليّاتها، واختلاف أصنافها ومعادلاتها.

لقد أصبحتْ حياتي أنا، بعد أن كانت خطّاً مشتركاً بيني وبين ما كنت أسمّيه «ربي»، الذي كان يقاسمني وقتي، وينتزع منّي أخصب ساعات حياتي، كنت أخلو فيها إليه، وأترك نفسي بين يديه. لقد أصبحتُ حرّاً طليقاً بعد أن كنت عبداً رقيقاً، يا

حسرتي على عمر ابتزّ فيه سبحانَه جَهدي وعرقي، وحرمني شبابي، وكاد يأتي على ما تبقّى من شيبتي، لولا أن تنبّهت من غفلتي. لقد نصَّبته وصيَّاً عليّ بإرادتي واختياري، فأورثتْني هذه الوصاية السخفَ والبلاهة والغباء، حتّى لكدت أفقد الرشد إلى حد الهراء، لولا أن صحّ عزمي فأبليتُ أحسن البلاء.

وهكذا رسخ في ذهني لأوّل مرة أن أنطلق من الأسر وأنعم بالحريّة. وأُنهي عقد الوصاية، عقد الذلّ الذي أبرمتُه مع ربّي. لقد وُلدت حراً ولن أسمح لأحد أن يستعبدني بعد اليوم. لقد طلع النهار، ولن أسألَ اللّهَ شيئاً بعد اليوم، هذا إذا كان يوجد حقًّا مسؤول، وإذا لم يكن الدعاء مجرّدَ حديثٍ مع النفس وسؤال النفس، ودعاء النفس للنفس، وبالتالي فالدعاء في هذه الحال هو دردشة ذاتية وثرثرة لطالما أذكتْ غيبيّتي، وزادت غيبوبتي، وأضعفت همّتي، وأعمت بصيرتي، وأطالت طفولتي، وسلبتني مهجتي وزهرة حياتي، وشحنتني بالآمال العريضة، ومنّتني الأماني المريضة، وأضعفت إيماني بذاتي، وأغرتني بالإتكال على ربّ الكائنات. تلك أيّام خلت، وانكشفت الغمة وانجلت، وعادت إليّ صحوتي، وبلاهتي قد انتهت!

إنّ مهمّتي في هذا الكتاب هتك الأستار وكشف الأسرار، وتعرية المصون للوصول إلى الدر المكنون. إنّه دعوة صادقة إلى إنهاء مرحلة وبدء مرحلة، إنها مرحلة النوم والغفلة، وبدء مرحلة اليقظة والإدراك والفهم، وبعد ذلك كلّ شيء يهون.

أنا أدرك تمام الإدراك أنّي في هذا الكتاب كمن يلعب بالنار. وليكن، فإذا لم تحرق النار الشوائب فلن نصل إلى الذهب الإبريز. آخر الدواء الكيّ، وإلاّ فما حيلتي؟ وإنْ كنت أعلم أنّي أنا شخصيّاً سأكون أوّل من يكتوي به. فإذا أردتَ أن تكون رجلاً فعشْ في خطر. هذا هو شعاري في الحياة، فلولا أنّ الشمعة تحترق لتضيء غيرَها،

فلا وربّك ما كان ضياء، هذا هو قدرها، بل هذه هي رسالتها. وإنّه لشرفٌ لي كبير أن أكون تلك الشمعة!

إنّ النفوس مشحونة، والقلوب «ملآنة»، والآفاق مكبوتة، والأقلام محتقنة والأنفاس محتبسة متلجلجة، وسقطات اللسان في كلّ مكان. الأفواه فيها ماء، فهل ينطق مَن في فيه ماء؟ فإن أردتَ كشف الغم وتفريج الكرب، فهلمَّ إلى الأسوار المغلقة، وابتعد عن أعين الرقباء.

إقرأ ما لا يُكتب في كتابات طه حسين، اقرأ المكبوت أو ما بين السطور في كتابه الشعر الجاهلي مثلاً، تجد عجباً! كذلك إقرأ زكي نجيب محمود، وإسماعيل مظهر، في كتاباتهما الأولى، أي قبل أن يعودا إلى الحظيرة عندما أحسّا بدنو أجلهما خوفاً مما قد يَنتظرهما بعد الموت. كذلك اقرأ عبد الرحمن بدوي في كتاباته الأولى أيضاً، تجد ما هو أعجب. حتّى هذا العملاق بدأ في الفترة الأخيرة تخور قواه. كلّنا في الخوف سواء. إنّه الضعف الإنساني.

الطاقات متحفّزة، والعقول مشرئبّة، والجميع على أتمّ الاستعداد للعمل، ولكنّهم ينتظرون الشرارة. كلّهم يتهيّبون إطلاق الشرارة لما ستجرّه عليهم من ويلات. ويظهر أن القدر قد اختار كتابي هذا ليكون هو هذه الشرارة. فلا بد مما ليس منه بدّ. وأقولها مدويّةً بلا فخر: لن تجد في اللّغة العربيّة طوال تاريخها . بما فيها العصر العباسي الذي شهد حركات إلحاديّةً جريئةً . كتاباً ككتابي هذا صراحةً ووضوحاً وجدِّيَّةً وتسميةً للأشياء بأسمائها بلا مواربة ولا التواء ولا نفاق ولا تكاذب.

كذلك لن تجد فيه كلمة تشهير، أو كلمة قذف، أو أيّ إشارة إلى الحياة الخاصة للأشخاص الذين سأتحدث عنهم، كما في كتابات سلمان رشدي مثلاً الذي أربأ بنفسي أن أهبط إلى مستواه،

وأرفض أي مقارنة بين كتابه وكتابي هذا. فالقذف والتشهير ليسا من أخلاق العلماء، والدخول في حياة الناس الخاصة لتَسقُط عيوبهم فيه إساءة كبيرة إليهم وهتك لحرمانهم. فلا يفلّ الفكر إلاّ فكر مثله «فأمّا الزَّبَدُ فيَذهَبُ جُفَاءً، وأمّا مَا يَنفَعُ الناسَ فيَمكُثُ في الأرض» (13، 17).

وهذا فخر لي أعلم جيداً أنّه سيكلّفني حياتي، ولكنّه سيُكتب لي الخلود بعد مماتي. فماذا أرتجي من الحياة وقد تجاوزتُ الثمانين؟ لقد ذُقت الحياة بحلوها ومرّها، بل بمرّها أكثر من حُلوها. وبلغتُ غاية التوتر فيها، ولم يبقَ إلاّ الشهادة في وقتٍ عزّت فيه الشهادة. يجب أن أقول كلمتي قبل أن أرحل، وليكن بعد ذلك ما يكون. هذا قَدري. ومَن كُتبت عليه خطىً مشاها. فلست أوّلَ رجل يغدر به الجهل والتخلّف. كلاّ، ولن أكون الأخير أيضاً.

وسنشهد بعد طبع هذا الكتاب عاصفة هوجاء من التشنج والتعصّب والسباب والشتائم والقذف وكيل الاتهام بحساب وبغير حساب، وسينفجر البركان كما لم ينفجر بركان من قبل. ومع ذلك لن يعدم الكتاب من يدافع عنه ويتصدى لحملات الجهل والظلم والإفتئات على الحقيقة، ويدعو إلى البحث الموضوعي والرصانة العلميّة. وسيندس بين هؤلاء جماعات المتنفعين والسماسرة وأصحاب المصالح، وسيُثيرون الطغاة ورجال الدين وكلّ من يصطاد في الماء العكر.

وهكذا سينفتح الباب أمام كلِّ طارق، وسيُفلت الزمام من أيدي الممسكين بالزمام. وستنحاز السلطات بطبيعة الحال إلى الجماهير الغاضبة والأصوليين و«لحى التيوس» كما يسمّيهم الرازي، وستنكِّل بأحرار الفكر. وستتبرع قوى الظلام بنصيبها الوافي من التصفيات والاغتيالات بتحريضٍ أو بغير تحريض من

خطباء المساجد والبسطاء وأصحاب النوايا الطيّبة، هذا فضلاً عن أصحاب النوايا السيئة باسم الدفاع عن الدين والحفاظ على الإيمان.

وإنّي على يقين من أن أكثر من 50٪ من المشاغبين أمّيّون لا يقرأون الكتاب. وإذا كانوا يقرأون فإنّهم لم يطّلعوا عليه. هذا إذا أمكن العثور على نسخة منه؛ لأنّ الحكومة ستصادره في الحال إلاّ إذا تمكّنتْ إحدى المكتبات من إخفاء بعض النسخ القليلة لبيعها سرّاً في السوق السوداء. ولن تكتفي الجماهير بمصادرة الكتاب، بل ستطالب بإحراقه علناً وهدر دم صاحبه على رؤوس الأشهاد، تقرّباً إلى الله ولقطع دابر «الفساد والمفسدين»، فيكون عبرة لمن اعتبر. هذا إذا لم يكن المسكينُ في السجن، أو إذا كان لا يزال حياً يُرزق.

ولن يقف الإعلام الغربي مكتوفَ اليدين بل سيندد بالتعصب وبقمع الحريات وانتهاك حقوق الإنسان. وسيدس أصحاب الدوائر السوداء في أوروبا وأمريكا أنوفهم للتشهير بالعرب والمسلمين والتنديد بسلطات التخلف والجهل، وسيتلقف المفسدون والبسطاء هذه الفرصة لاتّهام الكتاب وصاحبه بالعمالة للصهيونية العالمية.

إنّ كل ذلك لا يهمّني، فالمهمّ عندي أنّي أرضيتُ نفسي، وقلتُ كلمتي وأنا على شفا حفرتي، وكنتُ أوّلَ من شقّ الطريق ونهجَ السبيل. لقد فُتح الباب، وهو إذا فُتح فلن يُغلق بعد اليوم. وإنّه لأمر طبيعي جداً أن يهتاج المهتاجون، ويثور الثائرون، ويكثر المصطادون، وينادوا بالويل والثبور وعظائم الأمور. فالصدمة قويّة جداً في بلدٍ هاجع سادر في الغيّ والضلال لم يتعوّد الصدمات، فأكثر الناس لا قدرة لهم على رؤية النور الساطع. لكنّ هذا النور وتوالي الصدمات هما الطريق الوحيد إلى تجديد الذات ودخول عصر التنوير. وإلاّ فلن نخرج إلى النور.

[Blank Page]

الفصل الثّاني

منهج البحث في القرآن

هناك منهجان لفهم النصّ هما: المنهج النقلي، وهو يقول بأولويّة النقل على العقل، والتسليم بصدق النصّ وعجز العقل عن فهم مراميه وأغراضه القصوى؛ والمنهج العقلي الذي ينادي بأولويّة العقل على النقل، وقدرته على إدراك الحقيقة بصرف النظر عن النصّ. فالنصّ آخر هموم العقل الحرّ المستقل المؤمن بذاته.

ولذلك سأصطنع في هذا الكتاب المنهج العقلي الذي استحدثه ديكارت في بداية العصر الحديث وإن لم يلتزم به دائماً، وعلى الخصوص في فهم النصوص الدينيّة؛ بل ناور وداور ولوى عنق العقل لإنقاذ السوس الذي يملأ النقل وما في النقل من عفونات تزكم الأنوف.

أرأيتَ إلى هذا العملاق كيف ينحني للنصّ؟ ليس ديكارت أوّل من انحنى، كلاّ. ولن يكون الأخير. إلاّ الذين آمنوا بالعقل وعملوا به وصدقوا ما عاهدوا العقل عليه، وقليل ما هم!

فللنص سلطات وقدرات لا يصمد لها إلاّ النادرون.

إنّ القاعدة الأساسية للمنهج العقلي هي التجرّد والموضوعيّة والإقبال على البحث بذهنٍ خال من التحيّز والغرض، «فالغرض مرض» كما يقولون. وبهذه الروحيّة يجب أن نشق

الطريق لدراسة القرآن، فنجعله كغيره من الدراسات العلميّة، ونخضعه للبحث والتحليل والشك والرفض والإنكار، لأنّ هذا هو ما يخصب البحث ويغنيه ويعود عليه بالنفع العميم.

إنّ تطبيق المنهج العقلي على القرآن هو، في نظري، حدث خطير وكبير، سيزلزل الأرضَ تحت أقدام التقليد والجمود والعفن الآسن. وهو أمرٌ لا بدّ منه، فآخر الدواء الكيّ.

للقرآن جذور عميقة في تكويننا الثقافي، فإذا اهتزتْ هذه الجذور، تبدّل التكوين غير التكوين، وتبدّل الزمان غير الزمان، وتبدّل الإنسان غير الإنسان، وبالتالي برز جيلٌ جديد لم يكن بالحسبان. لذلك فإنّ أوّل شيء أفاجئك به في هذا الحديث هو أنّي أشكّ في القرآن، وفي إله القرآن، وفي تعاليم القرآن، وفي إعجاز القرآن وبلاغة القرآن.

ألحّ في الشك، وأعتنقه منهجاً، «إذِ الشكوك، كما يقول الغزالي، هي الموصلة إلى الحقّ. فمَن لم يشكّ لم ينظرْ، ومَن لم ينظرْ لم يبصرْ، ومَنْ لم يبصرْ بقي في العمى والضلالة».

هذا هو منهاجي في العمل. وهكذا أخذت أبحث وأفكر وأقرأ وأتدبّر، حتّى انتهى بي الحال إلى ما يشبه اليقين. ذلك بأنّ ما نسمّيه بإعجاز القرآن وعصمة القرآن إنما هو، كأيّ عملٍ بشريٍّ، فيه الخطأ وفيه الصواب.

وأنا أُقدر النتائج التي قد توصّلتُ إليها، لكن ذلك لن يثنيَني عن إثباتها وإذاعتها وإبداء رأيي بحريّةٍ أعلمُ سلفاً أنّها ستجرّني إلى مهالك ومواجهات خطيرة، ربما كنتُ في غنىً عنها. ولكن لا. فالحقُّ أحقُّ أن يُتبع. وسآوي إلى جبلٍ يعصمني من الماء ما استطعت، وإلاّ فالشهادة خيرٌ ممّا أُعاني من احتقانٍ وعجزٍ عن

إعلانِ ما أؤمنُ به وما يؤمنُ به كثيرون غيري، ولكنّهم ينتظرون الشرارة لتنطلق بعد ذلك شرارات وشرارات تضيء النفق المظلم الذي نعيش فيه، فهل غير ذلك إلى خروج من سبيل؟

***

أمّا الأسباب التي أدّتْ بي إلى الشكّ في القرآن فهي ما فيه من تناقض، وتشويش، وعموميّات فضفاضة، وعبث لفظيّ لا معنى له، وأخطاء لغويّة وبيانيّة حار القدماء في إيجاد مخارج لها، وأُخرى علميّة وتاريخيّة أربأ بربِّ العالمين أن يقع فيها.

كما في القرآن شحنات خطابيّة، قنابل كلاميّة، لها فرقعة عالية تكاد تصمّ الآذان؛ لكنّها، بعد التحليل العميق، ورغم ما فيها من عذوبة وفتنة وجمال أخّاذ، شاحبة هزيلة، قليلة المضمون، خالية من الدسم. فقاقيع في الهواء تشعّ بالضوء كالألعاب الناريّة، إلاّ أنّها سرعان ما تنطفئ وتتساقط على الأرض كسفاً مخلِّفة وراءها ظلاماً دامساً:

فكأنّها برقٌ تألّق بالحِمى ثمّ انطوى فكأنّه لم يَلمَعِ!

كثيرٌ من كلام أرباب البلاغة، بل من سجع الكهّان، خيرٌ ألف مرّة من كثير من آيِ القرآن، لا عقلانيّةٌ بالغة، وحشدٌ من الأساطير، تفنّن المفسّرون . وفيهم المعتزلة، ويا للغرابة! . في دفعِها والدفاع عنها.

تبقى مسألة أخرى وليست أخيرة، وهي مسألة إدانة القرآن للقرآن. فالحديث عن القرآن حديث ذو شجون، وأيّ شجون، فما أكثر شجون القرآن! قال «تعالى»: «ولو كانَ مِن عندِ غيرِ اللَّهِ لَوجَدوا فيهِ اختلافاً كثيراً» (4/ 82).

لقد حكم القرآن على نفسه بالإدانة! فما فيه من اختلافات يفوق حدَّ الكثرة؛ بل هو بؤرة لكلِّ خلاف واختلاف، ولم يبلغ الخلاف والاختلاف في أيِّ كتاب في العالم كما بلغ في القرآن. ومع ذلك يريدوننا لنصدِّق ألاّ خلاف ولا اختلاف في القرآن. يجب إنكار المحسوس لتصديق ما لا يتفق مع المعقول ولا مع المحسوس، على طريقة «صدَق اللَّهُ وكذبَ بطنُ أخيك»؛ وإلاّ فسترى وتسمع ما لا يرضيك!

***

أنا لا أدعو إلى التخلي عن الدين، فهذا مطلب عسير، بل هو طلب ما لا يُطلب، فللدين عند أصحابه عذوبة الرحيق. ولطالما استمتعتُ أنا شخصياً بهذه العذوبة قبل أن أعود إلى رشدي.

قلت إنّي لا أدعو إلى التخلّي عن الدين. إنما أدعو إلى عدم الاحتكام في كلِّ شيءٍ إلى الدين، ودسِّ أنفه في كلِّ صغيرةٍ من شؤون الحياة، وذلك باعتماد العلمانيّة منهجاً فكريّاً وحياةً. ليست العلمانيّة إلحاداً، أو دعوة إلى الإلحاد كما يصوّرها أعداؤها، إنما هي وضع حدٍّ للتداخل بين الدين والدولة.

ليس الدين قتل الأسير، ورجم الزاني، وقطع يد السارق. الدين عند العلمانيين ما وقر في الصدور، واستقر في السريرة. اعتقدْ ما شئتَ، لكن إيّاك أن تُلزم الآخرين بعقيدتك، وتَجعل منها نظاماً للحكم والحياة. فالدين للهِ والوطن للجميع. هذا هو شعار العلمانيّة، فلا شأن لله في قضايا الوطن. هذا هو شعار العلمانية. لا مطلق ولا مقدّس في العلمانيّة. إنما المطلق والمقدّس فيها هو الإنسان، وقيمة الإنسان، وحريّة الإنسان، واحترام كرامة الإنسان، وعدم استغلال الإنسان للإنسان، ليس الكافر مَن يكفر بالأديان، الكافر الوحيد هو الذي يكفر بالإنسان وحقوق الإنسان.

فقيمة الحياة هي العقل، وقيمة الحياة هي الحريّةّ، وقيمة الحياة هي التقدم والتطوّر، وقيمة الحياة هي تجديد الرؤى والتعبير عنها بما يتلاءم مع أحوال الزمان والمكان. أمّا الكفر والإيمان، والملاك والشيطان، فنشاز يعطّل صيرورة الأحداث وانسياب الحركة في عالم من القوى وموازين القوى ومراكز القوى.

أكثر ما يخيف الإنسان التقوقع في أنقاض الذكريات واجترار الأساطير والأوهام، والغيبوبة في الغيب والنصّ والإعجاز والبيان، ومتابعة أخبار جنّة عدن والحور والنور والولدان، وقصص الجن وأحاديث لقمان، وما إلى ذلك من الأقاصيص والأخبار التي طالما أَخصبتِ العقول والأذهان، في الماضي القريب والبعيد. ولكنّها اليوم خَسرت الرهان.

[Blank Page]

الفصل الثالث

القرآن في عقيدة المسلمين

أوّلاً . القرآن كلام اللّهِ

ثانياً . القرآن محور مدارس الفكر وشتّى مذاهب الرأي في الإسلام

ثالثاً . الحسّ اللّغوي مفتاح القرآن إلى قلوب العرب الجاهليّين

رابعاً . عمل مفسِّري القرآن

خامساً . ثورة لا بدّ منها

[Blank Page]

أوّلاً

القرآن كلام اللَّهِ

في أرض قفر، ووادٍ غير ذي زرع، خرج محمّدٌ ليقول كلمته. وأطلّت كلمته قرآناً عربيّاً ظنّه غيرَ ذي عوج. لقد انتفض محمّد وهو على يقين أنّه يتلقّى أمراً من الغيب وانتداباً من السماء لينذر قوماً ضلّوا عن سواء السبيل «يا أَيُّها المُدَّثِّر ! قُمْ فَأَنْذِرْ» (74/ 1 . 2).

تجربة من الغيب آمن العرب والمسلمون جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها أنّ محمّداً قد اختير لها ليقود العرب ويُخرجهم من الظلمات إلى النور. إنّ «النبي» المأخوذ بين قسر الحقيقة وضرورات الحقبة التاريخيّة التي وُجد فيها، لا يدرك دوره إلاّ رسولاً لخطاب، مبلّغاً لكتابٍ يوحَى إليه من الله.

وبالفعل، ففي جميع مراحل «الوحي» . أو ما يسمّى كذلك . نُحسُّ كأنما هي اللغة تسعى إلى تحقيق ذاتها في رحاب عالَمِ تراكيبِها الممكنة وتدفّقِ معانيها سلسبيلاً عذباً فُراتاً. لقد جاء الرجل الذي يقْدرُها قدْرَهَا، ويحفظ ورْدَها، ويفجّر طاقاتِها المبدعة وإمكاناتها الخلاّقة. وأخيراً حقّقت هذه اللغة أحلامَها، وبلغتْ مع القرآن أقصى أمانيها وغايةَ ما تصبو إليه من آمالٍ ومطامح.

وتابعت اللغة العربيّة مسيرتها بعد غياب الرجل الذي رفع عقيرتها وشدّ أزرها، حتّى جاوزت حدَّها، وانتشر مداها واتّسعت آفاقها واخترقتِ الحدودَ والسدود. فآتت ثماراً يانعةً وجنياً طيّبَ الأُكُل حلوَ المذاق، شهيَّ المطعم والمشرب، وأنجبتِ الفطاحل

والأفذاذ في كلِّ علمٍ وأدبٍ وفنّ، واستوعبت كلّ شيء، ولم تَعْيَ بالتعبير عن أيِّ شيء، وكأنما بطرفة عينٍ، أو أقرب من ذلك، انقلبتْ من لغة السيف والناقة والبعير إلى لغة العلم والفنّ والفلسفة والحضارة.

وإنّها لمعجزة تُذكر لمحمّد. استقوى بها خطابُ محمّد، وتعزّز بها منطق محمّد، بين معجزاتٍ أخرى أحرقت المراحل. وأضاف كلٌّ منها أبعاداً جديدة انعكستْ وعوداً بالتقدّم والرخاء والعطاء، فضلاً عن القوّة والمنعة والقدرة على التألق والمجد قروناً طويلة.

يكفي الرجل هذه المعجزات والآيات البيّنات. إنّه ليس بحاجة إلى أيِّ معجزة أخرى تأتيه من عالم الغيب، يَفتح عليه به بديعُ السموات والأرض، الذي ضنّ عليه ولو بمعجزة واحدة مما أفاض على الأنبياء الأوّلين!

***

القرآنُ، لغةً، مصدر لفعل (قرأ). وهذا المصدر يعني التلاوة. ويقترح علماء اللغة المستشرقون أصلاً سريانيّاً أو عبرانيّاً لكلمة (قرآن). والقرآنُ، اصطلاحاً، هو النصّ المقدس الذي أوحى الله به إلى نبيِّه محمّد بن عبد الله، المكتوب في المصاحف، المنقول عنه بالتواتر، المتعبّد بتلاوته والالتزام بتعاليمه.

وللقرآن عدّة أسماء منها: الكتاب، والفُرقان، والذِّكْر، والتنزيل، وكلام الله. ويُوصف بالعربي، والكريم، والعزيز، والحكيم، والعظيم، والمبين، والمجيد، في لوح محفوظ، غير ذي عوج، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، يهدي للّتي هي أقومَ، فيه شفاء للناس ورحمة للمؤمنين، لو أنزله اللهُ على جبلٍ لرأيتَه خاشعاً متصدِّعاً من خشية الله، ولو اجتمعت الإنس والجن على

أنْ يأتوا بمثله لا يأتون، ولو كان بعضُهم لبعض ظهيراً، ولو كان من عند غير اللَّهِ لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.

وخلافاً للعهدَيْن القديم والجديد، لا يوصف القرآن بالمقدّس، وإنْ وردت كلمة (قدسي) وصفاً لبعض الأحاديث التي ذكرها «النبي» منسوبة إلى الله، فيقال «هذا حديث قدسي»، أي على لسان الله تعالى، وإنْ لم يُنزل به قرآناً.

القرآن مقال، والمقال نطق يفترض قائلاً ومخاطَباً. فأمّا المخاطَب فهو معروف. فالخطاب في القرآن موجّه دائماً إلى محمّد أوّلاً وبالأصالة، وإلى المؤمنين بعد ذلك، وإلى أفراد البشر جميعاً في كلّ زمان ومكان. فالقرآن يخاطب «النبي» في كثير من الأحيان ناصحاً ومعزّياً، وربما معاتباً ومؤنّباً، وربما أيضاً ردّه عن بعض الآراء التي أبداها عن نظر واجتهاد، وخطّأه فيها وصحّح أحكامه وحوّله عنها إلى البديل الأصلح.

وقد يستعمل ضمير الغائب . لا المخاطب فقط . للإشارة إلى محمّد، كالآيتيْن الأولَيَيْن من سورة «عَبَسَ»: «عَبَسَ وتَوَلَّى أنْ جاءَهُ الأعمى» (80/ 1 . 2)، أي عبستَ يا محمّد وأشحتَ بوجهك عن الأعمى عندما جاءك يطلب الهداية فانصرفتَ عنه إلى صناديد قريش وأرهاطها من المشركين الذين أظهروا عدم الاكتراث لك ولم يبالوك.

لكن الخطاب لا يلبث أنْ يتوجّه إلى محمّد بعد ذلك: «وما يُدرِيكَ لعلَّه يَزَّكَّى، أو يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى؟ أمّا مَنِ استَغنَى فأنتَ له تَصَدّى؟ ومَا عليكَ ألاّ يَزَّكَّى. وأمّا من جاءَكَ يسعَى، وَهُوَ يَخشَى، فأنتَ عنه تلَهّى» (80/ 3 . 10).

وفي حالات نادرة يتوجّه الخطاب إلى محمّد فقط دون غيره من المؤمنين، كتحريم زواج نسائه من بعده، بينما يصحّ زواجُ أيّ

امرأة أخرى بعد موت زوجها عنها من أيّ رجل ضمن الأصول الشرعيّة.

وفي بعض الحالات الأخرى لا يقع الخطاب إلى محمّد بطريق «الوحي» القرآني، رغم أنّ الخطاب محصور فيه وحده، بل يقع بوحي آخر غيرِ قرآني لم يُوضحه النبي. فقد حُرّم على محمد وعلى آل بيته مثلاً تلقّي الصدقات، ولم يرد في ذلك نصٌّ قرآني. كذلك لا يجوز للنبي أن يرث أو أنْ يورث، وهذا ما لا ذكر له في القرآن أيضاً.

***

عرفنا الآن المخاطَب وإلى مَن يتوجّه الخطاب، ولكن مَن المخاطِب؟ أي مَن هو صاحب الخطاب؟ كلام مَنْ هو؟ هذه مسألة إيمانيّة صِرْف لا يمكن التطرق إليها إلاّ في إطار عقيدة أولئك الذين يؤمنون بها. ومهما اتّسع هذا الإطار وتعاظم فإنّه يظل إطاراً محدوداً في الزمان والمكان، أي محصوراً في رقعة معيّنة من الأرض وحقبة معينة، ملزم بها وحدها دون سائر رقاع الدنيا.

ومن ثمّ فإنّنا إذا توجهنا بهذا السؤال إلى الذي نقل إلينا هذا الخطاب وهو محمّد بن عبد الله، لأجابنا بلا مواربة ولا التواء أنَّ القرآن كلام الله الأزلي الذي يقول له بعبارة صريحة حازمة: «الله لا إله إلاّ هو الحيّ القيوم، نزّل عليكَ الكتابَ بالحقِّ مصدِّقاً لما بين يديه» (3/ 2)، ويقول أيضاً: «وإنْ أحدٌ من المشركين استجارك فَأَجِرْه حتّى يسمَع كلامَ الله» (9/ 6)، ويقول كذلك: «وأنزلنا إليك الذكرَ، لتبيّن للناس ما نُزِّل إليهم» (16/ 44)؛ وفي خطابه لمحمّد يصدر هذا الحكم القاطع: «نزَل بهِ الروحُ الأمينُ على قلبكَ لتكونَ من المنذِرين، بلسانٍ عربيٍّ مُبين» (26/ 193 . 195).

وفي بيان الدليل على أنّ القرآن ليس كلام محمّد يقول تصديقاً له، شاهداً على أمانته، نافياً عنه أيّ كذب في التبليغ: «ولو تَقوّلَ عَلينا بعضَ الأقاويل، لأَخَذْنا منه باليمين، ثمّ لَقَطَعْنَا منه الوَتِينَ، فمَا منكُم مِن أحدٍ عنه حَاجِزِين» (69/ 46).

وهكذا، فالمسلمون جميعاً، في مشارق الأرض ومغاربها يؤمنون أنّ صاحب الخطاب هو الله تعالى، وبالتالي فإنّ القرآن كلام الله نزّله على قلب نبيّه بشيراً ونذيراً، «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه»، ليكون آيةً للناس إلى يوم القيامة، بل معجزة تدلّ على صدق مَن أُوحي إليه: محمّد.

ومن هنا أسطورة إعجاز القرآن التي سنتحدث عنها بعد قليل. فالخطاب القرآني لا ينسب إلى النبي أيَّ معجزة إلاّ معجزة القرآن!!! وذلك ليكون دلالة على صدقه، وبالتالي فهو رسول صادق قد بلّغ عن ربه ما أمرَه بتبليغه بلا زيادة ولا نقصان، ومن غير أن يطرأ عليه أيُّ تحريف.

والله في القرآن يعبّر عن نفسه باسم الجلالة بلا ضمير حِيناً: «فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُم» (2/ 200)، وبصيغة المتكلّم المفرد حيناً آخر: «فاذكروني أذكركم» (2/ 152)، وبصيغة الغائب أحياناً: «ثمّ استوى إلى السماء وهي دخان، فقال لها وللأرض إئتيا طَوعاً أو كَرهاً، قالتا أتَينا طائعين» (41/ 11)، وبصيغة المتكلّم الجمع أحياناً أخرى: «إنّا أنزلناه قرآناً عربيًّا» (12/ 2)[1]، كما قد يجمع في الآية الواحدة أكثر من صيغة: «قال الله إنّي منزّلها

---

(1) إنَّ صيغة المتكلم الجمع هذه كثيرة الورود في القرآن. وقد علق عليها أحد «أذكياء» المبشرين بقوله أن هذه الصيغة دليل على ثبوت عقيدة التثليث في القرآن. وبذلك فقد اعترف من حيث لا يدري أن المسيحية تقول بتعدّد الآلهة.

عليكم» (5/ 115)، فقد جمع في هذه الآية بين اسم الجلالة (الله) والغائب (قال) وضمير المتكلّم (إنّي)، وضمير الهاء في «منزّلها» هنا تعود إلى المائدة التي سألَ الحواريّون عيسى بنَ مريم أن يدعو اللهَ بتنزيلها عليهم من السماء!

وغنيٌّ عن البيان أنّ القرآن، في نظر المسلمين، قبسٌ علويٌّ سبقت به الإرادة الإلهيّة منذ الأزل. وهو كلام الله ذاته، المبنى والمعنى من الله. وقد أُملي على النبي كلمةً كلمةً، وحرفاً حرفاً، والمُملي هو الله بواسطة جبريل مَلَكِ الوحي أو الروح الأمين. هذه عقيدة راسخة في عقول المسلمين، فمن أنكرها أو قال إن القرآن من صنعِ محمّد، فهو كافرٌ جاحدٌ للدين الحنيف، وبالتالي فهو مستوجبٌ للعذاب الأبدي في نار جهنم خالداً فيها أبداً، وبئس المصير!!

لقد كان القرآن فريداً في تشكيلِ التعليم والبنية المطلقة للمسلمين، وشبكة المعاني ونظام الرموز الذي يوجِّه أفعالهم، ويعطي معنىً لوجودهم. ويجعل أداءهم في الحياة وإنجازاتهم ومنهج تفكيرهم وفق المثل الأعلى الذي رسمه لهم.

القرآن، في نظر المسلمين، هو السلطة الدينية الكلّيّة. به اكتملت العمليّة الشاملة للوحي الإلهي التي جاءَت من اللهِ من أجل هداية البشر. فهو يشدّد على وجود رسالة مستمرة وثابتة ذات مصدرٍ إلهيّ، اتخذت شكلها النهائي في القرآن نفسه. إنّه مصدر جميع السلطات في الإسلام. وهو خلاصة وافية تعبر عن مكوِّنات الإسلام الفكريّة والتشريعيّة والعلميّة والثقافيّة.

والوحي هو كلمة اللهِ وتعبير عن إرادة الله، وهو حضور إلهيّ وقوة ظهرت في صيغ مختلفة لسلسلة طويلة من الأنبياء والرسل. لكن، إذا كانت الصيغ مما يتغيّر ويتطوّر بتطور الزمان

والمكان، فإنّ المضمون يظلّ واحداً غيرَ قابل لأيٍّ تغيير أو تبديل. إنّه كلمة اللَّهِ الدائمة الأبدية التي لا تخضع أبداً لمعايير الزمان والمكان.

ثانياً

القرآن محور مدارس الفكر وشتّى مذاهب الرأي في الإسلام

القرآن، في نظر المسلمين، هو نبراس كلِّ علم وحكمة وفلسفة وتشريع وتثقيف وأدب. فهو كتاب ديني مذهبي، ورائعة أدبيّة بلغت في نظر البلغاء الذروة في الفصاحة والبيان.

والقرآن ليس فيه نظريّة محدّدة واضحة في طبيعة الله والكون والحياة والمصير... على نحو ما نجد في كتب الفلسفة والطبيعة والكلام، لكنّه يشتمل في الوقت ذاته على طائفة من الأفكار والآراء تتّصل بالله والكون والحياة والمصير... إن لم تكن علمية فلسفية لاهوتية بالمعنى الإصطلاحي لهذه الكلمات، فإنّها من الممكن جداً أن توجِّه الفكر الفلسفي والعلمي واللاهوتي وجهةً خاصّة، ما كان ليتجه إليها لولا القرآن.

لقد كان للقرآن من التأثير والفعاليّة في تكوين عقول المسلمين وتوجيه نفوسهم ومشاعرهم بحيث أنّ كلَّ مفكر، وكلّ عالم، وكلّ فيلسوف... سيحسب حساباً للقرآن في كلّ ما يقول ويكتب ويفعل، وجميع ما يَصدر عنه من فكر ونظر. ومن هنا فإنّ القرآن سيكون محوراً لحركات شتى:

فالنحويّون أخذوا من القرآن مادّة من موادهم لاشتقاق قواعدهم وتطبيقها؛ واللّغويّون وضعوا الكتب والتصانيف في غريب القرآن؛ وعُني الفقهاء بآيات الأحكام التي أنشأوا منها

علمهم؛ وكذلك فعل الأصوليون في وضع علم أصول الفقه. وكانت للمتكلّمين مذاهب مقرّرة في العدل والتوحيد وصفات الله وأفعال العباد، اعتمدوا فيها بطبيعة الحال على ما تناهى إليهم من علوم الفلسفة وما ثبت لديهم من حقائقها.

ولعلّ خير ما يصوّر ذلك قول الراغب الأصفهاني في الجزء الأول من كتابه الخصائص: «ألفاظ القرآن هي لبّ كلام العرب وزبدته وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحِكَمهم، وإليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم وشعرهم. وما عداه كالقشور والنوى بالإضافة إلى أطايب الثمرة، وكالحثالة والتبن بالنسبة إلى لبوب الحنطة»[2].

وهكذا، فقد كان القرآن العمودَ الفقري للعرب والمسلمين في جميع أقطار الأرض، ومنبعَ الإلهام الذي ستتدفق منه مدارس الفكر والدين والإجتماع في الإسلام، ومنه سيصدر التفسير والفقه والأصول والكلام والأخلاق واللغة والتصوف، بل وعلوم السحر والشعوذة. فكلّ عناية المسلمين متَّجهة إليه حفظاً واستيعاباً وتعلّماً وتعليماً، ووعظاً وإرشاداً، وتدبّراً واعتباراً وتثقيفاً وأدباً...

فقد درسوه، حرفاً حرفاً، بغيرةٍ وورعٍ وتقوى لا نظير لها. بل لقد تمحّلوا فيه وتكلّفوا وتصنّعوا حتى قوّلوه ما لم يقلْ، وأيّدوا به أقوالاً متعارضة، ومذاهب متهافتة، وهم يظنّون أنّهم يُحسنون صنعاً. لقد بلغوا في ذلك غاية المدى ووصلوا إلى أشياء «لم تخطر ببال ربِّنا»، إذا كان لهذه الكلمة من معنى!

---

(2) **الخصائص**، ص 79.

ثالثاً

الحسّ اللغوي مفتاح القرآن إلى قلوب العرب الجاهليين

الخطاب القرآني له منطق خاص هو أساليبه البيانيّة والبلاغيّة التي قرأ فيها الفحول قمة البيان العربي. فقد كان الحسُّ اللغوي دائماً جزءاً من الحياة الجاهليّة. لقد كان الجاهلي عبداً للبيان قبل أن يكون عبداً للأوثان. من الجاهليين من ازدرى الأوثان وحطّم الأوثان، بل لقد بالَ على الأوثان، ولكن أيّاً منهم لم يسلك كذلك أمام آلهة البيان، بل كان يعكف على بيانه واختيار لفظه والتدقيق في عبارته وصقْلِ قصيده عكوفاً أكاد أقول لم يعهدْه قَبله إنسان. فلا اللاَّت ولا العزّى. كلاّ. ولا مناة بصارفة له عن مواهب اللسان.

لم نسمع أنّ العرب قد أرسلوا بأبنائهم إلى المحاريب، ولكن كان من تقاليدهم الراسخة إرسال أبنائهم . حتّى الفقراء منهم . إلى المرضعات من الأعراب العاربات ليعودوا إليهم باللسان الفصيح والبيان البليغ، والعبارة الآسرة الدالة. فكنّ يأتين في المواسم إلى مكة لأخذ نصيبهنّ من المواليد فيرضعنهم مع أولادهنّ، فينشأون نشأة البادية ويكتسبون فصاحة أهل البادية، ويعودون غانمين مأجورين يَرفلون بالصحّة والعافية، فضلاً عن النباهة والتيقّظ وجودة اللسان التي تُورِثُها حياةُ البداوة.

لقد استعمل القرآن الحسَّ اللغوي لإقامة حسٍّ ديني جديد، وتصحيح وضع اجتماعي قديم وإنعاش رؤية روحيّة بعيدة الأغوار.

وكانت استراتيجية ناجحة وإنْ لم يكن الطريق سهلاً معبداً مليئاً بالورودِ والرياحين. لذلك كان فتنة القول، وفن القول، وسحر القول جزءاً أساسياً من استراتيجيّة القرآن في تعامله مع هذه المواد الخام التي يُراد إعدادها لمهمات تاريخية كبيرة، والعهدة إليها بمسؤوليات ضخمة وإنجازات لم تخطر لأحد قبلُ على بال. وهي خطّة بارعة كان من أهم نتائجها عقيدة إعجاز القرآن.

المرء يفتنه القولُ أحياناً عن المقول، والشكلُ عن المضمون، فلا يفيق إلاّ وقد أخذ القولُ لبَّه وأمسكَ بتلابيبه. وهذا ما يعرفه أمراء القول. إنّ عناية القرآن بألفاظه هي عناية فنّان ملهَمٍ مستغرقٍ من الفنّ، أكثر منها عناية دارس أكاديمي مستغرق في البحث عن الحقيقة. لقد جعل القرآن الألفاظ حوراً، وأطلق الحور لتغزو العقول والقلوب، وتأخذَ الألباب.

أصوات الكلمات تشغل عن الكلمات، والكلماتُ عن معاني الكلمات. الأصوات منسجمة تكاد تحوّل الكلمات إلى إيقاعات، لكن الأصوات في نهاية المطاف لا تعني شيئاً محدداً. إنَّ فكرة إحالة الكلمات إلى موسيقى ليست بالفكرةِ الهشّة التي يتداولها المرء باستخفاف؛ لكن أن تنقلب الكلمات إلى غاية في ذاتها هذا هو الهشّ. هنا كلّ شيء مسخَّر لخدمةِ نسقٍ موسيقيّ ولحنٍ ساحر.

لقد تحيّر العرب . في ما يُروى، والعهدة على الراوي . ممّا سمعوا من كلام يتلوه عليهم رجلٌ منهم يجدونه من جنس كلامهم من غير أن يستطيعوا مع ذلك الإتيان بمثله. بهذا التحيّر المذهل الذي غشّاهم وأخذ منهم بالكظم، وقفوا مأخوذين بما يسمعون من نظم القرآن وبيانه أكثر منهم من أخبار الأمم وأنباء الغيب ودقائق التشريع وعجائب الدلالات على أسرار الكون.

ومن هذا الوجه طالب القرآنُ العربَ بالإقرار والتسليم بأنّه من عند الله، أو تحدّاهم بأن يأتوا بمثله. وكان كلُّ ما قالوه في هذا السبيل: «قد سمعنا، لو نشاء لقلنا مثل هذا، إنْ هذا إلاّ أساطير الأوّلين» (8/ 31). بل لقد ردّوا التحدّي بتحدٍ آخر للقرآن ولربِّ القرآن؛ إنّهم غير مقتنعين بأنّ القرآن من عند الله، فهم راغبون حقًّا في الوصول إلى الحقيقة الناصعة، ولكنّهم يطلبون من اللّٰه علامةً أو إشارة تدلّ على أنّ القرآن من عنده حتّى ولو كانت هذه العلامة إنزال العذاب بهم، فقالوا: «اللّهمّ! إنْ كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارةً من السماء، أو ائتِنا بعذابٍ أليم» (8/ 32).

إنّه تحدٍ محرج لمحمّد يضع صدقه في الميزان، ولكنّ الله، كعادته، لم يتحرّك. فرغم استعدادهم لتلقّي العذاب في سبيل الحقيقة وشعورهم الصادق بأهمّيّتها والحاجة إليها، جاءهم هذا التخلص البارع من موقف الإحراج الذي وضعوا النبي فيه «وما كان اللّٰه ليعذِّبَهم وأنتَ فيهم!» (8/ 33)[3].

فيا لَعَظمة القوم ويا لأنفَتِهم!! يا لإخلاصهم للحق حتّى ولو كان على حساب حياتهم. لقد سمعوا الكثير عن تهديدات اللّٰهِ في القرآن للأمم الغابرة بإنزال العذاب بهم عندما يُكذّبون أنبياءهم، ولم يكن وجود هؤلاء الأنبياء حائلاً دون وقوع العذاب

---

(3) بل يبدو أنّه سبحانه لم ينفّذ تهديداته حتى في الماضي وهو يتخلص من هذا التنفيذ ببراعة مشابهة لهذه الآية: «وإذا أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور: خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون» (2/ 36)، فرغم أنهم تولّوا عنه بعد ذلك فقد امتنّ عليهم بالعفو فضلاً منه «ثمّ توليتم من بعد ذلك فلولا فضل اللّٰه عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين» (2/ 46). بهذه المناسبة إنّي أتساءل: كيف يقبل اللّٰه هذا الإيمان الذي لم يكن وليد الإقتناع بل كان وليد الضغط والإكراه: «خذوا ما آتيناكم بقوّة!»؟

بهم، وكان الله دائماً وبنص القرآن ينجِّي أنبياءه ومن اتبعهم من المؤمنين... فما منعه هنا سبحانه عن تنفيذ تهديده وتنجية حبيبه المصطفى، كما نجّى أنبياءَه السابقين**!!**.

إن المسلمين وقد رأوا الجاهليّين لا يعارضون القرآن بالإتيان بمثله، اتخذوا من ذلك دليلاً على تفوّق القرآن على شعرهم وكلامهم، وبالتالي دليلاً على إعجاز القرآن وصدق نبيّه. هذه هي عقيدة المسلمين في إعجاز القرآن.

وعلى كلّ حال، عمد هؤلاء إلى مقابلة الشعر القديم بالقرآن وجعلوه هدفاً للنقد والحطّ والتفلية ليجعلوا كلمةَ الذين كفروا السفلى وكلمةَ القرآن هي العليا. أي إنّهم كانوا لا تستبين لهم عظمةُ القرآن إلاّ بالغض من قيمة الشعر الجاهلي. وهذا جَوْر في الحكم لا عدل فيه. فكأنّ القرآن لا تظهر عظمتُه إلاّ بالحطّ من الشعر الجاهلي وتهميشه.

ومع ذلك فالشعر الجاهلي هو الشعر الجاهلي، مهما نعق الناعقون، كما سنرى في حينه، وأرجف المرجفون. إنّه يفوق مرات ومرات الكثير من آيات القرآن. وهو عند البلغاء وأمراء البيان مثقِّفُ الألسنة، والحجّة على اللغة، والشاهد على النحو. وليكن بعد ذلك ما يكون، وسواء كان منحولاً أو غير منحول، فالدرر لا تفقد قيمتها أينما وضعتها.

نجد في القرآن آيات تفرض نفسَها على الذوق الفنّي الرفيع بسرعة فائقة، فلا يملك أحدنا ألاّ يحلّق في أجواء تسمو به فوق هذا العالم بكلّ ما فيه من أطايب ومتع وأشواق وفتن تأخذ بمجامع القلوب. إنّها إنما تفعل ذلك بقواها الذاتيّة وطاقاتها الآسرة الخلاّقة، بلا أي رديف إيماني أو خشوع رباني.

من هذا القبيل آيات عدّة، مثل: (2/ 255؛ و11/ 44؛ و13/ 32 . 33؛ و33/ 41 . 48؛ و34/ 11 . 12؛ و41/ 11؛ و43/ 84؛ و57/ 12؛ و66/ 8 و76/ 12 . 13 و20)...

ومن أروع آيات القرآن في نظري التعبير عن المستقبل بصيغة الماضي. والمقصود بالمستقبل هنا يوم القيامة، وذلك لتحقّق وقوعه كما يقول المفسرون:

«والذين آمَنوا وعملُوا الصالحات... أولئك أصحابُ الجنّة.. **ونَزَعنا** ما في قلوبهم مِن غلٍّ، تَجري من تحتِهم الأنهارُ. **وقالوا** الحمدُ لله الذي هَدانا لهذا... **ونُودوا** أنّ تلكم الجنّةَ أورثتموها بما كنتم تَعملون. **ونادى** أصحابُ الجنّة أصحاب النار أن قد **وَجَدنا** ما وَعَدَنا ربنا حقاً.. وعلى الأعراف رجالٌ يعرفون كلاً بسِيماهم. **ونادوا** أصحابَ الجنّة أن سلامٌ عليكم.. وإذا صُرفتْ أبصارهم تلقاء أصحاب النار **قالوا** ربَّنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين. **ونادى** أصحابُ الأعراف رجالاً يَعرفونهم بسيماهم، **قالوا**: ما أغنى عنكم جمْعُكم... **ونادى** أصحابُ النار أصحابَ الجنّة أن أفيضوا علينا من الماء أو ممّا رزقَكم اللهُ، **قالوا**: إنّ الله حرّمهما على الكافرين» (7/ 42 . 50).

ومثل ذلك أيضاً: (18/ 53؛ و42/ 44 . 45؛ و57/ 13 . 14)..

***

ولكن هل جميع آيات القرآن على هذا المستوى من الجودة والروعة والبيان؟؟ هيهات هيهات! القرآن ليس على مستوى واحد من البيان وقوّة التعبير. ومهما طالت لحى المتشنّجين والمرجفين والمصطادين في الماء العكر، فضلاً عن البسطاء من المؤمنين وضعفاء العقول، فإنّي أعلنها مدويّة على رؤوس الأشهاد، أنّ القرآن، إذا كانت فيه آيات في غاية الروعة والجمال، ففيه آيات أخرى في غاية الإسفاف والتفاهة، أربأ بنفسي أن أهبط إلى مستواها!!!

إنَّ غشاوة الإيمان أعمتِ المفسِّرين البسطاء عنها، ولكنّ أذكياءَهم وقفوا أمامها حائرين، فعمدوا إلى التلفيق والترقيع وفنون الصنعة، فكلّ أولئك كفيل يرتق الفتوق، وستر العيوب، واصلاح العطب. وقد فعلوا ذلك صادقين وإن كان ذلك على غير وعي منهم. فهم يريدون إنقاذ إيمانهم على أي وجه اتّفق. ثمّ جاء تبلُّدُ الحسّ، وطولُ الصقل على اللسان، وكثرةُ التلاوة، ليزيد القرآن رسوخاً.

أعطني مجنوناً وأنا قمين أن أستخرج لك من أقواله حكمةَ الأوَّلين والآخرين، ولا سيّما إذا كان له موقع في السلطة يَجمع حوله أصحاب المصالح والمنتفعين. ألم تسمعوا بنفاق الحاشية وأهلِ الزلفى وأعوانِ السلطان؟! كلّ واحد منهم أكذبُ من أخيه. لقد وقعوا على صيد ثمين: حاكمٌ معتوهٌ «تتيه» العقول في بحار علومه، وتعجز الأذهان عن الإحاطة بمقاصد أقواله. فيُقَوِّلونه ما لم يقل، ويُغدقون عليه من المقاصد ما لم يخطر له على بال. ويتنافسون ذلك، والأكثر إغداقاً هو الأكثر منالاً.

إنّ شيئاً من هذا القبيل ـ وإن كان التشبيه ليس دقيقاً ـ يحدث عندما يتعلّق الأمر بالنصوص «المقدسة» التي «تتيه» فيها العقول والأفهام، هناك تُختلق الحكم والمقاصد، وتُعزى إلى خالق الأكوان؛ وهناك بالتالي تُذبح العقول قرباناً لكبير الأوثان!!

يقولون إنَّ الوليد بن المغيرة ـ من مشركي مكّة وأحد أشدّ خصوم محمّد ـ سمع القرآن وأُخذ بروعته وجماله وسحر بيانه. ولا أستبعد ذلك فلا يعرف الفضل إلاّ ذووه. لكنّهم يَنسبون إليه أنّه قال وهو العنيد المتمرّد: «واللهِ إنّ له لَحلاوة، وإنّ عليه لَطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمغدق»، ولا يكتفون بذلك، بل يضيفون إليه هذا التعليق الخطير: «وما هو بقول بشر!».

وأعود فأقول إنّي لا أستبعد وصفَه للقرآن هذا الوصف الجميل يصدر عن عدوٍّ لدودٍ للقرآن، فمن أحرى من أمراء البيان، من الإنحناء أمام روعة البيان، وتناسي خصومته لصاحب البيان. ولكنّي أستبعد تعليقه الأخير، وإلاّ فما منعه أن يؤمن بربِّ القرآن، ما دام اعترف للقرآن بهذه المنزلة العليا! فإذا لم يكن القرآنُ «بقولِ بشَر»، فهو قول مَنْ إذن؟ وأرجح الظنِّ أنَّ هذا التعليق هو من إضافة الرواة. وما أسخاهم بهذه الإضافات. لا سيّما وإنّ قولَ الوليد قد ورد بصيغ متعددة وعلى أشكال متباينة.

فإذا صحّ ما جاءَ على لسان الوليد بن المغيرة. ولا مانع عندي أن يكون صحيحاً، باستثناء الإضافة الأخيرة. فذلك إنما يَسري على بعض آيات القرآن لا على كلّه، وهو القرآن المكّي، وجُلُّه آياتٌ قصيرة بسيطة معبِّرة، لا تكلُّف فيها ولا تصنُّع، بل فيها سلاسة وإيقاع من وحي الفطرة والموقف واللحظة. هذه الآيات هي التي أخذتْ بلبِّ الوليد، ولو سمع ما تلا ذلك من القرآن المدني وما فيه من تشويش وتفكّك وهشاشة واختلالٍ، بل وابتذالٍ وتناقض، لرجع في الحال عن حكمه السابق، ولرأينا من إنكاره ونكيره العجب العجاب.

لقد كان موضوعياً جداً في حكمه السابق على القرآن، وهذه الموضوعيّة ستعطيه رؤيةً وشفافيّةً حُرم منها سائر المؤمنين الذين أذهلهم القرآن، وملك عليهم مشاعرهم، ففقدوا حسَّ النقد، وأصبحوا عاجزين عن رؤية القرآن على حقيقته، وإصدار أيّ حكم صائب عليه، والتمييز فيه بين غثٍّ وسمين.

لقد تبلّدت أحاسيسهم فأورثهم ذلك وقراً في آذانهم وعلى أبصارهم غشاوة، وأصبحوا جنوداً للقرآن تلاوةً ودفاعاً وانسحاقاً، مسوقين بالإيمان كما تساق الدواب.

فالحقُّ ما جاء به القرآن، والباطلُ ما خالفه. وانطلقت الأصوات تشيد بالقرآن، وتكيل المدائح للقرآن، ولا حديث لها إلاّ عن القرآن، وعن إعجاز القرآن. وكان لذلك كلّه أثره التخريبي المدمِّر في تفسير القرآن.

رابعاً

عمل مفسِّري القرآن

إنّ العمل التفسيريّ الذي أثاره القرآن هو عملٌ من أعمال المعرفة في أعلى درجاتها، لولا أنْ شابتْه الشوائب حتّى كان مجمعاً للسخف والغباء. فقد كان كلّ مفسر للقرآن في أوّل أمره ينطلق من رؤية معينة، ومن قواعد مذهب معين، وقلما كان يعمد إلى التفسير خالي الذهن. فقد كان السلفي يرى في القرآن غير ما يراه المعتزلي، ويرى فيه السنّي خلاف ما يراه الشيعي أو الخارجي، وكذلك يرى فيه الصوفي أو البلاغي ما لا يراه الفيلسوف أو رجل العلم.

إنّ كتب التفسير فيها غثّ كثير لا يساوي المداد الذي أُهرق فيه. لقد فاضت قرائح مفسرّينا في كلّ كبيرة وصغيرة في القرآن، ولطالما أجهدوا عقولهم وأذهانهم في تقويله ما لم يقل، بل ما لم يخطر على باله أن يقول. فأعطَوا المعنى الواحد ألفَ معنى، واكتشفوا له ألفَ حكمة، واخترعوا له ألفَ نكتة بلاغية، بل ألفَ باب في البلاغة ليست من البلاغة في شيء، لم يقصد إليها الله ورسوله ولا طافت في ذهن أي منهما.

كما أغرقوا ما في القرآن من سقطات وعثرات وتفكّك وتخبّط وتناقض وتشويش... في بحر من التأويلات والتخريجات والتلفيقات أضفى عليها الإيمانُ بريقاً من الروعة والجلال والخشوع ليس لها، من شأنه أن يسدَّ منافذ العقول إنْ كانت عقول، ويزيد

العُمي عمىً، وما تعذّر أو تعسّر عليهم فهمه فوّضوا أمره إلى الله، فالله أعلم بمراده، وفوق كلّ ذي علم عليم.

ولم يكتفوا بذلك، بل أوسعوا أنفسهم تقريعاً وتجهيلاً وتأثيماً، لينزّهوا اللَّه عن كلّ نقصٍ، ويَنسبوا إليه كلّ كمال.

ولا يخامرني أدنى شكّ في صدقهم، فهم لا يستطيعون أن يتصوّروا كلامَ اللَّه إلاّ في الذروة من الكمال. فإذا كان دون الذروة قليلاً أو كثيراً رفعوه إليها بقوّة ظانّين أنّ هذه الدونية ترجع إلى ضعف في الرؤية، أو قصورٍ في العقل عندهم، لا إلى كلام الله، تعالى اللَّه عن ذلك علواً كبيراً. هكذا دأب المؤمن يسفِّه نفسه ليمجّد ربَّه. إنَّ أيّاً منهم لم يجرؤ على نقدِ ولو آيةٍ واحدة من القرآن، بل كان جلُّ همِّه نثْرَ البخور وجبْرَ المكسور، ورتْق المفتوق، وإضفاءَ المعنى على ما ليس له أيُّ معنى**!!!**

وكانت حصيلة ذلك كلّه هراء في هراء.

إنَّ كتب التفسير محشوّة بالسخف والغباء والغُثاء والهذيان. إنّ الباحث المنصف لا بدّ أن يُعوِّل على استراتيجيّة مدروسة أكثر صدقاً في قراءة النصوص، تقوم على النقد والتبصّر، ليَميزَ الخبيث من الطيّب، والمقبول من المرذول، وما هو جليٌّ ممّا هو مُعمًّى يحتمل أكثر من علامة استفهام. وهذا ما لا يدركه مفسِّرونا، ولا يريدون إدراكَه، بل لا يستطيعون إدراكه. فلا نقد للنصوص ولا اعتراض على الآيات، ولا إعمال عقل فيها بروحِ حرٍّ مستقلٍّ ومنهجيّةٍ واضحة، بل دفاع مستمر، وعبوديّة كاملة، وانبطاح أعمى يُظهر مدى فراغ الإنسان وضعفِه أمام النصّ، أيِّ نص، سواء ورد في التوراة أو الإنجيل أو القرآن.

النصّ، والتدثّر بالنصّ، والتشبث بالنصّ، والتعبد للنصّ، والخوض في بحار النصّ للوصول إلى خفايا النصّ، والغوص على

الدرر واللآلئ التي ينطوي عليها النصّ، كلّ أولئك وسواه من «ذخائر» النصّ، يورث صاحبه البلاهةَ والتفاهة والتحجّر والغيبوبة والغباء، لأنّه يُفقده البصر والبصيرة والعجينة والخميرة، فيذوب فيه ويفنى.

لقد قَضى فيه كلّ حسٍّ نقدي واستقلال ذاتي، وعلى كلّ قدرة متميزة للحكم على النص «المقدس» حكماً يخالف فيه روح النص، بل تراه يخترع له الأيدي والأرجل والأجنحة لتُقيله من عثراته وتُنهضه من كبوته، وإن ظلّ هذا «المفسّر المبدع» محتفظاً برشده في المجالات الأخرى التي لا شأن لها بالنص.

انظرْ إلى الغزالي كيف يصول ويجول في مملكة العقل، ولكنه سرعان ما يفقد رشده عندما يتحدث عن هدهد سليمان، وناقة صالح، وقوم يأجوج ومأجوج، والدابّة التي سيُخرجها الله من الأرض في آخر الزمان، لماذا؟ لأمر جلل يخصّ الذين لا يؤمنون، وهي تخبرهم . باللغة العربية بطبيعة الحال . «أنّ الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون» (27/ 82).

بل انظر إلى القديس أوغسطين، هذا الرجل الشكّاك الذي كان عملاقاً في كلّ شيء قبل أن يعتنق المسيحيّة، ثمّ انظر إليه كيف تَخور قواه عندما يتحدّث عن عجائب القديسين، أو يغوص في «أسرار» التثليث والصلب والفداء، وما فيها من حكم بالغة ومعانٍ عميقة!

كلّنا في الهمِّ سواء: النصُّ أوّلاً والعقل آخِراً، ما أضعف الإنسان وما أقوى الإنسان. عجيب حقاً أمر الإنسان. قزم وعملاق يسكنان هذا الإنسان!!

***

اللهُ كامل، أنا الناقص. اللَّه عظيم، أنا الحقير. اللَّه طاهر، أنا الأثيم. اللَّه كريم، أنا لئيم. اللَّه عالم، أنا جاهل. اللَّه دائماً على حقّ، وأنا دائماً على باطل... وهكذا فالله على نقيض الإنسان باستمرار. لماذا يفعل الإنسان كذلك؟ لأنّه لا يستطيع أن يتقبّل وضعه كما هو بما فيه من تناقضات وصراعات وما تمتلئ به حياته من شرور ومآس بلا تبرير ولا معنى، ومن غير أن يكتشف «الحكمة» التي إنما تكمن وراءها. كما أنّه لا يجرؤ على الاعتراض على أحكام اللَّه والتمرد على سلطته، فكان الحلّ على حسابه هو الذي يجب أن يتحمّل كلّ مسؤولية مع إبقاء ربه بمنأى عن كلّ مسؤولية.

لذلك تراه يضحّي بنفسه لينقذ ربّه، وبتعبير أدق، لينقذ تصوّره لربّه، يدفع من نفسه ليشتريه، ويلوم نفسه ليبرِّئه، يجوّعها ليشبعه، يُنقصها ليكمله، يشجُّها ليرتقه، يُصدّعها ليجبر كسره. هو وحده الآثم، هو وحده المجرم، والله غنيٌّ عن العالمين. إذا نزلت به نازلة فلا يلومنَّ إلاّ نفسه، ولا يظلم ربُّك أحداً. وهكذا فَلْسَفَ المصيبةَ والبلاء. وأعطاهما معنىً لم يكن لهما. وتجدّد الرجاء. لقد صنع إلهَه وهو المصنوع. وأكمله وهو الناقص، وخشع العبد للربّ، وتجلّى الربّ للعبد، وخرجا كلاهما يفيضان بالمعنى، ويرتشفان معنى المعنى.

إنّ المفسرين للقرآن في جملتهم مفسرون ثرثارون، وأقولها للمرّة المئة، لا يعرف النقد إليهم سبيلاً. إنّ أكبر همّهم الحذلقة والتبرير والدفاع. وإذا تظاهروا بالنقد فإنّه نقد موجّه، أي ظاهره النقد لكن باطنه الحذلقة والتبرير والدفاع أيضاً، وإيجاد المخارج لما لا مخرج له! فهم يظنّون أنّهم بهذا الموقف يحسنون صنعاً، وما دروا أنهم بذلك يُسيئون إلى قضيّة الإيمان، كأنما اللَّه لا بضاعة له إلاّ الهراء والتخريف. لقد أفسدوا من حيث أرادوا الإصلاح، وضلّلوا

من حيث أرادوا الهدى. إنّهم مَثَل على انعدام الحسِّ المنهجي والفكر العلمي الموضوعي لديهم.

والأنكى من ذلك أنهم بعد أن يفرغوا في النص جميع ترهاتهم وكلّ ما يملكون من ثرثرة و«لفلفة» وترقيع وبضاعة كلاميّة ولاهوتيّة و«علميّة» فارغة، يبادرون بالاعتذار قائلين: «الله أعلم»، إنّهم لا يريدون أن يقرّوا بجهلهم، كما أنّهم في الوقت ذاته لا يريدون الاعتراف بأنّهم يقولون في القرآن برأيهم، ففي ذلك لو تعلمون إثم عظيم، والعياذ بالله تعالى! فخرجوا بهذه المعادلة الظريفة: «والله أعلم بمراده. سبحانه وتعالى عمّا يصفون»!

خامساً

ثورةٌ لا بدّ منها

يجب أن ننتقل من مرحلة تفسير النصوص إلى مرحلة النقد الباطن للنصوص، ومن شأن ذلك أن يساعدنا كثيراً في فهم النصوص. ولعلّ من حسنات عصرنا أنّه قد شهد ميلاد نقدٍ أصيل للنصوص، ونرجو صادقين أن يشمل «جميع» النصوص «المقدسة»، مسيحيّة كانت أو إسلاميّة. بل لقد سبقنا الأوروبيّون كثيراً في هذا المضمار، وفي وقت مبكر جداً[4].

إنّنا لا نزال بعيدين عن تحقيق هذه القفزة النوعية الشجاعة التي يمكن أن تفتح أمامنا آفاقاً واسعة. إنّ مرحلة التأكيد الساذج لليقين الديني طريقة بدائية آن لنا أن نتخطّاها ونتجاوزها إلى ما وراءها، أو على الأقل أن نخفف من وطأتها ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً. إنّها طريقة إيديولوجية أسطورية نتعرف بها عقل صاحبها، لا النص الذي يتصدّى لتفسيره.

إنّ المؤمنين أيّاً كانوا . مسلمين أو مسيحيّين أو غير ذلك . لا يقبلون أبداً أن تكون الكتب السماويّة خاضعة للدراسة النقديّة المنهجية. فروايات التوراة والإنجيل والقرآن أسمى من أن تدنسها

---

(4) وذلك في القرن السابع عشر على يد اسبينوزا في رسالته المشهورة *Tractatus Theologico Politicus* التي نُقلت إلى معظم اللغات الأوروبية. وقد نقلها حسن حنفي إلى اللغة العربية بعنوان **رسالة اللاهوت والسياسة**، وتوالت بعدها الدراسات النقدية في هذا المضمار.

علومنا الأرضية ومكتسباتنا البشرية التي اخترعها جنود إبليس لنقض كلمة الرب، لذلك كان كلّ هم المفسّرين تأويل النصّ وإغداق التفسيرات الإطرائية عليه لإخفاء عواره وستر كلّ تناقض فيه.

ورغم أن العرب لم يعرفوا محاكم التفتيش اللاتينية، فإنّهم ظلّوا يدورون في الحلقة المفرغة، وإنما بحريّة أكبر، حلقة الثرثرة والحشو، وإنهاك النصّ، وتحميله من الأثقال والأعباء فوق ما يحتمل. ولا يزال الباحثون عندنا لا همّ لهم إلاّ إبراز بلاغة النصّ، والحكمة الكامنة وراء النصّ، والأغراض التي يرمي إليها النصّ. فما أكثر المنقِّبين في النصوص، وما أعظم الجهد الذي يبذلونه في استبطان النصوص، وما أتفه النتائج التي وصلوا إليها بعد الانكباب الطويل على النصوص ومعاناة النصوص.

***

لقد كان الخطاب القرآني عند أوّل عهد المسلمين به دعوة إلى التغيير الشامل. لقد كان في يوم من الأيّام ثورةً على التقاليد الجامدة والمعتقدات الموروثة المنتشرة في طول شبه الجزيرة العربية وعرضها. فقد شنّ القرآن هجوماً عنيفاً، في آيات كثيرة، على تعلّق الناس بنهج السلف وتمسّكهم به مهما كان مخالفاً للحقّ. لقد نعى على القوم غباءهم وتحجّر عقولهم. لقد كانوا يهربون إلى الماضي، ويلتمسون فيه الحجة والسند والمرجعية المطلقة كما هي حالنا اليوم. فما من شيء يُرضي عواطف المتخلف مثلما يرضيه الحديث عن روعة الماضي وأمجاد الماضي والعيش في بحبوحة الماضي.

العقليّة الثوريّة وحدها هي القادرة على التغيير وعلى إيجاد المناخ الذي يستجيب التغيير. وهذا ما أدركه وعمل له القرآن ممثلاً

في شخص محمّد الناطق باسمه والعامل على تحقيق أغراضه وغاباته. لقد قام بشبه عملية غسل دماغ لمعتنقيه والمؤمنين به. وهذا ما يفسر نجاحه الخارق المذهل السريع الذي فاق جميع التوقّعات في حينه.

***

الثورة بنت زمانها ومكانها، ووليدة عصرها وأوانها، إنّها لا تأتي إلاّ بعد مخاض عسير. لكن لكلّ أجلٍ كتاب. فلا ثورة إلاّ إلى حين، وبعد ذلك الرتابةُ والتكرارُ والسقوط. لقد كان القرآن في القرن الأول للهجرة ثورة. والآن هو عبء على الثورة، وعامل مضادّ للثورة. لقد أصبح جزءاً من التقاليد والموروثات، ورسّخ في النفوس عاداتٍ وأنماطاً من السلوك والتفكير تقف حجر عثرة في وجه كلّ تقدم.

فَمَنْ لي بقرآنٍ جديد ينأى عن القرآن الحالي ويقتلعه من الجذور، ويباعد بيننا وبين منهج السلف، وينعي علينا تمسّكنا المريض بالتقاليد والمواريث، وبالتالي يقوم بعمليّة تطهير شاملة شبيهة بعملية التطهير الأولى، تشفينا من تراكمات الماضي ومخلّفات عصور الإنحطاط، وتزيح عنا كابوس الأوهام والعفونات التي تسد أمامنا أبواب الحاضر، وتخطو بنا الخطوة الأولى في طريق الألف ميل إلى مستقبل مشرق زاهر وعيش رغيد.

لا يزال القرآن يقف حجر عثرة دون الاتصال بالغرب واستيعاب ثورة الغرب. فالتباين بين مجتمع علماني دينامي حرّ منفتح على التغيرات، وبين مجتمع متخلف آسن لا عمل له إلاّ إنتاج ذاته وتكرار ذاته، أقول إنّ هذا التباين أمرٌ مثير للإشمئزاز حقاً. فبمقدار ما ما كانت المرحلة الكلاسّيكيّة مرحلة ديناميّة غنيّة قادرة على الأخذ والعطاء والخلق والإبداع، والبحث والتمحيص، اتّسمت

المرحلة الحالية بالركود والجمود والأصولية المتشنّجة العمياء التي لا تُحسن غير لغة التعصب والعنف والدم والموت والعمل في الظلام.

لقد جفّ النُّسغ، وضعفت الهمم، وأُغلق باب الاجتهاد إلى غير رجعة. لقد تركت الدراسات العلميّة الخصبة مكانها شيئاً فشيئاً لخطاب الإيديولوجيا الإستسلاميّة والتوكليّة الغيبية الغبية. ولم يكن ذلك راجعاً إلى رقابة لاهوتية شبيهة بالسلطة الكنسية في العصور الوسطى المسيحية[5]، بل إلى تفكّك الأطر الاجتماعية والسياسية للعالم العربي الإسلامي، وانحسار المدّ العقلي والروحي ابتداءً من القرنين الحادي عشر والثاني عشر. ومنذئذٍ انتشر التعليم «المدرسي» الرجعي في الزوايا والتكايا والرباطات، وانتعش الدين الشعبي والإيمان بالأولياء والكرامات، ووقعت القطيعة التاريخية مع التراث العلمي والفكري للمرحلة الإيجابية المنتجة. لقد فَقَدَ القرآن ما يُشعل جذوته، فَقَدَ نزوعه الداخلي وديناميته وقدرته على التجدد، فَقَدَ الاحتكاك بدوامة العصر، وبالتالي فَقَدَ وظائفه النوعية في الوجود والتطور.

لقد استبقى القرآن كثيراً من الشعائر والطقوس التي كانت سائدة قبله في شبه الجزيرة العربية: تقديس الكعبة والحجر الأسود وشعائر الحج وأساطير الجنّ وحكايات الأمم السالفة... فجَمعَ هذه الأنقاض وأحيا هذه الرمم وأعاد تركيبها ليبني صرحاً

(5) نعم هناك رقابة أصولية فاعلة في الساحة، ولكن هذه الرقابة نتيجة للتخلف وليست سبباً له، بينما الرقابة الكنسية كانت إحدى القوى المهيمنة الثلاث في العصور الوسطى اللاتينية: الملك والكنيسة والإقطاع، فهي إذن سبب وليست نتيجة. أصوليتنا هي أحد مفرزات التخلف، واكليروسهم كان أحد مفرزاته التخلف، هل يستويان؟

إيديولوجياً جديداً، أضاف إليه الكثير من العناصر والقوى الفعالة التي تخدم قضيته في مجالات الحياة المختلفة. ومع انحسار المد الفكري وباطراد التراجع الحضاري أخذ هذا الصرح يتداعى، ليعود كما كان أنقاضاً نتعبّد لها ونُسبّح بحمدها ونُقدّم لها الأضاحي والنذور والبخور.

وجاءت صدمة الحداثة تطرق أبوابنا وتقتحم حياتنا اقتحاماً شرساً مع حملة نابليون. لقد استيقظنا مذعورين على وقع أقدام العسكر، فآثر بعضنا دفن رأسه في التراب تدغدغه أحلام الماضي، واكتفى بعضنا برؤية ما يجري أمامه ووقف مشدوهاً لا يصدّق عينيه، لكن قلة نادرة أخذت تتدبر وتتأمل وتتفحص وتقلّب الأمور على وجوهها المختلفة.

هذا يقول بالعودة إلى الأصول، وهذا يقول بالخروج على الأصول والانخراط في الحداثة ودوّامة العقول، وهذا يقول بالتوفيق بينهما توفيقاً يقضي على الخمول. هذا يدعو إلى الانفتاح على الآخر، وهذا يدعو إلى الإنغلاق وتدمير الآخر، وهذا يقف ما بين ذلك لتصحيح أحد الآخرين بالآخر. هذا ينادي بالإبداع، وهذا يطالب بالإتباع، وهذا لا يتخلى عن الإتباع، ولكن الإتباع في رأيه لا يكون بلا إبداع. لقد مضى على هذا الجدل الكلامي أكثر من قرن ولا يبدو أنّه سيتوقف. فلو كان دجاجة لباضت، ولو كان ديكاً لصاح!

تلك هي المأساة التاريخيّة التي نعيشها اليوم والتي ما فتئت تتعقد وتتعاظم. وبزرع إسرائيل في المنطقة تفاقم الخطب واشتد البلاء، ووصل الأمر بنا إلى درجة من السوء والتخبط بحيث أصبحنا لا نعرف ما نريد ونريد ما لا نعرف.. إنّنا نخضع لجملة من المحرّمات الدينية والأسطورية والسحرية، ولتفاوتات إجتماعية واقتصادية وثقافيّة صارخة، ولتعسّف سياسي محلّي واستعماري

لا يطاق، ولتخلّف فكري محزن. وكلّ هذا يتناقض مع الحرية السياسية والدينامية الإقتصادية، والقدرة الإبداعية، وبُعد النظر التاريخي، وإرادة التغيير والتطوير.

إنّ أسوأ ما يحدث لنا اليوم هو سوء علاقتنا بالعالم والعصر. فنحن لا نزال نعيش في أشكال ثقافية بالية وأنماط حضارية بائدة...

الإسلام ليس هو الحلّ. لقد كان كذلك في يوم من الأيّام، لكن اختلفت الأيّام وتبدّلت الأيّام غير الأيّام. الإسلام مانعٌ للحلّ وحجر عثرة في طريق الحلّ... لا أرى أي ضرورة لاستئناف عقيدة الشرك باستمرار الطواف، والسعي، والأضاحي، وتقبيل الحجر الأسود، وشجِّ رأس إبليس بالجَمرات التي آن لها أن تجتثَّه من الأرومة هو وقبيله، بدلاً من أن تزيده قوة وانتعاشاً.

الفصل الرابع

إعجاز القرآن

أوّلاً . إيمان المسلمين بالإعجاز

ثانياً . أيّ إعجاز هو؟

ثالثاً . بلاغة القرآن

رابعاً . أين هي بلاغة القرآن؟

خامساً . خلل في توزيع الموضوعات

سادساً . الغموض في القرآن

سابعاً . غريب القرآن

ثامناً . ركاكة القرآن

تاسعاً . التناقض سمة بارزة في القرآن

عاشراً . القرآن والعلم

حادي عشر . كلّ ما في القرآن هو من عند الله

ثاني عشر . آيات لا معنى لها

ثالث عشر . سجع القرآن وسجع الكهّان

رابع عشر . القرآن والإيمان بالغيب

خامس عشر . بربريّات القرآن

أوّلاً

إيمان المسلمين بالإعجاز

«قلْ لئِن اجتمعتِ الإنسُ والجنُّ على أنْ يأتُوا بمثلِ هذا القرآنِ لا يَأتونَ بمثلِه، ولو كان بعضُهم لبعضٍ ظهيراً» (17/ 88).

القرآنُ كتابٌ فريد حقّاً؛ فهو نثر وليس كالنثر؛ وهو شعر وليس كالشعر؛ وهو موزون مقفّى وليس كمثلِ أوزانهم وقوافيهم. فما هو إذن؟ إنّه القرآن والسلام!

ولعلّ أجمل وصف للقرآن ما قاله المغفور له عميد الأدب العربي د. طه حسين: «كلام العرب شعر ونثر وقرآن». فالقرآن ليس بالشعر كلاّ. وليس بالنثر. إنّه جنس من القول نسيج وحده وفريد نوعه. إنّه قرآن! لذلك أجمعوا على أنّ ما يُسمّى بإعجاز القرآن هو في نظمه العجيب.

الإعجاز في اللغة العربية من التعجيز، أي نسبة العجز إلى الغير. وتسمّى المعجزة (معجزةً) لأنّ البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها.

وعلمُ الإعجاز علم مستحدَث في الملّة. وقد بلغ هذا العلم غاية نضجه في القرن الرابع للهجرة حيث استقلَّ وغدا علماً قائماً برأسه. وهو اليوم عقيدة إيمانيّة راسخة لا يجرؤ أحد على التشكيك فيها. وابتداءً من القرن الرابع للهجرة بدأت كتب الإعجاز في الظهور.

ومع ذلك فقد وُجد مَن شكّك في هذه العقيدة منذ العصور الأولى للإسلام.

ولعلّ أوّل هؤلاء **الجعد بن درهم** مؤدّب مروان بن محمّد آخر خلفاء بني أميّة. فكان أوّل من صرّح بالإنكار على القرآن والردّ عليه وجحد أشياء ممّا فيه، وقال إنّ فصاحته غير معجزة، وإنّ الناس يقدرون على مثلها وعلى أحسن منها، ولم يقلْ بذلك أحدٌ قبله. وكان مروان . ويلقّب بالحمار . يتبع رأيَه، حتى نُسب إليه فقيل «مروان الجعدي»[1].

وشاعت هذه المقالة ومقالاتٌ أخرى على نمطها . كالقول بخلق القرآن ومعارضته . في صدر العصر العباسي. وكان أوّل مَن بالغ في ذلك **عيسى بن صبيح** المعروف **بأبي موسى المردار**. وهو من علماء المعتزلة ومن المقدّمين فيهم. ويُقال له راهبُ المعتزلة. وقد انفرد عن سائر المعتزلة بجملة مسائل يهمّنا منها هنا قوله في القرآن إنّ الناس قادرون على أن يأتوا بمثل هذا القرآن فصاحةً ونظماً وبلاغة[2].

ومن قبيل ذلك ما ذهب إليه معاصرُه **إبراهيم بن سيّار بن هانئ النَّظّام** الذي طالع كثيراً من كتب الفلاسفة وخلط كلامهم بكلام المعتزلة[3]، لكنّه انفرد عن أصحابه بثلاث عشرة مسألة. بيد أن البغدادي ارتفع بهذا العدد إلى الرقم الحادي والعشرين.

---

(1) رَ: مصطفى صادق الرافعي، **إعجاز القرآن والبلاغة النبويّة**، ص 160.

(2) البغدادي، **الفرق بين الفرق**، ص 164 . 165؛ والشهرستاني، **الملل والنحل**، 1/ 68 . 69.

(3) الشهرستاني، 1/ 53 . 54.

وإذا كان الشهرستاني يطلق على ما انفرد به النظّام عن أصحابه اسم مسائل، فإنّ هذه المسائل تصبح «فضائح» عند البغدادي! فالمسألة التاسعة التي يأخذها الشهرستاني على النَّظّام «الفضيحة الخامسة عشرة من فضائحه»، بحسب تعبير البغدادي: «قوله في إعجاز القرآن إنّه من حيث الإخبار عن الأمور الماضية والآتية، ومن جهة صرف الدواعي عن المعارضة، ومنع العرب عن الاهتمام به جبراً وتعجيزاً، حتّى لو خلاّهم لكانوا قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله بلاغةً وفصاحةً ونظماً»(4). فالبشر قادرون على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ولكنَّ اللَّهَ صرفهم عن ذلك، ومنعهم بمنعٍ وعجزٍ أحدثَها فيهم.

هذه هي «نظرية الصُّرفة».

***

والآن نتساءل: ما وجه الإعجاز في القرآن؟

أجمع أهلُ العربيّة قاطبةً، وأهلُ اللّسن منهم والبيان خاصّة، على أنّ القرآن معجَزٌ بذاته، أي إنّ إعجازه إنما كان بنظمه العجيب، أي بفصاحة ألفاظه، وروعة بيانه، وأسلوبه الفريد الذي لا يضاهيه أسلوب، ومسحتِهِ اللفظية الخلاّبة التي تتجلّى في نظامه الصوتي، وجماله اللغوي، وبراعته الفنية.

قال **القاضي أبو بكر**: وجه إعجاز القرآن ما فيه من النَّظم والتأليف والترصيف، وأنّه خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلام العرب، ومُباين لأساليب خطاباتهم، ولهذا لم يمكنهم معارضته. نظم القرآن ليس له مثال يُحتذى، ولا إمام يُقتدى به،

---

(4) **المرجع السابق**، 1/ 56 . 57.

ولا يصحُّ وقوعُ مثله اتّفاقاً. قال: والإعجاز في بعض القرآن أظهر، وفي بعضه أدق وأَغمض[5].

وقال **الإمام فخر الدين:** وجه الإعجاز الفصاحة وغرابة الأسلوب، والسلامة من جميع العيوب.

وقال **الزملكاني:** وجه الإعجاز راجعٌ إلى التأليف الخاص به لا مطلق التأليف، بأن اعتدلتْ مفرداته تركيباً وزنةً وعلّتْ مركباته معنىً، بأن يوقع كلّ فنّ في مرتبته العليا في اللفظ والمعنى.

وقال **ابن عطية:** الصحيح والذي عليه الجمهور والحذّاق في وجه إعجازه أنّه بنظمه وصحة معانيه، وتوالي فصاحة ألفاظه. وذلك أنّ الله أحاط بكلّ شيء علماً، وأحاط بالكلام كلّه. فإذا ترتيب اللفظة من القرآن علم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى وتبيّن المعنى بعد المعنى، ثمّ كذلك من أول القرآن إلى آخره. والبشر يعمهم الجهل والنسيان والذهول. ومعلوم ضرورةً أنّ أحداً من البشر لا يحيط بذلك؛ فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة. وبهذا يبطل قول مَن قال إنّ العرب كان في قدرتهم الإتيان بمثله، فصُرفوا عن ذلك. والصحيح أنّه لم يكن في قدرة أحد قط[6].

***

هذا، وقد اختلف العلماء في تفاوت آي القرآن في مراتب الفصاحة بعد اتفاقهم على أنّه أعلى مراتب البلاغة، بحيث لا

---

(5) نقلاً عن **المرجع السابق**، ص 122.

(6) جميع هذه النقول مأخوذة من **المرجع السابق**، ص 133 مع بعض التعديلات الطفيفة في اللّفظ دون المعنى.

يوجد في التراكيب ما هو أشد تناسباً ولا اعتدالاً في إفادة ذلك المعنى منه.

فاختار القاضي المنع، أي منع التفاوت؛ فكلّ كلمة فيه موصوفة بالذروة، وإنْ كان بعض الناس أحسن إحساساً له من بعض.

واختار أبو نصر القُشيري وغيره التفاوت، فقال: لا ندّعي أنّ كلّ ما في القرآن على أرفع الدرجات في الفصاحة.

وكذا قال غيره: في القرآن الفصيح والأفصح. وإلى هذا نحا الشيخ عز الدين عبد السلام، ثمّ تساءل: لِمَ لَمْ يأتِ القرآن جميعُه بالأفصح؟ وأجاب عنه الصدر موهوب الجزري بما حاصله أنّه لو جاء القرآن على ذلك لكان على غير النمط المعتاد في كلام العرب من الجمع بين الأفصح والفصيح، فلا تتمُّ الحجّةُ في الإعجاز، فجاء على نمط كلامهم المعتاد ليتمّ ظهورُ العجز عن معارضته ولا يقولوا له مثلاً: أتيتَ بما لا قدرة لنا على جنسه، كما لا يصحّ من البصير أن يقول للأعمى: «قد غلبتُك بنظري»، لأنّ الأعمى سيقول له: «إنما تتمّ لك الغلبةُ لو كنتُ قادراً على النظر، وكان نظرك أقوى من نظري، وأمّا إذا فُقد أصلُ النظر فكيف تصحّ منّي المعارضة؟»[7].

وعلى كلّ حال، إن القرآن، في نظر المسلمين، هو معجزة النبي الكبرى، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه «إنّ كلّ شيء في القرآن معجز من حيث قوّة الموسيقى في حروفه، وتآخيها في كلماته، وتلاقي الكلمات في عباراته، ونظمه المحكم في رنينه، وما وصل إليه من تأليف بين الكلمات، وكون كلّ كلمة

---

(7) **المرجع السابق**، ص 109.

لفقاً مع أختها، وكأنما نسيج كلّ واحدة قطعة منه تكمّل صورتَه وتوحِّد غايتَه. معانيه تجدها مؤتلفة مع ألفاظه، وكأنّ المعاني جاءت مؤاخية للألفاظ، وكأن الألفاظ قُطِّعت لها، وسُوِّيت على حجمها»[8].

---

(8) **المرجع السابق**، ص 99.

ثانياً

أيّ إعجاز هو؟

والآن نقول: إنّ عقيدة إعجاز القرآن لا تعدو أن تكون أسطورة من الأساطير. كلاّ. ليس القرآن من أسرار الآلهة. إنّه لا يمتّ بأيِّ صلة إلى الإلهام «السماوي» الذي يخرج به عن حركة التاريخ. إنّه إنجاز بشري صرف تجري عليه قوانين البشر من قوّة وضعف، وصواب وخطأ، واتّفاق واختلاف، وتماسك وتنافر، واتّساق واختلال، وانتظام وتشويش.

والنتيجة المباشرة لذلك كلّه هي أنّ القرآن كتاب عادي جداً. لذلك كان من الضروري انتزاعُه من مستقرِّهِ الآمِن، خارجِ التاريخِ البشري، وإعادتُه إلى دنيا الناس، فلا يبقى بعد ذلك مستودَعاً للحكمة السرمديّة، وكتاباً سماوياً معصوماً من الخطأ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وبذلك يصبح هو وعصره وبيئته جزءاً من الدورة التاريخية للمنطقة التي شهدت وتشهد كل يوم كتباً مماثلة أثّرت في هذه الكتب وتأثرت بها واحتدم التفاعل بينها.

يعتدُّ كلُّ مؤمن مذهول، سواء كان من عامّة الناس، أو خاصّتهم، أو حتّى من خاصّة الخاصّة، أنّ «في القرآن مع جمال الألفاظ ورونق الأسلوب خاصة لا يصل إليها أحد في الألفاظ والأسلوب والمعاني»[9].

---

(9) محمّد أبو زهرة، **المعجزة الكبرى**، ص 162.

وهذا التحدي، الذي أعلنه الله في القرآن للإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن: «قلْ لئن اجتمعت الإنس والجن على أنْ يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً» (17/ 88)، صحيحٌ كلّ الصحّة؛ ولكنّه لا ينطبق على القرآن فقط، وإنما هو ينطبق أيضاً على كلِّ عمل عظيم. فكما أنّ الإنس والجنّ لا يقدرون على أن يأتوا بمثل القرآن فإنّهم كذلك لا يقدرون على أن يأتوا بمثل ما أتى به أفلاطون والجاحظ والتوحيدي ودانتي وغوته وشكسبير...

الأعمال العظيمة تحمل دائماً بصمات أصحابها. إنّها جزء من هويّتهم. فإذا كان من غير الممكن تقليد هذه البصمات، فإنّه من غير الممكن أيضاً تقليد هذه الأعمال. إنَّ كلاً منها نسيج وحدَه لا نظير له من أعمال البشر. وهنا تكمن أصالته. ومع ذلك فإنَّ أيًّا منها لا يخلو من بعض المآخذ والسقطات والهنات التي يعرفها النقاد، وكذلك القرآن. ففي كلام الجاحظ والتوحيدي مثلاً ما يفوق كثيراً ما جاء في بعض آيات القرآن، كما سنرى، ولكن من يجرؤ على نقد القرآن؟

إنّ مسلمي القرون الوسطى، في العصور الذهبيّة، كانوا أكثر حرية من مسلمي هذا الزمان، وإلاّ لم يتجرأ أحدٌ، **كالسرخسي وابن الراوندي والرازي،** على النيل من أقدس رمزٍ عند المسلمين، ومن قيمة القيم التي تعطي معنى لوجودهم وتمنحهم الأمل والخلود.

وتجنّدت جميع الجهود والقوى الفاعلة على الأرض الإسلاميّة للردّ على «أعداء الله». لقد تقبلوا نقد كتاب الله بصدر يتفاوت بين الرحابة والضيق، بين السبّ والشتم وبين الكظم وضبط النفس، وتراوح «إفحام» الخصوم بين الثرثرة والحذلقة وإيجاد المخارج

والحلول كيفما اتفق . أو بما أسمّيه أنا شخصياً بالترقيع . لإنقاذ كلام الله من براثن المكذِّبين الضالِّين المضلِّين، وبين الضرب والصفع واللكم والتصفية الجسدية، تقرُّباً إلى الله بدم هذا المفتري المجترئ على الله، المنكرِ لآياته، ليكون عبرةً لأمثاله، جنود إبليس: «ولَقَد صَدَّقَ عَلَيهِمْ إبْليسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ» (34/ 20) هم والغاوون، فكُبكِبوا في نار جهنم كلُّهم أجمعون[10]. أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاّعنون!!

إنّ معارضة القرآن هي حركةٌ طبيعيّة نشأت بنشأة الإسلام، ولكنَّ الدين الجديد قضى عليها في المهد، أو على الأقلّ، استطاع إسكاتَها إلى حين، وذلك بعد الانتصار المذهل الذي حقّقه في شبه الجزيرة العربية والمنطقة المحيطة بها. لقد كان اختراقاً عظيماً صرف الأنظار موقَّتاً عمّا كان يتفاعل فيه من قوى وتناقضات عميقة لا تظهر على السطح إلاّ في فترات الهدوء والاستقرار، أو في أوقات الفتن.

لذلك لم يكن غريباً أن تتجدّد هذه الحركة أو تعود إلى الظهور، عندما بدأت الدولة الأمويّة تترنَّح وتسير نحو نهايتها المحتومة. فإنَّ الكثير من كبار الزنادقة . وهم شعوبيّون . جرحَ الإسلامُ كبرياءهم، فأخذتُهم العزّة القوميّة بالإثم، حملتهم على التعصب لدين الآباء من المجوس والثنويّة المانوية، والحقد على الإسلام الذي قضى على أمجادهم وحطّم أحلامَهم في البقاء والعيش الكريم. وانضم إليهم رهطٌ من الشعراء ممن ينتمون إلى (عصبة المُجَّان)، فراراً من تكاليف الدين وطلباً لحياة حرّة، لا قيود فيها ولا رسوم.

---

(10) إشارة إلى ما ورد في **سورة الشعراء** 26/ 94.

ثمّ جاء العصر العبّاسي الذي نشطت فيه الحركة الشعوبيّة جنباً إلى جنب مع حركة الزندقة، واشتدّت الحملة على الإسلام والطعن في قدس أقداسه وهو القرآن. وكان على رأس هذه الحركة شعراء ماجنون ومفكِّرون موتورون أشهرهم: **صالح بن عبد القدّوس، وعبد الكريم بن أبي العوجاء، وأبو عيسى الورّاق، وبشّار بن بُرد، وخصمُه حمّاد عجرد، وإبان بن عبد الحميد اللاحقي، وابن المقفع، و(ابنه؟) محمّد بن عبد الله بن المقفع، وعبد المسيح الكندي** الذي سنتحدّث عنه بكلمة قصيرة بعد قليل للدلالة على اشتراك غير المسلمين في الحملة على القرآن...

لكن أشهر هؤلاء جميعاً بلا منازع هما: أبو الحسين أحمد بن يحيى بن إسحق **الرّاوندي،** وأبو بكر محمد بن زكريا **الرّازي،** اللّذان بلغتْ بهما حركة الزندقة أوْجَها وغايةَ نضجِها. وسنتحدث الآن عن كل منهما بشيءٍ من الإيجاز يكفي لتبيان ما نحن فيه.

1. ابن الرَّاوَندي (ت 298هـ/ 910م)

كانت الحركة الإلحاديّة، أو حركة الزندقة، في أوّل أمرها، مجرّدَ مزاج فردي طارئ، أو نزوة ماجنة، أو موقف فكري عابر. ثمّ أخذت هذه الحركة تتّضح وتتبلور بمضي الزمن حتّى صارت مذهباً شاملاً يقوم على دعائم من العقل، وغدا له أنصارٌ يؤمنون به ويعملون على نشره وتوسيع قاعدته. وظلّت هذه الحركة تنمو وتتكامل وتتصاعد حتّى بلغت أوْجها على يد ابن الراوندي. وكانت فكرةُ النبوّة هي حجر الزاوية في هجوم هذه الزندقة على القرآن، من غير أن تتعدى ذلك إلى الشك في وجود الله الذي أنزل القرآن.

فالشكّ في النبوّة، كان أقصى ما وصلت إليه حركة الزندقة في الإسلام، ثمّ توقفت بعد أن نشأ عنها في القرن الرابع هزّةٌ عنيفة في الأفكار والعقائد، جذبت إليها تيّارات المذاهب المستورة المتأثرة بالغنوص والعرفان، وعلى الخصوص، تلك التي تنتمي إلى الشيعة، والشيعة الإسماعيليّة على نحو أخصّ.

كان ابن الراوندي أشهر ملاحدة القرن الثالث للهجرة، لا يُعرف عنه إلاّ الشيء القليل، حتّى إن تاريخ ميلاده ووفاته لم يثبتا على وجه القطع. كان في الأصل معتزلياً ثمّ صبا فمال إلى الشيعة وأصبح العدوَّ اللدود للمعتزلة.

كان شديد الإيمان بالعقل يُشيد به ويُعوّل عليه في كلِّ شأنه، وجميع أمره. فالعقل عنده هو «أعظم نعم الله سبحانه على خلقِه، وإنّه هو الذي يُعرف به الربُّ ونعمُه، ومِن أجله صحّ الأمر والنهي، والترغيب والترهيب»(11). له «**فضيحة المعتزلة**»(12).

---

(11) نقلاً عن د. عبد الرحمن بدوي، من **تاريخ الإلحاد في الإسلام**، ص 202.

(12) رَ: **المرجع السابق**، ص 87، 186 وما بعدها.

وهو تحليلٌ نقديٌّ لمذهب المعتزلة من وجهة نظر الشيعة الرّافضة، وردٌّ على كتاب الجاحظ **«فضيلة المعتزلة»**، إلاّ أنّ هذه الفترةِ لم تدم طويلاً، إذ نراه بعد ذلك في زمرة أولئك الذين يطلق عليهم **صاحبُ الفهرست** اسم «المتكلمين الذين يُظهرون الإسلام ويُبطنون الزندقة»، وقد أثّر فيه **أبو عيسى الورّاق**، وكان أستاذاً له والدافع به إلى الإلحاد.

وقد ابتدأ ابن الراوندي كتبه الإلحادية في السنين الأخيرةِ من حياته، وهي الكتب التي يدين لها بأهميته وعلو شأنه. ومن هذه الكتب كتاب دمغ فيه القرآن، سمّاه **«الدامغ»**، وهو، كما يدلّ عليه اسمُه، طعنٌ في القرآن لا هوادة فيه.

ويُنسب إليه أيضاً كتابٌ ثالث هو كتاب **«الزمرّد»**، نقض فيه نظريّة النبوة في الإسلام، وهاجم عقيدة إعجاز القرآن، وقد قلنا أن هذا الكتاب «يُنسب إليه» لعبارة يقال إنّها ترجع إلى **الجبائي** جاء فيها: «وقد كان ابن الراوندي وأبو عيسى محمّد بن هارون الورّاق الملحد أيضاً يتراميان بكتاب «الزمرد»، ويدّعي كلُّ واحدٍ منهما على الآخر أنّه تصنيفه. وكانا يتوافقان على الطعن في القرآن»[13].

ففي الجزئيْن الأوّل والثالث من هذا الكتاب يورد ابن الراوندي (أو أبو عيسى الورّاق؟) رأيه في العقل والأديان التي تقول بالوحي، ويُفصِّل القول فيهما. فهو يبدأ كتابَه بالعقل الإنساني، فيمدحه ويُسهب في إطرائه من حيث هو السبيل الوحيد إلى المعرفة. وعلى هذا ينبغي لخصومه أن يتّفقوا معه على أنّ العقل

---

(13) نقلاً عن **المرجع السابق**، ص 112 و182.

هو أعزّ ما يملك الإنسان، وأنّه الملجأ الوحيد لتقويم الأشياء. بل «إن الرسول شهد للعقل برفعته وجلالته»[14].

فالعقل هو الذي يمتحن قيمةَ النبوّة: فإمّا أنْ تتفق تعاليم النبي مع العقل، وحينئذ فلا موجب لها لأنّ العقل يُغني عنها، وإمّا أن تتناقض معه، وحينئذ فهي باطلة. ولذلك حقّ لابن الراوندي أن يتعجّب من أمرِ محمد ويتساءل: «فلِم أتَى بما ينافرُه إن كان صادقاً؟»[15]، فوحي محمد في تعارضٍ تامٍّ مع العقل. إذن، فما معنى هذه الأوامر الدينيّة المفروضة على المسلم من وضوءٍ وصلاةٍ وطوافٍ حول الكعبة وزيارةِ الأماكن المقدسة؟

وفي ذلك يقول ابن الراوندي «إنّ الرسول أتى بما كان منافِراً للعقول، مثل الصلاة، وغُسل الجنابة، ورمي الحجارة أو الجمرات في الحجْ، والطواف حول بيتٍ لا يسمع ولا يبصر، والعدوّ بين حجرَيْن لا ينفعان ولا يضرّان. وهذا كلّه مما لا يقتضيه العقل، فما الفرق بين الصفا والمروة إلاّ كالفرق بين أبي قبيس وحرى، وما الطواف على البيت إلاّ كالطواف على غيره من البيوت»[16].

وقد اختار ابن الراوندي أسطورةَ البراهمة للتعبير عن آرائه الجريئة. وبذلك كان يدَعُهم يَطعنون في الأديان والشرائع «المنزلة» ليخفي تحت هذا القناع عقيدتَه. لقد جعلهم ممثِّلين للعقل والفكر لينطلق على سجيّته، ويدلي بما عنّ له من آراء وأفكار، ينسبها إلى أشخاص وهميّين، تخفيفاً لوطأتها عند السامعين.

---

(14) نقلاً عن **المرجع السابق**، ص 186 . 187.

(15) نقلاً عن **المرجع السابق**، ص 84.

(16) نقلاً عن **المرجع السابق**، 101 . 102، أبو قبيس وحرى جبلان بمكّة.

ومن هذا المنطلق وباسم العقل الذي لم يفتر لحظةً عن مدحه والإشادة به، راح يهاجم القرآن في كتابه السالف الذكر **الزمرّد**. فقد عرض في هذا الكتاب لفكرة إعجاز القرآن فنقدها بشراسة، وأبطل القول بالمصدر الإلهي للقرآن، ووضع في ذلك نظريّة عقلية منطقيّة متماسكة بسيطة لا تعقيد فيها، قرَّب بها إلى الأذهان بشريّة القرآن رداً على الذين يقولون بأنّه وحي من الله وتنزيل من لدن حكيم عليم.

وجاء أيضاً على لسان ابن الراوندي في إبطال عقيدة إعجاز القرآن ما يلي:

«إنّه لا يمتنع أن تكون قبيلة من العرب أفصح من القبائل كلّها، وتكون عِدّة من تلك القبيلة أفصح من تلك القبيلة، ويكون واحدٌ من تلك العِدّة أفصح من تلك العِدّة... وهَبْ أنَّ باعَ فصاحته طالت العرب، فما حكمُه على العجم الذين لا يعرفون اللسان [العربي]؟ وما حجّته عليهم؟»(17).

ويسخر ابن الراوندي من مسرحيّة الملائكة الذين أنزلهم الله يومَ بدْر مِنَ السماء لنصرةِ النبي، فيقول: إنّهم «كانوا مغلولي الشوكة، قليلي البطشة، على كثرة عددهم واجتماع أيديهم وأيدي المسلمين، فلم يقدروا على أن يقتلوا زيادةً على سبعين رجلاً... أينَ كانت الملائكة في يوم أُحُد لمّا توارى النبيُّ ما بين القتلى فزعاً؟ وما باله لم ينصرْه [اللهُ] في ذلك المقام؟»(18).

وجاء في كتاب **الزمرّد** أيضاً نقلاً عن كتاب **الانتصار** للخيّاط قوله: «إنّ القرآن ليس من كلام إلهٍ حكيم، وإنّ فيه تناقضاً وخطأً

---

(17) نقلاً عن **المرجع السابق**، ص 87.

(18) نقلاً عن **المرجع السابق**، ص 87.

وكلاماً يدخل في باب المستحيل»[19]، كما في مسرحيّة ملائكة بدْر التي تحدثنا عنها منذ قليل.

ثمّ إنّ ابن الراوندي يجد في كلام أكثم بن صيفي أحسن من «إنّا أعْطَينَاكَ الكَوثَر» (108/ 1)[20]. كما أنّ ابن الجوزي يقول في إشارته المختصرة إلى كتاب **الزمرّد:** «ثمّ يبدأ بالطعن في القرآن ويزعم وجود أخطاء لغويّة به»[21].

ومِن قبْلُ اشتغل ابن الراوندي بنقد القرآن في كتابه **«الدامغ»**، وقد حفظ لنا ابن الجوزي شواهد من هذا النقد. فمن القطع التي حفظها لنا في كتابه **المنتظَم في التاريخ** من كتاب **«الدامغ»** الذي لم يصل إلينا، القطعة التالية: «ولما وصفَ (محمدٌ في القرآن) الجنَّةَ قال: فيها أنهار من لبن لم يتغيّر طعمه وهو الحليب، ولا يكاد يشتهيه إلاّ الجائع؛ وذَكَر العسل ولا يُطلب صرفاً، والزنجبيل، وليس من لذيذ إلاّ شربه، والسندس، يُفرش ولا يُلبس، وكذلك الإستبرق، الغليظ من الديباج. قال ومن تخايل أنّه في الجنة يلبس هذا الغلظ ويشرب الحليب والزنجبيل، صار كعروس الأكراد والنبط»[22].

ويعرض ابن الراوندي للتحدّي الإلهي بالإتيان بمثل القرآن، فيقول: «إنْ أردتم بمثله في الوجوه التي يتفاضل بها الكلام، فعلينا أنْ نأتيكم بألفٍ مثله من كلام البلغاء والفصحاء والشعراء، وما هو أطلقُ منه ألفاظاً وأشدُّ اختصاراً في المعاني، وأبلغ أداء وعبارة.

---

(19) نقلاً عن **المرجع السابق**، ص 110.

(20) نقلاً عن **المرجع السابق**، ص 111.

(21) نقلاً عن **المرجع السابق**، ص 120.

(22) نقلاً عن **المرجع السابق**، ص 133.

وأشكل سجعاً، فإنْ لم ترضوا بذلك فإنّا نطالبكم بالمِثْل الذي تطالبونا به»[23].

حتى المعتزلة الذين ينكرون جميع المعجزات أو على الأقل لا يُعلّقون عليها أهميّةً تُذكر، فإنّهم لا يعترفون بمعجزة أخرى غير معجزة القرآن[24]. بل إنّ النَّظّام، وهو أكثر متكلّمي المعتزلة جرأةً وحرية، قد أنكر «إعجاز القرآن» في نظمه، وأنكر ما رُوي من معجزات نبيِّنا صلّى الله عليه وسلم: مِن انشقاق القمر، وتسبيح الحصى في يده، ونبوع الماء من بين أصابعه، ليتوصّل بإنكار معجزات نبيّنا عليه السلام إلى إنكار نبوته»[25].

---

(23) نقلاً عن **المرجع السابق**، ص 216.

(24) نقلاً عن **المرجع السابق**، ص 119 و153.

(25) البغدادي، **الفرق بين الفرق**، ص 132؛ رَ أيضاً: ص 149 . 150.

2. عبد المسيح الكندي (القرن 9م)

لم يكن هذا الهجوم على الإسلام محصوراً في المسلمين المرتدّين، بل لقد دخل على الخط غيرُ المسلمين تأجيجاً لنار الحملة الشرسة التي شُنّت على الدين الجديد. ولعلّ أشهر هؤلاء ممن وصلتْ إلينا مقتبساتٌ عنهم هو الفيلسوف عبد المسيح بن اسحق الكندي، وهو رجل نسطوري يدّعي أنه عاش في بلاط المأمون الذي لا بدّ أن يكون انفتاحه على المخالفين له في الرأي والعقيدة، قد احتمل نقد هذا النصراني العنيف الذي هاجم شعائر الإسلام وعقائده الواحدة تلو الأخرى، وعلى الخصوص مناسك الحجّ.

والذي يهمّنا من آرائه في ما يتّصل بموضوعنا هنا تفسيره لتأثير القرآن بأنّ «الأنباط والأسقاط والعجم والمغفلين والأغبياء الذين لا معرفة لهم باللسان العربي، هم الذين ينخدعون بدعوى إعجاز القرآن من ناحية نظمه»[26].

---

(26) نقلاً عن د. بدوي، من **تاريخ الإلحاد في الإسلام**، ص 129.

3. أبو بكر الرَّازي (ت 311هـ/ 923م)

الرازي هو ثاني اثنين اقتحما الخطوط الحمراء بجرأة منقطعة النظير. كثيرون قبلهما حاموا ولكنّهم لم يصيبوا، إمّا لجبنهم وإمّا لقلة مؤونتهم. وأمّا الرازي، ومِنْ قَبله ابن الراوندي، فقد كانا فارسَي الحلبة بلا منازع. وإنّ جميع الذين تصدّوا للرد عليهما لم يبلغوا مبلغهما. كلاّ. ولم يكونوا في مستواهما. لقد كانوا أقزاماً لا يجوز مقارنةُ أيٍّ منهم بهما. هيهات هيهات!

كلاهما مفكِّر ثائر متمرّد، كشف المستور، وأخرج المكبوت، وحرّر المقموع، وفكّر في ما لا يُفكَّر فيه؛ بل ولا يجوز التفكير فيه. إنّ كلاًّ منهما لم يقبل دون قُدس الأقداس مطلَباً لنقده والخوض فيه لكشف عواره، وفضح أساطيره وأوهامه، وبيان ما فيه من تهويلات وادّعاءات وأقاويل من شأنها تحطيمُ الإنسان، وشلُّ قدراته، وجعلُه مسخَّراً لقوى خارقة وغيبيّات تبتزّه وتهدّده كسَيفٍ مُصْلتٍ فوق رأسه، لا يدع له مجالاً للتحرّك ليرى ما وراء أنْفه ويعرف ما يدور من حوله؛ وهكذا يقضي حياته رهناً لمخاوف وهواجس ووساوس وظنون تحول بينه وبين تحقيق وجوده الأمثل، وتقضي على كلِّ أملٍ له في تحرير الذات واستقلال الشخصيّة.

كان الرَّازي فيلسوفاً، طبيباً وكيميائياً من الطراز الأول. كما كان عميد حركة الإلحاد والزندقة في عصره والعصور اللاّحقة.

وإذا كان من فرْق بينه وبين ابن الراوندي فهو في درجة العمق والتوسّع في التفاصيل والقدرة على استيلاد أفكار جديدة من أفكار قديمة. إنّما كلاهما يؤمن بالعقل، وكلاهما يراهن على

العقل، وكلاهما يصدر في أحكامه وتقريراته عن العقل. فالعقل هو المرجع في كلّ شيء عندهما، والحَكَم الفرد المطلق الذي يبتّ في مواقفهما، ويحسم الأمر في آرائهما.

وإذا كان ابن الراوندي في تفكيره الإلحادي الرافض للدين يتحرّك في أجواء شبيهة بالأجواء التي يتحرّك فيها المتكلمون، فـ «الرازي يتناول مساوئ الأديان بالطعن والنقد الشديد من وجهة نظر الفلسفة»[27].

وإذا كان ابن الراوندي قد اتخذ من البراهمة قناعاً يخفي فيه آراءه، فيقول على لسانهم ما عنّ له أن يقول في إبطال النبوّات وفي توكيد مناقب العقل، كذلك يفعل الرازي، إذ يُنسب إليه ليس فقط ما يتصل بالأخلاق كما فعل ابن الراوندي بل يُنسب إليه أيضاً ما يتصل بالمسائل الإلهيّة، فيقول إنّنا «به وصلنا إلى معرفة الباري عز وجل»[28].

وهذا يقطع بأنّ النبوة أصبحت لا مبرر لها ما دمنا نعرف بالعقل كل شيء أخلاقي وغير أخلاقي. وعلى كلّ حال، إن ابن الراوندي «كان يجول في محيط كلاميٍّ ديني، ولهذا تركّز نقده في هذه النواحي، أمّا الرَّازي فقد كان يجول في جوٍّ علمي»[29].

وخلاصة القول، لقد شقّ ابن الراوندي الطريق، ونهج السبيل، فأمدّها الرَّازي بالماء، وحفّها بالنخيل وزيّنها بالأزهار والرياحين، ورفع عليها البنيان العظيم.

---

(27) نقلاً عن **المرجع السابق**، ص 127.

(28) نقلاً عن **المرجع السابق**، ص 203.

(29) نقلاً عن **المرجع السابق**، ص 217.

لقد أشاد الرَّازي بالعقل «بلهجة لا تكاد نجد لها مثيلاً عند كبار العقليّين هو كلّ العصور، حتّى في العصر الحديث»، كما يؤكّد ذلك عبد الرحمن بدوي في كتابه المذكور آنفاً.

بالعقل يستغني الإنسان عن النبوّة وعن الأديان وعن جميع الكتب السماويّة، وبالتالي عن القرآن. فبالعقل، وبالعقل وحده، نعرف الخير من الشر، والحق من الباطل. فلا سلطة غير سلطة العقل، ولا إيمان بغير الإيمان بالعقل... وإذا كان هذا مقداره، فحقيق علينا أن لا نحطَّه عن رتبته، ولا نُزلَّه عن درجته، ولا نجعله، وهو الحاكم، محكوماً عليه.

لقد كانت النبوة شغل الرَّازي الشاغل، فأبطلها لأنّ العقل يغني عنها. ويقول: «فمن أين أوجبتم أن اللَّهَ اختص قوماً بالنبوّة دون قوم، وفضّلهم على الناس، وجعلهم أدلّة لهم وأحوج الناس إليهم؟ ومن أين أجزتم في حكمة الحكيم أن يختار لهم ذلك، ويُعلي بعضهم على بعض، ويؤكد بينهم العداوات ويكثر المحاربات، ويُهلك بذلك الناس؟»[30].

ولا يعنينا هنا أن يوسع الرَّازي النبوة والأنبياء نقداً وتجريحاً، وأن يستفيض في الحديث عن ذلك، وإنما يعنينا نقده للأديان لنصل من ذلك إلى رأيه في القرآن. لذلك نراه يُعرّجِ على الأديان «المنزَّلة» وما جاءت به من كتب تنسبها إلى السماء، فيتناولها جميعاً بلا انحياز ولا محاباة ولا تمييز، فكلّها في الهم سواء[31].

فإلحاد الرَّازي لم يكن مقصوداً به دينٌ معين دون آخر، أي لم يكن مقصوداً به الإسلام وحده، وهذا لعمري إنما يدل على

---

(30) نقلاً عن **المرجع السابق**، ص 205.

(31) نقلاً عن **المرجع السابق**، ص 208 . 211.

موضوعيّة الرَّازي وسداد رأيه، فالأديان جميعاً عرضة للطعن والتجريح. فهي لا تستقرّ على قول واحد، بل يناقض بعضُها بعضاً مع أنها تدّعي أن مصدرها واحد منزّه عن النقص والكذب. فكيف يستقيم ذلك مع ما نرى فيها من محالات ومتناقضات؟

وهنا يطرح الخصم هذا السؤال؛ إذا كانت الأديان على ما تقول، فكيف تفسّر تعلق الجماهير بها؟

ويردّ الرَّازي على هذا الاعتراض بأنّ أهل الشرائع أخذوا الدين عن رؤسائهم بالتقليد، ونهوا عن النظر والبحث عن الأصول، ورووا عنهم أخباراً توجب عليهم ترك النظر في هذه الأصول، وتوجب الكفر على مَن خالف ذلك. فإذا سُئل الرؤساء عن الدليل على صحّة دعواهم استطاروا غضباً وهدروا دم من يطالبهم بذلك. ثمّ جاء طول الإلف ومر الأيام والعادة واغترار الناس بلحى التيوس المتصدرين في المجالس، يمزّقون حلوقهم بالأكاذيب والخرافات، ومِنْ حولهم ضعفاء العقول من الرجال والنساء والصبيان، حتى رسخ ذلك في الناس وصار لهم طبعاً وعادة[32].

ثمّ يعود الرَّازي إلى احتجاجه بتناقض الكتب «المقدسة» للدلالة على بطلانها. فتناقضُ الأديان يؤدّي إلى تناقض الكتب المنزَّلة التي جاءت بها. فهو يأخذ على التوراة والقرآن والحديث النبوي ما فيها من تجسيم وتشبيه. فذكر ما في التوراة من وضع الشحم على النار ليشمَّ الربُّ ريحَه، وما فيها أيضاً من تصوير الله في صورةِ شيخ كبير أبيض الرأس واللحية، وهذا تشبيه وتجسيم يناقض القول بثبات الله وعدم تأثره بالأشياء من روائح وغيرها. وكلّ هذا مما يؤذِن بأنّ الله مؤلَّف ومصنوع ينفعل بالأشياء كسائر المخلوقات.

---

(32) نقلاً عن **المرجع السابق**، ص 211 ـ 212.

كما يأخذ الرَّازي على النصرانيّة قولها بوجود قديم غير مخلوق إلى جانب الله هو المسيح ابنه، وهذا يؤدّي إلى الشرك. ثم كيف نوفّق بين قول المسيح بأنه جاء لإتمام التوراة وبين نسخه لشرائعها وتبديل أحكامها؟ الغريب أنّه في نقده للمسيحية لم يأتِ في النصوص التي بين أيدينا على ما ورد في القرآن من تحريف الإنجيل[33].

إنّ التشبيه والتناقض لا يقتصران على اليهودية والنصرانية بل يشملان أيضاً أحاديث النبي والقرآن أيضاً... وذلك مثل ما رُوِي عن النبي أنه قال: «رأيت ربي في أحسن صورة. ووضَع يدَه على كتفي حتى وجدتُ برد أنامله بين ثَنْدَوَتي»[34]. وقوله «جانب العرش على منكب إسرافيل، وأنه ليئط أطيط الرَّحْل الجديد»[35].

كما أنّ ظاهر الكثير من الآيات في القرآن تدلّ على التشبيه، ولا ينكر ذلك إلاّ مكابر، وذلك مثل قوله عزّ وجلّ: «الرحمنُ على العرش استوى» (20/ 5)؛ وقوله أيضاً «ويحمل عرشَ ربّك فوقهم يؤمئذ ثمانية» (69/ 17)؛ وقوله «الذين يحملون العرش من حوله» (40/ 7). فكيف يستقيم هذا من تنزيه الله عن صفات الحوادث تنزيهاً مطلقاً يتجلّى في قوله تعالى: «ليس كمثله شيء» (42/ 11).

كذلك كيف عسانا نوفّق بين الآيات التي تقول بالجبر والأخرى التي تقول بالاختيار؟ ولعلّ الرَّازي قد استقى هذه المسائل من كتب علم الكلام كما يلاحظ عبد الرحمن بدوي[36].

---

(32) نقلاً عن **المرجع السابق**، ص 2213 . 214.

(34) نقلاً عن **المرجع السابق**، ص 214. **الثَّنْدَوَة:** هي اللحم الذي حول الثدي.

(35) نقلاً عن **المرجع السابق**، ص 214.

(36) نقلاً عن **المرجع السابق**، ص 218.

أما القول بأنّ هذه الآيات يجب تأويلها، أيْ صرفها عن المعنى الظاهر إلى المعنى الباطن، فهذا ما يهتمّ به الرازي. فمن حين هو ملحد، لا يعتدّ بالتأويل ولا يُقيم له أيَّ وزنٍ، لأن التأويل في نظره ونظر أمثاله فذلكة وتحايل . وبتعبيري أنا: ترقيع .، يُراد به إنقاذ النصّ كيفما اتفق واعطاؤه معنىً مقبولاً. فالرازي وأمثاله يتّجهون إلى الأديان كما هي في نصوصها الظاهرة، لا في ما تنطوي عليه من معانٍ خفية[37].

والرّازي ينقد القرآن أيضاً على أساس ما ورد فيه مخالفاً لما في النصرانية واليهودية فيقول: «إنّ القرآن يخالف ما عليه اليهود والنصارى من قتْل المسيح عليه السلام، لأنّ اليهود والنصارى يقولون إن المسيح قُتل وصُلب، والقرآن ينطق بأنّه لم يُقتل ولم يُصلب وأنّ الله رفعه إليه»[38].

وهكذا يضرب الرَّازي الأديان والكتب السماوية بعضها ببعض ليصل إلى هذه النتيجة: وهي أنّها كاذبة، لأنّ التناقض بينها يؤذن بكذبها جميعاً ما دامت تدَّعي أنها ترجع إلى مصدر إلهيّ واحد.

وبعد هذه الحملة على الأديان جميعاً، يعلّق الرَّازي أيضاً فيقول: «قد، والله، تعجّبنا من قولكم إنّ القرآن هو معجزة، وهو مملوء من التناقض، وهو حكاية أساطير الأوّلين، من غير أن تكون فيه فائدة أو بيّنة على شيء»[39].

---

(37) نقلاً عن **المرجع السابق**، ص 214 . 215.

(38) نقلاً عن **المرجع السابق**، ص 215.

(39) نقلاً عن **المرجع السابق**، ص 216 و218 في صيغتَين مختلفتَين.

وهذا رأي في غاية السداد، ففي القرآن تعقيد وفيه ألغاز، وفيه غموض وتعمية لم يستطع أئمّة التفسير حتّى الآن الوصول إلى نتائج حاسمة فيها، رغم كلّ ما أراقوا من مداد، وبذلوا من جهود في فذلكات فارغة، ومماحكات مملّة، وثرثرة لا هاجس لها إلاّ إنقاذ نصٍّ لا سبيل إلى إنقاذه إلاّ بالسفسطة والحشو و«اللفلفة» والهراء والأسطورة(40).

وكما تحدّى القرآنُ الإنس والجنّ أنْ يأتوا بمثله، كذلك تحدّى الرَّازي علماء العرب وفصحاءهم أن يأتوا بمثل ما في كتاب أصول الهندسة والمجسطي وغيرهما. يقول الرَّازي «إنّا نطالبكم بالمثْل الذي تزعمون أنّا لا نقدر أن نأتي به»(41). وبهذا فهو يردّ على الخصم حجّته. أي إنّه بهذا التحدي يشير إلى أنّ الحجّة نفسها ترتدّ على الخصم، إذ ليس في وسع إنسان أن يأتي بمثْل نفس ما اتى به إنسانٌ آخر، مهما بلغ من القدرة على المحاكاة وإتقان التقليد.

---

(40) ومَن أراد تكوين صورة تقريبيّة . ولو غير دقيقة . عن هؤلاء الثرثارين وسخف أقوالهم، فليستمع إلى تسجيلات الشيخ متولّي شعراوي، التي يجلجل صوته بها في الإذاعات العربيّة، وهو يفسّر القرآن بلسانٍ ذرب يتفجّر كالسيل يترضّى به العوام وجهّال العلماء، ومِنْ حوله البله يهدرون بكلمة «الله الله» أو «الله أكبر الله أكبر»، فيزداد حماسة واندفاعاً. ولو لم يكونوا في المسجد في مجلس ديني وقور لملأوا الدنيا هتافاً وتصفيقاً كما يفعلون في المهرجانات الخطابية. وأنا على ملء الثقة أنّهم لا يفقهون شيئاً مما يصول به ويجول، وهو مَثَل يُحتذى عند جهّال العلماء والفقهاء والوعّاظ وأئمّة المساجد وسائر الرعيل. فهو يُعَدُّ عند أتباعه والمعجبين به إحدى قمم التفسير في هذا العصر، بل ظاهرة فريدة من ظواهر هذا العصر!! بل هو في نظر بعض مريديه، ممّن أشار إليهم النبي في حديث مشهور: إنّ الله سيبعث لهذه الأمّة على رأس كلِّ مئةِ سنة مَن يجدّد لها دينَها!

(41) نقلاً عن **المرجع السابق**، ص 218.

ثمّ إنّ هذه الكتب وأمثالها أكثرُ فائدة وأعمُّ نفعاً من القرآن والكتب السماوية عامة، لأنّ فيها من العلم ما فيه فائدة للناس في معاشهم وأحوال دنياهم، بينما التوراة والإنجيل والقرآن لا تفيد شيئاً. وإذا كان لا بدّ من التحدّث عن الإعجاز والحجّة، فالأوْلى بهما أن يُعزيا إلى مثل هذه الكتب النافعة. وفي هذا يقول الرازي: «وأيم الله، لو وجب أن يكون كتابٌ حجّةً، لكانت كتبُ أصول الهندسة والمجسطي، الذي يؤدي إلى معرفة حركات الأفلاك والكواكب، ونحو كتب المنطق، وكتب الطب الذي فيه مصلحة للأبدان أَوْلى بالحجّة مما لا يفيد نفعاً ولا ضراً»[42] أي القرآن وأمثاله.

وعلى كلِّ حال لستُ أول من يقدم على نقد القرآن فهذا شرف لا أدّعيه. كلاّ. ولن أكون الأخير فإنَّ عملي هنا مسبوق، لكنّه يختلف عمّا سبقه من حيث طريقة المعالجة، ومن حيث المستوى والمصطلحات وحقول المعرفة. لكن حق الريادة يثبت دائماً لمن شقّ الطريق ونهجَ السبيل. فحقُّ السابق على اللاّحق لا ينكره إلاّ مكابرٌ مأفون. فلولا أنّ اللاّحق يجد من السابق معونة وإبانة عنه، لما استقام له أمر ولا تمَّ له عزم، وعاد الرأي عقيماً والخاطر فاسداً. وهكذا يكلُّ الحد ويتبلّد الذهن وتسقط الهمة، «السابقون السابقون، أولئك المقرَّبون!» (56/ 10).

---

(42) نقلاً عن **المرجع السابق**، ص 219.

ثالثاً

بلاغة القرآن

ولنا أن نتساءل الآن: هل القرآن معجزٌ حقاً؟

إنّ عقيدة إعجاز القرآن لا تصمد للنقد بوجه من الوجوه. شبهات كثيرة تحوم حول هذه العقيدة، وقد رأينا شواهد واضحة على ذلك عند ابن الراوندي وأبي بكر الرازي. وسنرى بعد قليل شواهد كثيرة أخرى تدحض هذه العقيدة، على أن ننظر إلى الأمور بتجرّد وموضوعية، وألاّ ننجرف بالكثرة العددية والآراء السائدة. فالحقائق العلميّة لا تُعرف بالتصويت كما في المجالس البرلمانية مهما كان عدد الأصوات التي تؤيدها كبيراً.

والإعجاز في نظري نوعان: لفظي ومعنوي.

فأمّا الإعجاز اللفظي فشروطه وضوح التعبير، وسلاسة الألفاظ، وسلامتها من التعقيد وضعف التأليف وتنافر الكلمات، وأن يكون الكلام على مستوى واحد من الجودة والروعة والاتقان.

ولكنّ الإعجاز اللفظي لا قيمة له إذا لم يقترن بالإعجاز المعنوي، وإلاّ كان نظماً من الكلام المرصوف، والثرثارة الجميلة، والحشو الفارغ. لذلك لا بدّ للكلام البليغ من تسلسلِ الأفكار، وتساوقِها، وامتلائها بالمعنى، وأن يكون خالياً من الخطأ، سليماً من التناقض.

غير أنّ آيات القرآن متفاوتة في الجودة لفظاً ومعنىً. وهذا ما لاحظه الأقدمون وأثبتَه السيوطي.

فإذا كانت طائفة كبيرةِ من الآيات في الذروةِ من الروعة والجمال، فإنّ طائفةً أخرى من الآيات هي دون ذلك بكثير، حتّى إنّ بعضها لا يخلو من الضعف والركاكة.

كما أن الغموض والإلغاز يلفّ عدداً لا يستهان به من الآيات، بحيث يحار المرءِ في فهم المعنى المقصود من هذه الآية أو تلك، حتّى إنّ بعضَها ليبدو بلا معنى، وإنِ «اكتشف» له المفسِّرون والبلغاء ألفَ معنى ومعنى.

إنّ كتب البلاغة مليئةٌ بأبوابٍ لا معنى لها وُضعت فقط لإيجاد المخارج والتبريرات لـ«لفلفة» بعض الآيات التي تصدم القارئ، باسم الغَوص على أسرار القرآن وما فيه من إعجازٍ عظيم.

فالبلاغةُ، في ما أرى، إنما وُضعت للدفاع عن القرآن، أي لأغراض إيديولوجيّة صرْفٍ، لا للوصول إلى الحقيقة... أجل لقد كانت الإيديولوجيا هي العامل المهيمن على جميع أبحاث علمائنا في هذا الباب على حساب الموضوعيّة والمنهجيّة العلميّة.

يضاف إلى ذلك أخيراً ما نرى في القرآن في تفكّكٍ وتشويشٍ، فضلاً عن الأخطاء العلميّة الفادحة.

فهل يستقيم ذلك كلُّه مع عقيدة الإعجاز في شيء؟ أم على قلوبٍ أقفالُها؟ هذا ما سنبحثه الآن.

إنَّ جلَّ الدارسين للنصِّ القرآني من غير الغربيّين، إنْ لمْ يكونوا كلُّهم، يعالجونه على أساس أنَّه نصٌّ مقدس، أي لا يجوز نقدُه، إذ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا مِن خلفِه، فافتراضُ صحّتِه وعصمتِه مقدَّماً يضع حاجزاً يحول بيننا وبينه، ويحرمُنا من كثيرٍ من الثروات التي قد يزخر بها. وهكذا نسدّ جميع الأبواب التي كانت مفتوحة أمامنا قبل أن نبدأ. ولن يتبقّى من عملٍ في

هذه الحالة إلاّ أن نصبَّ كلَّ ما نملك من جهد على تجميل النصّ وتلميعه وتحميله ما لا يحتمل، والدفاع عنه حقاً أو باطلاً، و«اكتشاف» ما فيه من ذخائر وأسرار وحِكَم ومعانٍ تحار فيها العقول وتتيه فيها الأذهان، وهنا تبدأ رحلة البحث عن هذه الدرر.

وقد لا يكون النصُّ أكثرَ من مجموعة من الكلام الفضفاض الذي لا يعني شيئاً. لكن المفسر . بخلفيّته المؤمنة وتوقّعاته السخيّة التي تفترض في النص حكمة الأوّلين والآخرين، لإنّه من لدن حكيم عليم «نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين» (26/ 193 . 194) . أقول إذا كان النصّ لا يعني شيئاً فإنّ المفسر يرى فيه كلَّ شيء. إنّه الدُّرة المصونة والجوهرة المكنونة، إنّ هذه طريقة عقيمة مُفلسة في تناول النصّ القرآني، لا تحصد غيرَ الريح ولا تَخرج بشيء غير الثرثرة و«اللفلفة» والافتعال وتقويل النصّ ما لم يخطر لصاحبه على بال!

كلاّ. ليس القرآن من أسرار الآلهة. إنّه لا يمتّ بأيّ صلة إلى الإلهام السماوي الذي يخرج به عن حركة التاريخ. إنّه إنجازٌ بشريٌّ صرْفٌ، تجري عليه قوانين البشر، ويَسري عليه ما يَسري على أعمال البشر من قوّة وضعف، وصواب وخطأ، واتّفاق واختلاف، وتماسك وتنافر، واتّساق واختلال، وأصالة وتقليد، وعمق وسطحية، وشفافيّة وهشاشة...

والنتيجة المباشرة لذلك كلِّه هي أنَّ القرآن كتاب عادي جداً. ولذلك كان من الضروري انتزاعه من مستقرّه الآمن المطمئن خارج التاريخ البشري وإعادته إلى دنيا الناس. فلا يبقى بعد ذلك مستودَعاً للحكمة السرمدية، كتاباً سماوياً معصوماً من الخطأ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا مِن خلفه، وبذلك يصبح هو وعصره وبيئته جزءاً من الدورة التاريخيّة وحركة الأحداث.

إذا قرأتَ القرآن وجدتَ فيه مادّة غزيرة من الألوهة والعبادات والمواعظ والأخلاق والتشريع والوصايا والحِكَم والأمثال والقصص والأساطير... ولكنّك تكاد لا تعثر فيه على صفحة واحدة تترابط فيها الأفكار وتتسلسل، ويأخذ بعضها برقاب بعض، ما لم يكن النصُّ مستغرِقاً في سرد قصةٍ، أو تقرير حكمٍ، يحتاج إلى شيء من التطويل، فما أن يفرغ منه حتى يقفز إلى موضوع آخر لا صلة له به. ويتخلّل ذلك استطرادات تقطع السياق الذي قد لا تجد له تتمّة، فيضطرّ مفسِّرونا الثرثارون إلى تقدير تتمّة له، وإذا كانت له تتمّة فلا تعثر عليها إلا بعد تنقيبٍ شديد يعزوه الثرثارون إلى حكمة بالغة.

وهناك صفحات كاملة في القرآن فيها تشويش كبير، كما فيه أيضاً ألفاظ نابية وعبارات ركيكة. وفيه تقعّر وتكلّف وصنعة وافتعال وغموض وألفاظ ذات معان متضادة يصعب على المرء تقرير أي الوجهين المتضادين هو المقصود. ولو كان ذلك مقصوراً على القضايا الثانوية التافهة لهان الأمر، ولكنّه يتعدّاه أيضاً إلى قضايا الإيمان والأحكام.

ولا ننسى أن نضيف إلى هذه السقطات والعيوب ما في القرآن من تناقضات لا يخطئها البصر. وكم جهد الثرثارون لإخفائها وإعطائها معاني غريبة ليست لها، لجعلها عنواناً للحكمة والرصانة!

ويضاف إلى هذه السلسلة من السلبيات التي يكتظّ بها القرآن، والتي سنراها مفصّلة رأيَ العين، اختلاط كلام الله بكلام البشر في الآية الواحدة. فبينما النصف الأول من الآية يجري على لسان النبي أو الرسول أو أحد الصالحين، نجد تتمتها في النصف الثاني كلاماً لا يمكن لإنسان أنْ ينطقَ به بل لا بدّ من نسبته إلى الله، فإمّا أن تكون هذه النسبة مقحمة على النص، أو أن تكون

الآية مبتورة ضاع نصفها الآخر فأكملها النسّاخ . وأكثرهم ينسخون ما لا يفهمون . بما سبق إلى أذهانهم من ألفاظ يرمّمون بها الآية ويسدّون نقصها، هذا رغم كلّ ما يشاع عن توثيق النصّ وتحرّي الدقة الشديدة في تدوينه.

وأخيراً . لا آخراً . يجد العلماء صعوبة كبيرة جداً في قبول كثير من آي الذكر الحكيم لمعارضتها الشديدة للحقائق العلمية في الوقت الحاضر. لقد كانت هذه الآيات صادقة عندما كان العلم والفلسفة والأسطورة شيئاً واحداً تقريباً. وأما اليوم فقد اختلف الوضع وانجلى الموقف عن مدى سذاجة القرآن عندما تقبّل ما هب ودب من موروثات العصور القديمة ونسبها إلى «كنز» المعارف الإلهية في أسرار الكون والحياة والمصير.

ومع كلّ هذا يريدوننا لنصدّق أنّ القرآن «لو كان من عند غير اللَّهِ لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً» (4/ 82)، لكن الترقيع الثرثاري كفيل بتسوية كل خلاف والرد على كل اعتراض، واعطاء القرآن وحدة منسجمة متماسكة بريئة من العيوب، ليخرج من بين أيديهم «قرآناً عربياً غير ذي عوج» (39/ 28).

وسنتحدث عن ذلك كلّه بما يتّسع له المجال ويسمح له المقام من التفصيل والتوضيح والإيضاح، لنفتح قلوباً غُلفاً، وآذاناً صُمّاً، ولنزيل الغشاوة عن عيون لا ترى إلاّ ما تريد أن ترى، ونفتق الألسنة فلا تقول على الحقّ إلاّ الحقّ، ولا تنطق بغير الحق.

وهكذا، وأياً كان حكمنا على القرآن، ففيه من الروائع والبدائع باقات لا يملك المنصفون . مهما كان انتماؤهم ومهما كانت عقائدهم ومعتقداتهم . إلاّ أن ينحنوا لها ويخرّوا للأذقان سجَّداً. ولكن هل كلّ القرآن كذلك؟ كلاّ وألف كلاّ. فإنّ هذه الآيات وما يحيط بها من أطياف وهالات، تستولي على العقل والقلب

والشعور، وهي بما أهرقت من مداد، وأثارت من أقلام، وفجرت من طاقات وحركت من مواجيد . أقول إن هذه الآيات بما سُلط عليها من أضواء كاشفة، قد حجبت مجموعة أخرى من الآيات عن مجال الرؤية وألقت بها في العتمة. فإذا بنا لا نرى إلاّ ما يأخذ بالأبصار وتعمى عما دون ذلك، وإن بقينا في الحالين . ومن حيث ندري أو لا ندري . نُصدر عليهما حكماً واحداً، فيا لَلغباء! وهكذا ألحقنا آيات العتمة بآيات التوهج، وأغفلنا الفرق الشاسع بينهما لاشتراكهما في اسم واحد وهو القرآن، كمن يلحق الثرى بالثريا لاشتراكهما في جذر واحد هو الحروف الثلاثة ث ر ى.

فلا تظنّن إذن أنّ القرآن كلّه على سمت واحد، مسبوك على تلك الآيات الروائع التي أوردناها في الصفحات السابقة، كلاّ. تلك كانت حبّات من الدرّ واللؤلؤ التقطت من بين التراب والحصى، كقطَع متجاوراتٍ من الأرض تتناثر فيها هنا وهناك أشجار من أعناب، وأُخر تنبت بالدهن والصمغ والزهر والتمر، بين كثبان مترامية من الزؤان والقصب والأعشاب الضارّة، هل يستويان مثلاً؟

وهكذا القرآن. فهو . كما ذكرنا من قبل وكما سنرى مفصلاً . ليس على مستوى واحد من الجودة والسطوع والرونق. ففيه الغثّ، وفيه السمين، وفيه ما بين ذلك. أخلاط يعزّ على العقل تصوّر الالتئام بينها، لكنّها تلتئم بالإكراه والإستكراه، وحين يتدخل الافتعال والثرثرة في رتق الفتوق ورأب الصدوع وسدِّ الفجوات، بعضها سهل المأتى وبعضها لا يسلس إلاّ بكثير من الجهد والمؤونة، وبعضُها ألغاز ومعمَّيات كأنّ العقل منها في عُقال. وسنكشف عنك غطاءك أيها القارئ، فبصرك غداً حديد، وإنَّ غداً لناظره قريب!

1. انظروا إلى هذه الدرّة الرائعة التي يصف فيها القرآن انكشاف سرائر المجرمين وافتضاح أمرهم أمام الله الذي أنطق

أعضاءهم يوم القيامة، فشهدت عليهم بما اقترفوا من آثامٍ ظنّوا أنّها اندثرتْ إلى غير رجعة، فإذا هي مسجلة تنطق بالحق:

«ويَومَ يُحشَرُ أعداءُ اللّهِ إلى النار فَهُم يُوزَعُونَ حتّى إذا جاؤوها شَهِدَ عليهِم سمْعُهم وأبصارُهم وجُلودُهُم بما كانوا يَعمَلون. وقَالوا لجلودِهم: لِمَ شَهِدْتُمْ علينا؟ قَالوا: أنْطَقَنا اللّهُ الذي أنْطَقَ كلَّ شيءٍ. وَهُوَ خَلَقَكُم أوّلَ مرَّةٍ، وإليهِ تُرجَعُونَ، ومَا كُنتُم تَسْتَتِرُونَ أنْ يَشهَدَ عليكُم سمْعُكم ولا أبصَارُكُم ولا جُلودُكم، ولكنْ ظَنَنتم أنّ اللّه لا يعلمُ كثيراً ممّا تَعمَلون. وذلكُمْ ظنُّكُم الذي ظنَنتُم بربِّكُم أرْدَاكُم، فَأصبَحتُم مِنَ الخَاسِرين» (41/ 19 . 23).

فإذا كانت هذه الرائعة «الإلهية» من السهل الممتنع الذي لا يؤتَى بمثله، وهذا صحيح، فهل تُرى يمكن أن يؤتَى بمثل هذه الرائعة «البشريّة» **للجاحظ** الذي يقول بأسلوبه النديّ الممتع في كتابه **التربيع والتدوير**، الذي يترقرق بياناً وفصاحةً وصفاءً وإشراقاً:

«بل ما يهمّك أقاويلُهم ويتعاظمك من اختلافهم؟ والرّاسخون في العلم، والناطقون بالفهم يعلمون أنّ استفاضة عَرضك قد أدخلت الضيم على ارتفاع سمكك، وأنّ ما ذهب منك عرضاً قد استغرقَ ما ذهب منك طولاً. ولئنِ اختلفوا في طولك لقد اتّفقوا في عرضك. وإذْ قد سلَّموا لكَ بالرغم شطراً، ومنعوك بالظلم شطراً، فقد حصَّلتَ ما سلَّموا، وأنتَ على دعواك فيما لم يُسلِّموا. ولعمري إنّ العيون لَتُخطئ، وإنّ الحواسَ لَتكذبَ، وما الحكم القاطع إلاّ للذّهن، وما الاستبانة الصحيحة إلاّ للعقل، إذ كان زمَاماً على الأعضاء وعياراً على الحواس»[43].

---

(43) **التربيع والتدوير**، تحقيق شارل بلاّ، ص 5.

هذا، ولا يُذكَر أمراءُ القول إلاّ ذُكِر **أبو حيان التوحيدي**، فقد أُوتي جوامع الكلم، وعلى لسانه تتفجّر الحكمة وتنثال المعاني. ولكنَّ الدهرَ حرمه الدنيا. ودونكم هذا النص الذي جاء في مفتتح **الإمتاع والمؤانسة** يصف فيه الدنيا، بأوجز وصفٍ وأدلِّ معنى وأقصرِ عبارة، كأنما يصف نفسه الملتاعة وحظه العاثر:

«إن هذه العاجلة محبوبة، والرفاهيّةَ مطلوبة، والمكانةَ عند الوزراء بكلِّ حوْلٍ وقوّة مخطوبة، والدنيا حلوةٌ خضرة وعذبة نضِرة، ومَن شفَّ شقَّ عملُه، ومَن اشتدَّ إلحاحُه توالى غُدُوُّه ورواحُه، ومَن أسَرَه رجاؤه طال عناؤه وعظُم بلاؤه، ومَن التهب طمعُه وحرصُه ظهر عجزُه ونقصُه»[44].

وكان **بديع الزمان** مُحيّراً على نحو ما كان الجاحظ والتوحيدي. كان ظاهر الإمتاع، وكانت الكلمة بين يديه طيّعة ذلولاً، تعبق بالعطر والشذى، وتفوح منها رائحة الطيب. وقد وصلت إلينا منه كلمات غيرُ قليلة لا يفرغ منها التأمل، لا تقلُّ روعةً وسلاسة عن كثير من آي الذكر الحكيم، لكنَّ كثيراً من القرّاء يأخذونها مأخذاً يسيراً. لنقرأ هذه القطعة الفنّية الجميلة يصف فيها جوعَه عام مجاعة ببغداد، وكيف تبخّرتْ جميع آماله في الحصول على الطعام فلم ينلْ منه غيرَ اللوعة والأسى. قال على لسان عيسى بن هشام:

«حدّثنا عيسى بن هشام قال: كنتُ ببغداد عامَ مجاعة، فملتُ إلى جماعة، قد ضمّهم سمطُ الثريا، أطلب منهم شيّا، وفيهم فتى ذو لثغةٍ بلسانه، فقال: ما خطبُك؟ قلتُ: حالان لا يُفلح صاحبّهما: فقيرٌ كدَّه الجوع، وغريبٌ لا يمكنه الرجوع. فقال

---

(44) **الإمتاع والمؤانسة**، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، القاهرة، ص 13.

الغلام: أيّ الثلمتين تقدَّم سدُّها؟ فقلتُ: الجوع، فقد بلغ مني مبلغاً. قال: فما تقول في رغيف على خَوانٍ نظيفٍ، وبقلٍ قطيفٍ إلى خلٍّ ثقيفٍ، ولوزٍ لطيفٍ إلى خردلٍ حرّيفٍ، وشواءٍ صفيفٍ إلى ملحٍ خفيف، يقدمه إليك الآن مَن لا يمطلك بوعد ولا يعذبك بصبر، ثمّ يَعُلّك بعد ذلك بأقداح ذهبية من راح عنبيّة؟ أذاك أحبُّ إليك أم أوساط محشوّة وأكواب مملّوّة، وأنقال معدّدة وفُرش منضّدة وأنوارٍ مجوَّدة، ومطرب مُجيد له من الغزال عينٌ وجيد؟ فإنْ لم تُردْ هذا ولا ذاك، فما قولك في لحم طريٍّ وسمَكٍ نهريٍّ، وباذنجان مقليٍّ، وراحٍ قطربليٍّ، وتفّاح جنيٍّ، ومضجع وطيٍّ على مكانٍ عليٍّ، حذاءَ نهرٍ جرّارٍ، وحوضٍ ثرثارٍ، وجنة ذات أنهار؟ قال عيسى بن هشام: أنا عبد الثلاثة. فقال الغلام: وأنا خادمها لو كانت!! فقلتُ: لا حيّاك الله. أحييتَ شهوات قد كان اليأس أماتها، ثم قبضتَ لهاتها؟!».

أرأيتَ إلى هذا الجمال الآسر، الذي لا يختص به القرآن وحده؟ لقد ترك لنا الجاحظُ والتوحيدي وبديعُ الزمان، وكثيرٌ غيرهم من أمراء المنثور والمنظوم، كابن المقفع، وأبي نوّاس، وأبي العلاء المعري من القدماء، والمازني، والرافعي، والعقّاد، وطه حسين من المحدثين. لقد ترك لنا هؤلاء وأمثالُهم روائعَ تُضاهي . إنْ لم تكن تفوقُ أحياناً بعضَ آيات القرآن، وخلّفوا لنا تراثاً ضخماً مليئاً بالحكَمِ البالغات والآيات البيّنات، ولكن أياً منهم لم يدَّعِ أنّه يُكَلَّم من السماء ويحيط بأسرار الآلهة.

فالقرآن، كما ذكرتُ سالفاً ليس على مستوى واحد من الجودة. بل فيه آيات تتّسم بالإسفاف والابتذال والركاكة والتشويش والتفكّك والالتباس والغموض وعدم المسؤولية، إلى جانب آيات الروعة التي يسود فيها الجلال والعظمة والبيان والتماسك والوضوح والمسؤوليّة الكاملة. لقد حار المفسرون في تعليل هذه

الظاهرة فقاموا بمحاولاتٍ يائسة لتجاهلها وإبعادها عن الأضواء، حتى لا نقع على آية منها عند الكلام على الفصاحة والبلاغة والبيان والبديع وفنون القول الأخرى التي تزيّن القرآن.

فبمقدار تركيزهم على الروائع في كتب إعجاز القرآن والاستشهاد بها في كلّ باب وكلّ فصل وكلّ صفحة، وأكاد أقول في كلّ سطر من كتبهم الصفراء بمناسبة وبغير مناسبة، حتّى مجّتْها الأسماع وسئمتْها العقول . أقول بمقدار هذا التسليط للضوء على بعض الآيات، نجد تعتيماً على بعض الآيات الأخرى التي فرضوا عليها حصاراً غيرَ مرئيٍ، بحيث تمرُّ بها الأسماع مروراً سريعاً عابراً لا يتّسع لأي تدبّر أو تفكير.

إنّ جميع قراءاتنا للقرآن هي قراءةُ تَعبُّد تزيد الأعمى عمىً كلّما زادها القلبُ حفظاً واللسانُ صقلاً، لا قراءة تحليل ونقد وفهم وتعمّق.

أجل. لقد حار المفسِّرون في تعليل هذه الآيات وإيجاد المخارج لها، فتجاهلوها في جميع استشهاداتهم وعمدوا إلى «لفلفتها» كلّما صادفوها في كتاباتهم، وإكراهها على الاتساع لمعان لا تتسع لها حفظاً لماء وجهها.

إنّهم فرسان الحلبة حاضرون في كلِّ وقت، لا يضيقون بمطلب، ولا يشقّ عليهم جواب، ولا يخونهم مرام، ولا يؤودهم سقام. إنّهم على الباب يردُّون على كلِّ طارق، يجد عندهم فلاسفةُ النصّ مرتعاً خصباً ومراحاً واسعاً لتأييد مذاهبهم النقديّة. تعرفهم بسيماهم إنّهم أصحاب الثرثرة وحاملو المبخرة، وقد وصل الشطط ببعضهم إلى حدِّ إضحاك المجّان بقلب الأعيان، «فاكتشفوا» في الغائم والمرتبك والمتذبذب والمضطرب والقلِق والمنغلِق والمتناقِض من الآيات، نُكتاً بلاغيّة ومقاصد إلهيّة تدقّ عن

العقول، وتخفى على الفهوم، وتتحدّى الأذهان، بحيث لا يدركها إلاّ الراسخون في العلم، هذا إنْ أدركوها!!

أعطِني مجنوناً وأنا كفيلٌ أنْ أستخرجَ لكَ من مكنون كلامه درراً وجواهر ولآلئ من حكمة الأوّلين والآخرين.

إنّهم قادرون على انتزاع المعنى من اللاّمعنى، ولا يجدون عنتاً في أن يجعلوا كلَّ عقيم مُنتِجاً، وكلَّ أبكمٍ ناطقاً، وكلَّ أعجمٍ فصيحاً، وكلَّ عجوزٍ رجلاً في شرخ الشباب. كلُّ شيء عندهم غُرر وماء، ورونق وكرم إذاً ورد من السماء، حتى ولو كان شَوكاً وعلقماً وسماً زعافاً وما إلى ذلك من البلاء، فلا تستقيم السماء إلاّ بالعوراء والعرجاء والعجفاء وكلّ ذات آفة ورْهاء بلهاء. طوبى للبله فإنّ لهم ملكوت السماء!

إنّ حسَّ النقد يتبلّد كلّما اشتدّ إيمانُ صاحبه، حتى إنّه لا يرى في القرآن إلاّ ما يريد أن يرى، ويعمى عما لا يريد أن يرى. فإذا كشفت له مدى ما في القرآن من باطل، وكثرة ما فيه من اختلاف، ولمسَهما بيده، أرغى وأزبد وسبَّ ولعن. لقد سدّ أذنيه دونك بقدر انسداد عقله، واتّهمك بأشنع التهم. ويلٌ لك، فقد جئتَه لتَفتِنه عن دينه لولا أن ثبَّتَه اللَّه وأنعم عليه بنعمة الإيمان.

انظر إليه كيف يسدّ أذنيه ولسان حاله يقول «هذا إفكٌ مُبين» (24/ 12). وهذا ما فعله قوم نوح عندما قال مخاطباً ربَّه «وإنّي كلّما دعوتُهم لتغفرَ لهم جعلوا أصابعَهم في آذانِهم، وَاستَغشَوا ثيابَهم، وأصَرُّوا واستكبروا استكباراً» (71/ 7). وهذا ما فعله مشركو مكّة فقال لهم القرآن: «ولو نزّلْنا عليكَ كتاباً في قِرطاسٍ فلمَسُوهُ بأيديهم لقالَ الذين كفروا: إنْ هذا إلاّ سحرٌ مُبين» (6/ 7). والويل كلّ الويل لمن ينبس بكلمة نقد واحدة في حقّ الدين، والطامعة الكبرى والداهية الدهيا أن يمسَّ هذا النقدُ بآية بل بلفظة

من ألفاظ القرآن، فليت شعري، ما الفرق بيننا وبين ما رأينا الآن من قوم نوح ومشركي مكة؟[45].

وأعود فأقول إنّ هؤلاء الذين «يطنطنون» بالقرآن، ويَكيلون المدائح للقرآن، ويتشدّقون بفصاحة القرآن وبلاغة القرآن، ويملأون الدنيا جعجعةً بإعجاز القرآن، **والمعجزة الكبرى للقرآن**[46] لا يستشهدون إلاّ ببعض الروائع والغرر التي يزدان بها القرآن والتي هي عنوان سحر القرآن. فقد انصبّ اهتمامُهم على آياتٍ منتقاة لا شك في بلوغها قمة الروعة والجمال.

ولكن أيًّا منهم لم يتعرّض لما رثَّ وغثَّ من القرآن مما سنأتي عليه بعد قليل، ولئن تعرضوا له تعهدوه بالصقل والتهذيب والتجويد لسد ثُلمته وستر عورته حتّى يَخرج من بين أيديهم سبيكةً مصونة أو درّة مكنونة، تليق برب العزة والكرامة، فالق الإصباح إلى يوم القيامة!

***

(45) ولعلّكم سمعتم بالأزمة الوزارية في الكويت والمطالبة بإقالة وزير الأوقاف، لماذا؟ لصدور طبعة جديدة للقرآن فيها بعض الهفوات غير المقصودة. وسيُساق الوزير إلى جهنم وِرْداً، يوم لا يملك الشفاعة إلاّ من اتّخذ عند الرحمن عهداً. لقد ظهرت في القرآن على عهده . تبَّت يداه . أخطاء مطبعية أُحصيت عداً، أخزاه الله لقد جاء شيئاً إدّاً، تكاد السموات يتفطّرن منه، وتنشق الأرض، وتخرّ الجبال هدّاً، أن ترك كتاب الله يدخله التحريف سَرداً، ولم يبذل للحؤول دون ذلك أو تحاشيه جهداً. قاتله الله. لقد حسب الأمر لهواً وهزلاً ودِداً، ولم يره . له الويل . حقاً وفرضاً وجداً، فليرجع إلى الله هو وقبيله فذلك أزكى له وأجدى، فإنْ لم ينته فسيُمدّ له ولفريقه في العذاب مداً، وإنْ منهم إلاّ آتي الرحمن عبداً، وكلهم آتيه يوم القيادمة فرداً.

(46) اسم كتاب محمّد أبي زهرة الذي يشيد به العامّة، بل وكثير من الخاصّة وخاصّة الخاصّة.

البلاغةُ هي خلقُ الألفاظ على أقدار المعاني، وتزيينُ المعاني بالألفاظ المشعّة. وليست البلاغة أنْ تخاطبَ الناسَ على قدر ما يَفهمون، وإنما البلاغة هي أن ترقَى بهم إلى مقاصِدك بأن تبيّنَها لهم بالصِّيَغ التي تجعلهم يفهمون كلَّ ما تريد أن تُبلِّغَهم إيّاه. فمخاطبة الناس على مقدار عقولهم وأفهامهم فيها تضحية بالمعنى وسطحية وتنازل، أي إيثار للفهم التقريبي على حساب المعنى الدقيق الكامل، وابتعاد بالكلام عن مقاصده. فعلى المبدع أن يرقى بادائه الفنّي، وألاّ يتعمّدَ الهبوطَ نحو السهل.

ولكن، ما يلاحظ أنّ كثيراً من الآيات التي نواجهها في القرآن مبهمة تقوم على مفاهيم تقريبية غامضة لا تفي بجلاء محتوى المعاني، لافتقار الألفاظ فيها إلى الدقة والضبط. هذا إذا لم تكن أقربَ إلى الألغاز والأحاجي.

فاللغة الدقيقة هي قالب للفكر الدقيق، واللغة المبهمة هي للعقل ارتباك وللتفكير تلعثم. لذلك إذا أردنا أن يكون الكلام بليغاً فلا بدّ أن يستوفي شرطَ الوضوح والشفافية والقدرة على الوصول إلى السامع بأحلى لسان وأجلى بيان. هذا فضلاً من سلامة المعنى، وعدم الوقوع في الخطأ، والبعد عن التناقض. فلا يليق بصاحب الكلام البليغ أنْ تختلّ معانيه أو يتناقض، أو أنْ يأتي بسقط اللّفظ والمعنى.

ومما يساعد على الوضوح: البساطةُ، والإيجازُ، والصحّةُ، واستخدامُ الألفاظ الحسّيّة دون التجريديّة، والجُمَلُ القصيرة دون الطويلة، وتفضيلُ المأنوس من الألفاظ على الوحشيّ، والابتعادُ عن الحشو والتقعّر والافتعال، وعدمُ استعمال ما له معنيان أو أكثر من الألفاظ ولا سيّما الألفاظ ذات المعاني المتضادة.

كما يجب في الكلام البليغ الواضح ارتباطُ أجزائه بعضها

ببعض، وتساوقها وتسلسلها بعضها من بعض، وترتُّب بعضها على بعض. فلا ننتقل من جملة إلى أخرى إلاّ بعد فحصها واستكمال عناصرها، بمعنى أنّ كلَّ جملة تكون بمثابة بذرة للجملة التالية، وأن تبدو الجملةُ اللاّحقة كأنّها نهاية أو خاتمة للجملة السابقة. وهكذا يأخذ بعضُها بأعناق بعض، وفي وَحدة فنّيّة متماسكة متكاملة كالبنيان المرصوص.

والخلاصة: البلاغة من البلوغ، والبلوغ هو الوصول. وفي موضوعنا هنا هو وصول المعنى إلى المقصود به. مدارُ الأمر كلّه هنا هو بلوغ المعنى والوصول إليه. وعلى قدر وضوح الدلالة يكون ظهور المعنى. والعكس صحيح أيضاً. فكلّما خفيت واعتاصت فَقَدَ الكلامُ وظيفتَه وأصبح جعجعة لا خير فيها ولا طائل وراءها.

***

والآن، بعد هذه الجولة القصيرة في البلاغة وشروطها والكلام البليغ والفرق بينه وبين الكلام غير البليغ، يحقّ لأيٍّ منّا أنْ يتساءل: أين موقع القرآن من كلّ هذا؟ وما درجة البلاغة فيه؟ وهل هو على مستوى واحد من البلاغة، أم هناك تفاوت بين آياته؟ وما درجة هذا التفاوت؟ هذا ما سنناقشه في الفقرة التالية.

رابعاً

أين هي بلاغة القرآن؟!

هناك خطوط حمراء يلتزم بها جميع الدارسين المسلمين للقرآن ولا يسمح أي منهم لنفسه بتجاوزها. إنَّ أحداً من هؤلاء الدارسين لم يبدأ من الصفر، بل انطلق انطلاقاً واثقاً صارماً من قوله تعالى «وإنَّه لَكتابٌ عزيزٌ، لا يَأتِيهِ الباطِلُ مِنْ بينِ يَديه ولا مِنْ خلفِه، تنزيلٌ مِن حكيمٍ حميد» (41/ 41 . 42)؛ ومن قوله: «ولو كانَ مِن عندِ غَيرِ اللَّهِ لَوَجَدوا فيهِ اختِلافاً كَثيراً» (4/ 82).

فالقرآن لا يتسرّب إليه الباطل بوجهٍ من الوجوه، كما أنّه منزّه عن الاختلاف. هاتان مسلّمتان أساسيّتان لا تقبلان النقاش. ويمكن أن نضيف إليهما آيةً ثالثة تؤكّد عصمة القرآن وحصانته: «قلْ لئنِ اجتمعتِ الإنسُ والجِنُّ على أن يَأتُوا بمثلِ هذا القرآنِ، لا يَأتونَ بمثلِه، ولو كَانَ بعضُهم لبعضٍ ظهِيرا» (17/ 88).

فليت شعري، كيف يمكن للمرءِ دراسة القرآن دراسةً موضوعيّة مجرّدة حرّة ويداه مغلولتان بهذه الآيات الثلاث؟ إنزعوا هذا الغلّ وسترون في الحال أنَّ الباطل قد وجد طريقه إلى القرآن كأيِّ إنجاز بشري، وأنَّه يعجُّ بالخلاف وبكلِّ أنواع الاختلاف، وأنّه يمكن الإتيانُ بمثله بل بما هو أحسن منه. إنزعوا عن أبصاركم الغشاوة وانطلقوا إلى الفضاء الرحب. ولكن على من تقرأ مزاميرك يا داود؟ إن أحداً لا يحب اللعب بالنار، بل لا يخطر ذلك على بال، ولئن خطر له فلن يُطيقَه، ولئن أطاقه فلن يُقْدِمَ عليه... بل حتّى أولئك الذين تساورهم بعضُ الشكوك في صحّة القرآن لا يجرؤون على

إعلان رأيهم الحقيقي، وإذا فعلوا ذلك فإنما يفعلونه على استحياء ومِن وراءِ حِجاب، بل ألف حجاب وحجاب.

ولذلك فعلى مَن يريد معرفة آرائهم في هذا الباب أن يكون على درجة من الموهبة والذكاء بحيث يكون قادراً على تحرير المكبوت في كتاباتهم وكشف المقموع بقراءة ما بين السطور. إنهم . كما أسلفت . لا يريدون اللعب بالنار، إيثاراً للعافية وحباً للسلامة. وأمّا أنا فإني مولع باللّعب بالنار، وسيكثر من بعدي اللاّعبون. فالنار هي التي تحرق الشوائب العالقة بالذهب، وتأتي على جميع ما فيه من غثٍّ وغُثاء. فإذا أردت أن تكون رجلاً فعش في خطر **!!**

***

إنَّ أول ما يصدم النظر في القرآن هو تفكّكه. وهذا التفكك لا يحسُّه المؤمن لطول إلْفته للنصّ أوّلاً، ولأنَّ الإيمان درعٌ واقية يحفظ صاحبه من التطلع إلى ما في النصّ من عيوب. وأمّا غير المؤمن، ولا سيّما إذا كان مستشرقاً يدرس القرآن لأوّل مرة فإنّه يُصعق عندما يرى هذا الكوكتيل العجيب في السورة الواحدة بل في الصفحة الواحدة، من كلام ربِّ العالمين. فهو قد يأخذ عليه كل شيء إلاّ أنْ يكون كوكتيلاً كالقرآن.

1. التسلسل نادر في القرآن، فلا وجود له إلاّ في **سورة يوسف،** وبعض القصص القصيرة. ثمّ يعود إلى سيرته الأولى من تقطّع وانقطاع. وحتّى سورة يوسف التي بلغت إحدى عشرة ومئة آية، فإنَّ الآيات التسع الأخيرة منها منقطعة الصلة عمّا قبلها، فضلاً عن أنّ هذه الآيات التسع هي فيما بينها كوكتيلٌ عجيب، لا رابطة بين العناصر التي يتكوّن منها، وإنْ كان المفسِّرون الثرثارون لا يجدون أيَّ صعوبة في جمع هذا الكمّ المتنافِر على صعيد واحد، وخلْقِ شتّى الروابط والوشائج بين عناصره. ولا غرو، فكلُّ واحد

منهم هو . كالله . على كلِّ شيء قدير! هذا إذا لفتَ نظرَهم وجودُ أيِّ تفكّك أو تشويش في القرآن أو . على الأقل . اعترفوا به!!

2. انظروا إلى هذه الآيات . القفزات، ودلّوني على ما يربط بينهما:

«ولَقَدْ كَرَّمْنا بَني آدمَ، وَحَمَلْناهُمْ في البَرِّ والبَحْرِ، وَرَزَقْناهمْ مِنَ الطَّيِّباتِ، وَفَضَّلْناهُمْ على كثيرٍ ممَّنْ خَلَقْنا تَفْضيلاً. يومَ نَدْعُو كلَّ أناسٍ بإمَامِهِمْ. فمَنْ أُوتِيَ كتابَهُ بِيَمينِهِ فأولئكَ يَقرأونَ كِتابَهمْ، ولا يُظْلَمونَ فَتيلاً. ومَن كانَ في هَذهِ أعْمَى فَهُوَ في الآخِرةِ أَعْمى وأضَلَّ سَبيلاً. وإنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الّذي أوْحَينا إليكَ لتَفْتَرِيَ علينا غَيرَهُ، وإذاً لاتَّخَذُوكَ خليلاً. ولولا أنْ ثَبَّتْناكَ، لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إليهِم شَيئاً قليلاً. إذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الحياةِ وضعْفَ المَماتِ؛ ثُمَّ لا تَجِدُ لكَ علينا نَصيراً. وإنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأرضِ لِيُخْرِجُوكَ منها؛ وإذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إلاّ قليلاً. سُنَّةَ مَنْ قَد أرْسَلْنا قَبْلَكَ منْ رُسُلِنا؛ ولا تَجِدُ لِسُنَّتِنا تَحويلاً.

أَقِمِ الصّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمسِ إلى غَسَقِ اللّيلِ وَقُرآنَ الفَجْرِ. إنّ قُرآنَ الفَجْرِ كانَ مَشهوداً. ومنَ اللّيلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لكَ، عسَى أنْ يَبْعَثَكَ ربُّكَ مَقاماً مَحموداً. وقُلْ: رَبِّ أَدْخِلْني مُدْخَلَ صِدْقٍ، وأَخْرِجني مُخْرَجَ صِدْقٍ، واجْعَلْ لي منْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نصيراً. وقلْ: جاءَ الحقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ، إنَّ الباطِلَ كان زَهُوقاً. وَنُنَزِّلُ منَ القُرآنِ ما هُوَ شِفاءٌ ورحمَةٌ للمؤمِنينَ. ولا يَزيدُ الظّالِمينَ إلاّ خَساراً. وإذا أنْعَمْنا على الإنسانِ أعْرَضَ وَنأَى بجانِبِهِ، وإذا مسَّهُ الشَّرُّ كان يَؤوساً.

قلْ: كلٌّ يَعْمَلُ على شاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أعْلَمُ بمَن هوَ أهْدَى سبيلاً. ويَسْأَلُونَكَ عن الرُّوحِ. قُلْ الرُّوحُ منْ أمْرِ رَبِّي. وما أوتيتُمْ منَ العِلْمِ إلاّ قَليلاً. ولئنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بالّذِي أَوْحَينا إليكَ، ثُمَّ لا تَجدُ لكَ بهِ علينا وكيلاً. إلاّ رَحْمَةً منْ رَبِّكَ. إنَّ فضلَهُ كانَ عليكَ كبيراً.

قُلْ: لئنِ اجْتَمَعَتِ الإنْسُ والجِنُّ على أنْ يأتُوا بمثْلِ هذا القُرآنِ، لا يأتُونَ بِمثْلِهِ، ولو كان بعضُهمْ لِبَعْضٍ ظَهيراً» (17/ 70 . 88).

إنّ سورةَ الإسراء كلَّها من هذا القبيل. قفزاتٌ ينتقل بها القرآن من وادٍ إلى آخر، من غير أن يمرَّ بالطرق والمفارق الممتدّة بينهما ويقطع المسافات الشاسعة التي تؤدّي إليهما. هل هذا من البلاغة في شيء يا دهاقنة البلاغة؟ أجيبوني يا أبطال «اللفلفة» وإيديولوجيا التبرير، أنا لا أرى في كلِّ هذا إلاّ امتهاناً للعقل واستدراجاً له إلى أوخم العواقب وبئس المصير! ما الفرق بينكم وبين صُحُفيي العالم الثالث الذين باعوا أنفسَهم للسلطان ورفعوا عقيرته في كلِّ مكان، لا رادع من ضمير ولا وازع من خُلق؟

التفكّك والإختلال في آيات القرآن هما القانون، وأمّا التماسك والتواصل والاتساق فهي الاستثناء.

3. ما قولكم دام فضلكم في الآية التالية؟ إفتوني في أمري يا أرباب الفصاحة والبيان ويا سدنة المنطق والبرهان. قال تعالى في حكايته قصة يونس عندما التقطه الحوت: «فلَولا أنَّه كَانَ مِنَ المسَبِّحِينَ، لَلَبِثَ في بَطنِه إلى يومِ يُبعَثون. فَنَبَذنَاهُ بالعَراءِ وهُو سَقِيمٌ. وأنْبَتْنا علَيه شجرةً مِن يَقطِينٍ. وَأرْسلْنَاه إلى مَائَةِ ألفٍ أو يَزيدون، فآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهم إلى حين. فَاستَفْتِهِم: أَلِرَبِّكَ البَنَاتُ وَلَهُمُ البَنُون؟ أم خَلَقْنا الملائِكةَ إناثاً وَهُم شَاهدون؟» (37/ 142 . 150).

فما شأن الملائكة هنا وأنوثتها بقصّة يونس؟ ما بالكم لا تضيفون إلى أبواب البلاغة باباً تسمّونه باب النشاز أو باب النتوء، وما إلى ذلك من العناوين التي تدلّ على انقلاب المعايير في القرآن؟

4. وقد لا تظهر «الكوكتيلية» هنا كثيراً إلاّ بشيء من الترقيع يمكن به الربط بين هذه الآيات المتنافرة على طريقة القوم،

ولكن أي ترقيع يربط بين أصناف هذا الكوكتيل الذي لا يُخطئه البصر؟ آية من الشرق، وآية من الغرب، ومن كل وادٍ عصا، كما يقول المثل:

«يومَ لا يَنفَعُ الظالمينَ مَعذَرتُهم وَلهُمُ اللَّعنَةُ، ولهمْ سُوءُ الدارِ. ولَقد آتَينا موسى الهدى، وأَورَثْنَا بني إسْرَائيل الكتابَ، هدىً وذكرَى لأُولِي الألباب. فاصْبِرْ إنَّ وعْدَ اللَّه حقٌّ واستغفِرْ لذنبِكَ، وسبِّحْ بحمدِ ربّك بالعشيّ والإبكار... لَخَلْقُ السموَاتِ والأرضِ أَكبرُ مِن خلقِ الناس، ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يَعلمون» (40/ 52 . 57).

إنّ التفكك في آيات القرآن يبدو أنّه من لوازم التنزيل الحكيم! قلّب صفحات القرآن كما تريد فلن تجد صفحة سليمة من التفكّك، وهي تقفز إلى بصرك قبل أن تتجرّد للبحث عنها واقتناصها. فهل في ذلك حكمة بالغة خفيت على عقولنا الضعيفة فلا يعلمها إلاّ الراسِخون في العلم، وقليلون ما هم!

5. إنّ التسلسل لا يكاد يراعَى إلاّ في القصص وبعض آيات الأحكام، وما عدا ذلك رأيت الآيات تتفرق بها أيدي سبأ: «المالُ والبنون زينة الحياة الدنيا، والباقياتُ الصالحاتُ خير عند ربّك ثواباً وخير أملاً. ويوم تسيّر الجبال وترى الأرض بارزة، فحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً... وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم، فسجدوا إلاّ إبليس كان من الجنّ ففسق عن أمر ربه، أفتتخذونه وذريَّتَه أولياء من دوني وهم لكم عدوٌّ؟ بئسَ للظالمين بدلا! ما أشهدتهم خلق السموات والأرض، ولا خلق أنفسهم، وما كنتُ متَّخذاً المضلّين عضُداً. ويوم نقول نادوا شركاءكم الذين زعمتم، فدَعَوهم فلم يستجيبوا لهم، وجعلنا بينهم موبِقاً» (18/ 46 . 51).

6. والغريب أنّ هذا التفكّك لا ينحصر في اختلال سياق الآيات في الصفحة الواحدة بحيث يجعل من هذه الصفحة

حشداً عجيباً من الآيات المتنافرة، بل إنّ الاختلال يشقّ الآيةَ الواحدة ويباعد بين طرفَيها، فإذا آخرها غير منسجم مع أوّلها:

«إليهِ يُرَدُّ عِلْمُ الساعةِ، ومَا تَخْرُجُ مِن ثمراتٍ من أكمامِها، ومَا تَحمِلُ مِنَ أُنثَى ولا تَضَعُ إلاّ بِعلمِهِ. ويومَ يُناديهِمْ: أينَ شُرَكائي؟ قَالوا: آذَنَّاكَ، مَا مِنّا مِن شهيد» (41/ 47).

فما علاقة آخِرِ هذه الآية بأوّلها؟ ما بال العازفين على أوتار فصاحة القرآن وإعجاز القرآن يتجاهلون هذه الآية وأمثالَها، ويكتفون بالروائع التي لا يملك أحد . مهما كان موقفه من القرآن . إلاّ أن ينحني لها طوعاً أو كَرهاً؟ وأمّا الآيات الأخرى، الآيات القلقة المهتزّة المضطربة التي لا تصمد للنقد، فيمرون عليها وهم غافلون ومتغافلون، وإذا عرضوا لها رَتقوها ونسجوا خيوط العنكبوت لتغطيتِها وسترِ عوارها. وجاز ذلك على العامّة، بل وعلى الخاصة. ولكن هيهات أن تجوز على العين الناقدة لقلّةٍ نادرةٍ مختارة: بل حتّى هذه القلّة قد تعمى عن الحقّ وتتعامى طلباً للسلامة.

فالمؤمن . حتى ولو كان من الخاصة وخاصة الخاصة . يرى بحدسه لا بحسه، وبقلبه لا بعقله. ولكن العين الفاحصة المجردة . وقليل ما هي! . هي وحدها التي تستطيع الوغول في الأشياء وسبر حقائق الأشياء، حتّى لتنكشف لها في لحظات الإشراق أو تكاد أعيان الأشياء. إنّ خيوط العنكبوت هي خيوط العنكبوت، لا يستقيم بها بناء ولا تقمع المكبوت. ففي القرآن آيات . وما أكثرها! . قوامها كبيتِ العنكبوت، لا شيء وراءها ولا تصمد للنقد لكن جلّلها السكوت، فمَن لي بكشف المسكوت عنه فيها. إنّ أوهنَ البيوتِ لَبيت العنكبوت!

7. والآن دونكم هذه الآية فَأعينوني على فهمهما أعانكم

اللَّه: «وأتُوا اليتامى أموالَهم ولا تتبدَّلوا الخبيثَ بالطَّيِّب، ولا تأكلوا أموالَهم إلى أموالِكم. إنَّه كان حُوباً كبيراً. وإنْ خِفتم ألاّ تُقسِطُوا في اليتامى فانْكحُوا ما طابَ لكم من النِّساء مَثنَى وثُلاثَ ورُباع: فإنْ خفتُم ألاّ تَعدلوا فواحدةً، أو ما مَلَكَتْ أَيمَانُكم. ذلك أدْنَى ألاّ تَعولُوا» (4/ 2 . 3).

هذه الآية الأخيرة من الأعاجيب. فقد اجتمع فيها أمران لا يمكن الجمع بينهما إلاّ إذا أمكن الجمع بين الزيت والماء. فإنّي، رغم جميع ما قرأت في كتب التفسير وما فيها من مقبول ومرذول وثرثرة فارغة واغتصاب للمعاني، لا أزال حتّى الآن عاجزاً عن فهم العلاقة بين عدم القسط في اليتامى وبين النكاح.

وأرجح الظن أنَّ بين الشرط «وإنْ خفتم» وجواب الشرط «فانكحوا» في الآية الثانية آيةٌ ثالثة ناقصة أو منسوخة سقطتْ سهواً أو عمداً. ما لم تكن هناك «حكمة بالغة» أو «نكتة بلاغية» عوّدنا عليها المفسِّرون الثرثارون!!! وإلاّ فإنّ جميع ما في جعبتهم من عمليّات إنقاذٍ للآية لا يُغني شيئاً.

فالآية على هذا الوجه وبهذه الصفة لا معنى لها! لقد رفض الجمود أن يستطلع طلْعَ هذه الآية، وأبى إلاّ أن يُبقي عليها . كما نزلتْ . خشيةَ التحريف أو القول في كلام اللَّه ما ليس فيه.

8. وهناك خطأ منهجي كبير كنتُ أربأ بالقرآن أن يقع فيه. فإنّه بعد أن وصف القرآنُ نعيمَ الجنة، وما ينتظر المؤمنين فيها ممّا لا عين رأت ولا أُذُن سمعت، ولا خطر على قلب بشر . وهو نتيجة لمقدّمة نشأة العالم نشأة أخرى . عرَّج على المقدّمة، بدلاً من أن يبدأ بالمقدمة وينتهي بنتيجتها أو . بالأحرى . بإحدى نتائجها! وهذا قَلْبٌ للأشياء ما كان ينبغي للقرآن أن ينزلق فيه:

«إنّ الذين سبقتْ لهم منّا الحسنى، أولئك عنها (جهنم) مُبعَدُون. لا يَسمَعونَ حسيسَها، وهم في ما اشتهتْ أنفسُهم خالِدون. لا يَحْزُنُهُمُ الفزَعُ الأكبرُ، وَتَتَلَقَّاهُمُ الملائكةُ: هذا يومُكُمُ الذي كُنتُم تُوعَدون. يومَ نَطوي السمَاء كطَيِّ السِّجِلِّ للكُتُب، كما بدأنَاهُ أوَّلَ خلْقٍ نُعيدُه، وعداً علينا، إنَّا كنَّا فاعلين» (21/ 101 . 104).

أفما كان من الواجب أن يبدأ بطيِّ السماء ثمّ يذكر ما يترتب على الخلق من جزاء وعقاب؟ هل القلب يا أمراء البيان باب من أبواب البلاغة أو البيان؟ هل قطْع التسلسل بآيةٍ معترضة لا صلة لها بما قبلها ولا بما بعدها، ثمّ استئناف الكلام بعد ذلك، هل هذا القطع نتوءٌ وشذوذٌ ونشازٌ، أم هو من دلائل الإعجاز؟ لا تقولوا على الإعجاز إلاّ الحقّ، إنما الإعجاز إحكام الكلام وتواصله وتماسكه، وعكوفه بعضه على بعض، واعتماد بعضه على بعض، ليخلص إلى ما يروم صاحبه ويبغي. لا انقطاع ولا نتوء ولا شذوذ في الكلام المعجز البليغ.

9. وبعد أن تحدّث القرآن عن أهل الكهف وكيف بعثهم اللّه من مرقدهم، عرّج على عددهم، واختلاف الناس فيه. وبدلاً من أنْ يذكر لنا هذا العدد . اللغز، هذه التحفة النادرة، هذا السر المكنون، ضنّ علينا به، ليجعل ذلك حسرة في قلوبنا:

«سيقولون ثلاثةٌ رابعُهُم كلبُهم، ويقولون خمسةً سادسُهم كلبُهم، رجماً بالغيب، ويقولون سبعةٌ ثامنُهم كلبُهم. قلْ: ربّي أعلم بعدَّتِهم ما يَعلَمُهُم إلاّ قليلٌ. فلا تُمَارِ فيهم إلاَّ مِرَاءً ظاهراً، ولا تستفْتِ فيهم منهم أحداً» (18/ 22).

وحبذا لو استكمل الحلقة الأخيرة من القصّة، ومنّ علينا بمعرفة مدّة إقامته في الكهف هم وكلبّهم الأثير، لكنّه

سبحانَه أثر . لحكمة لا يعلمها إلاّ هو أيضاً . أن يقطع لهفتنا على هذه المعرفة بنتوءٍ شاذٍّ آخَرَ لا أرى، أنا العبد الفقير، وجهاً له وإنْ كان سادتُنا المفسِّرون يرون له ألف وجه ووجه.

ثمّ قال بعد الآية السابقة مباشرة: «ولا تقولَنَّ لشيءٍ إنّي فاعل ذلك غداً! إلاّ أنْ يشاءَ اللهُ. واذكرْ ربَّك إذا نسيتَ، وقل عسى أنْ يَهديَني ربِّي لأَقْرَبَ مِن هذا رَشَداً» (18/ 23 . 24).

ودونكم الآن التحفة المرضية والمفاجأة السارّة بعد هذا الانتظار الطويل: «ولبثُوا في كهفهم ثلاثَ مِئَة سِنينَ وازدادوا تِسعاً» (18/ 25). وليته سبحانه استقرّ على هذا العدد، ولكنّه أبى إلاّ أنْ يظلّ مطوياً في غيب السموات والأرض «قل اللّهُ أعلَمُ بما لبثوا. له غيب السموات والأرض، أَبْصِرْ به وأَسْمِعْ ما لهم من دونه مِن وليٍّ ولا يُشرِكُ في حُكمِه أحداً» (18/ 26).

ومَن يدري؟ فلعلّه سبحانه لا يعلم عددهم هم وكلبهم الميمون، ولا كم لبثوا في الكهف. وعوَّضَنا من ذلك هذه الفتوحات الكلاميّة الغنيّة، والتموّجات الأسلوبية العريضة، والرفرفة اللفظية الحرّة الطليقة! وليتَه لم يأتِ على ذكر هذه القصّة أصلاً وفرعاً. فهي قصة مبتورة لا أدري رأي أصحاب الفن القصصي فيها.

10. ومن أغرب آيات القرآن وأكثرها تشويشاً وارتباكاً وبُعداً عن السلاسة والسلامة والانسجام، وذلك لكثرة ما فيها من جمل اعتراضية لا آخر لها، حتى اشتبكتْ فيها الأطراف وبقايا الآيات بحيث يجد المرء صعوبةً في العثور على بقيّة الآية الأولى . هذا إذا كان لها بقيّة . وتمييزها من بقايا الآيات الأخرى مما أرهق علماء التفسير المساكين، واضطرهم إلى تقدير بقيّة لها، حفظاً لماء الوجه على الأقلّ! أقول من أغرب هذه الآيات وبعدها عن الوحدة

والتماسك، الآية . الكوكتيل الطويلة الثالثة التي تتحدّث عن اليهود:

«فَبِما نَقْضِهِم ميثَاقَهم، وكُفرهم بآياتِ الله، وقتْلِهِمُ الأنبياءَ بغيرِ حقٍّ، وقولِهم قلوبُنا غُلْفٌ، بل طَبَعَ اللّهُ عليها بكفرِهم فلا يُؤمِنون إلاّ قليلاً. وبكفرِهم وقولِهم على مريمَ بُهتاناً عظيماً، وقولِهم إنّاً قتلْنا المسيحَ عيسى ابنَ مريمَ رسولَ الله. وما قتلُوه وما صلبوه ولكن شُبِّهَ لهم، وإنَّ الذين اختلَفوا فيه لَفي شكٍّ منه، ما لهم به من علمٍ إلاّ اتّباعَ الظنّ، وما قتلوه يقيناً، بل رفعه اللّه إليه، وكان اللّه عزيزاً حكيماً. وإنْ مِن أهلِ الكتاب إلاّ لَيُؤمِنَنَّ به قبل موته، ويومَ القيامة يكونُ عليهم شهيداً. فبِظُلْمٍ مِن الذين هادوا حَرّمْنا عليهم طيّباتٍ أُحِلَّتْ لهم، وبصدِّهِم عن سَبيل اللّه كثيراً، وأَخْذِهِمُ الرِّبَا وقد نُهُوا عنه، وأكلهم أموالَ الناس بالباطل، وَأعتَدْنا للكافرين منهم عَذاباً أليماً» (4/ 154 . 161).

هل هذا الخليط المليط من الإعجاز؟ ما بالنا لا نجد أحداً يستشهد بهذه الآيات في حديثه عن جمال القرآن وسبك القرآن وموسيقى آيات القرآن، بل يكتفي بالروائع، أم لعل اختلاط الحابل بالنابل في القرآن من إعجاز القرآن؟!!

11. وأخيراً، دونكم هذه الآيات . الكوكتيل بلا تعليق لتتولوا أنتم التعليق: «وإذ قُلنا لكَ إنّ ربَّكَ أحاطَ بالناسِ، وما جعلْنا الرؤيا التي أَرَيْنَاكَ إلاّ فِتنةً للناسِ، والشجرةَ الملعونةَ في القرآن، وَنُخَوِّفُهُمْ، فما يَزيدُهُم إلاّ طُغياناً كبيراً. وإذ قُلنا للملائكة اسجُدُوا لآدم فَسَجدوا إلاّ إبليسَ، قال أأسجُدُ لمَنْ خلَقتَ طيناً؟» (17/ 60 . 61).

خامساً

خلل في توزيع الموضوعات

هذا وقد نتج عن ظاهرة التفكك البارزة في القرآن فوضى عارمة في توزيع الآيات، وعجز عن تتبع الموضوعات المراد فحصها... فالقرآن ليس كتاباً أكاديمياً ينقسم إلى فصول يتناول كلُّ واحد منها مسألة معيّنة، كما أن أسماء السور لا تدلّ على شيءٍ ذي بال. فسورة البقرة مثلاً لا تتحدّث عن البقرة، وإنما سمّيت كذلك لورود قصة قصيرة عنها وكان يمكن أن تسمى أي اسم آخر. وكذلك سورة النحل والنمل...

ولما لم يكن القرآن منقسماً إلى موضوعات وأبواب وفصول، فإنّك تجد الموضوع الواحد مبعثراً في سور متعددة وآيات متفرقة مقحمة هنا وهناك، ولا أدري سبباً لذلك إلاّ أن يكون هذا من مقتضيات البلاغة والإعجاز. ومَن يدري، فلعل وراء هذه الخريطة العجيبة حكمة عظيمة لا تدركها الأفهام!!!

1. دونكم **سورة النساء**، مثلاً، رقمُها 4، عدد آياتها 176. لم ينلِ النساء منها سوى 32 آية، وما تبقى من السورة مجموعات متفرّقة مفكّكة تدور كل مجموعة منها على مسألة دينية معينة كالصلاة، والزكاة، وبرّ الوالدين، وعلاقات القربى، والميراث، والتوبة، والرضى بقضاء اللهِ، واليهود، والنصارى، وعبودية المسيح للهِ، ونبذ الشرك. وكلام طويل على القتال والجهاد، والهجرة في سبيل الله كان يجب إلحاقه في نظري بسورة التوبة أو سورة الأحزاب، إذ لا موقع له في هذه السورة، بل هو كالنشاز فيها.

والغريب أن القرآن بعد أن تحدث عن النساء في الخمسة وعشرين آية الأولى، قفز فجأةً إلى الحديث عن التوبة وعلاقات القربى من الآية 26 إلى 33، ثم عاد إلى الكلام على النساء من الآية 34 إلى 35.

ثم تحدث في موضوعات أخرى كثيرة لا يجمعها عنوان واحد، ثمّ توقّف عند الآية 126 ليتابع الحديث عن النساء وذلك من الآية 127 حتّى 130.

ثمّ انتقل إلى موضوعات ومسائل أخرى حتى الآية قبل الأخيرة من السورة، أي حتّى الآية 175. ثم تذكر أن في القوس منزعاً أخيراً فادّخره للكلام على موضوع آخر لا شأن له بالنساء بل هو شركة بين النساء والرجال وهو الميراث الذي لم يستكملْه في الآيات السابقة وأعني به الكلالة، التي ترك الحديث عنها للآية الأخيرة من السورة ورقمها 176.

2. وهناك سُوَر أخرى كثيرة في القرآن تتحدّث عن النساء **كسورة الأحزاب** مثلاً، رقمها 33، وعدد آياتها 73. فهذه السورة تبدأ بتوطئة من الآية 1 . 3 ثم من الآية 4 . 6 كلام في الزواج والتبنّي. ثمّ تأتي آية سابعة مقحمة لا صلة لها بما قبلها وما بعدها. ومن الآية 8 إلى 27 حديث عن القتال والجهاد. ثمّ عودة إلى الحديث عن النساء والزواج والتبنّي من الآية 28 حتّى 38. ثم تقفز آية مقحمة هي الآية 39. ومن الآية 40 حتّى 48 كلام جميل على محمّد هو في نظري من الروائع القليلة التي نجدها في القرآن. [والرأي عندي أنّ هذه الآية كان يجب إلحاقها بسورة محمّد. وهي السورة 47 من سور القرآن. لكنّ «حكمة» الله اقتضت أن يكون موقعُها هنا]، ومن الآية 49 إلى 59 عودة إلى الحديث عن النساء والزواج والتبنّي، وعن أزواج النبي مع بعض الإقحامات التي عوّدنا

عليها القرآن. ومن الآية 60 حتى آخر السورة «كوكتيلات» مختلفة لا تخلو منها صفحة واحدة من صفحات القرآن!!

وبمناسبة ورود كلمة (محمّد) في هذه السورة في آية قلت إنها من الروائع، فإن ورود هذه الآية في هذا الموضع قد شوّه روعتها وذهب بالكثير من جمالها. ولعلّ هذا من البلاغة ومن دلائل الإعجاز! وهذا يكاد ينطبق على عدد كبير آخر من روائع القرآن. فكم من آية رائعة خبا ضوؤها لسوءِ اختيار مكانها. لقد ضاعت في ركامٍ كبيرٍ من المواد المتنافرة لا تعرف لها لوناً ولا حجماً ولا شكلاً ولا غاية، كالحسناء في منبت السوء.

وهكذا نرى أن ترتيب آيات القرآن ترتيبٌ بدائي جداً. وقد نجد تعليلاً لهذه الظاهرة الغريبة في الناسخ والمنسوخ من القرآن. قال تعالى: «ما ننسخْ مِن آية أو نُنسِها نأت بخيرٍ منها أو مثلِها» (2/ 106)، فقد ذهب من القرآن قرآن كثير[47]. وقد أثنى السيوطي على النسخ فقال إنّه مما خصّ الله به هذه الأمّة لِحكمٍ منها التيسير.

وينقل السيوطي أمثلة كثيرة على ما أسقطه عثمان عند جمْعه للقرآن على أساس أنّه منسوخ، من ذلك حديث عن عائشة قالت: «كانت سورة الأحزاب تُقرَأ في زمن النبي مئتَي آية»[48]، بينما هي الآن 73 آية فقط. كما ذكر السيوطي أيضاً أنّ سورةً بكاملها نزلت ثمّ رُفعت[49].

هذا النسخ شوّه القرآن وتركّه مِزقاً ليس من الممكن رتقها والتأليف بينها. وهذه المِزق هي القرآن الذي بين أيدينا الآن.

---

(47) جلال الدين السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، 2/ 25.

(48) **المرجع السابق** نفسه.

(49) **المرجع السابق** نفسه.

فالتشويش الذي نراه في القرآن، وما فيه من تفكّك فاضحٍ ربما كانت نتيجةً حتميّةً لتعدّد السور في السورة الواحدة، أو بقايا سوَرٍ سقطتْ وبقيت منها هذه المِزق. أو لعلّها «مسودّات» لآياتٍ كان يجب تنقيحُها وإعادةُ النظر فيها، ولكن موت النبي المفاجئ متأثراً بالسمِّ الذي دسّتْه المرأةُ اليهوديّة في طعامه لم يمكِّنْه من إجراء التنقيح المطلوب.

والرأي عندي، أنّ هذا التشويش في القرآن يجب مواجهته بخطّة جريئة صارمة تعيد ترتيب الآيات المبعثرةِ التي لا رباطَ بينها، والمتناثرة هنا وهناك في مئات الصفحات التي يضمّها المصحف بين دفتيْه. يجب المبادرة إلى لمِّ شعث هذه الآيات المترامية الأطراف وجمْع شملها في نسق عقلاني حديث، من الترتيب والتنظيم والتبويب، يتجاوب مع مطالب العصر ويشيع الوحدة بين هذا الكمِّ الهائل من الشعث المتنافر ويزيل الجفاء بين أجزائه التي لا يُعرف لها أوّلٌ من آخِر، ولا رأسٌ من قَدَم.

إنّ هذا الوضع يسيء إلى القرآن وإلى الذين يؤمنون بالقرآن إساءةً كبيرةً، وبخاصّة إلى الجيل الطالع الذي لا يقبل إلاّ أن يرى القرآن بحلّة قشيبة وأن يتعامل معه بعقلانيّة وانفتاح.

فطوال أربعة عشر قرناً لم يرتفع صوت واحد لتدارك هذا الخلل، كما لم يرتفع في الهند صوتٌ واحد يحتجّ على الاغتسال في النهر المقدس في المناسبات الدينية أو التماساً للشفاء، وهو نهرٌ قذرٌ يزيد المرضى مرضاً. كذلك لم يرتفع صوت واحد في الهند يحتجّ على إطلاق العنان للبقر تصول وتجول على هواها، وتتهادى في الشوارع والساحات العامّة، وتجوس بين البيوت والأحياء والحوانيت من غير أن يمسَّها أحدٌ بسوء، في بلد جائعٍ يرى ثروته الحيوانية تُهدر أمامه فلا يُحرِّك ساكناً. هذا رغم أَنَّ تمثيلَنا بالهنود غيرُ دقيق.

هل هذا التشويش في القرآن من لدن حكيم عليم؟ يا قوم أعملوا عقولكم ولا تتخلّفوا عن الركب، هل هذا من دلائل الإعجاز؟ أليس منكم رجل رشيد؟

فما أحوجنا إلى قرآنٍ جديد ينسف القرآنَ القديم ويقتلعه من الجذور! أجل إنّنا بحاجة إلى قرآنٍ جديد يساير العصر وحركة التاريخ والتطور بعد أن أعلن نيتشه موتَ الإله القديم واندحار مُلكه وملكوته. بل دع عنك القرآن القديم، فلا خير في ترقيعِ القديم إذا أمكن إيجادُ الجديد.

لقد كان القرآن اختراقاً فأصبح احتراقاً. لقد كان ثورةَ الثورات في عصرٍ انعدمت فيه الثورات. لقد كان القرآن في عصر القرآن من أهم عوامل التقدم، وأمّا اليوم فهو معرقل لكلِّ تقدم. ولا أدلُّ على ذلك من تلك القفزة النوعية المذهلة الرائعة التي نقلت أجدادنَا العرب من هامش التاريخ إلى سدّة التاريخ، وجعلتْ منهم صنّاعاً للتاريخ وسادةً من سادات التاريخ. فلولا القرآن لظلّوا يتسكّعون في وضعهم الآسن إلى يوم يُبعثون. فكأنما القرآن جاءهم على موعد مع الأحداث فقذف بهم في خضم الأحداث، واخترقَ بهم الآفاق.

نعم. لقد كان القرآن ثورةً، ولكنّه ـ ككلِّ ثورة ـ ثورة إلى أجَل، ثمّ يأخذ طريقَه إلى المتحف. لقد أصبحت الثورة ـ ككلِّ ثورة أيضاً ـ حركة مضادة للثورة. لقد تبدّلت الثورة غير الثورة، ولكنّنا أبينا إلاّ أن نتصوّر أنّ الثورة لا تزال هي الثورة. نحن الآن مع قرآننا في ظلمات المتحف نجترُّ ذكريات حياتنا عندما كنّا خارج المتحف. وكلّما رفعنا رؤوسَنا وحاولنا الخروج من المتحف أُرْكسْنا فيه. فمنذ قرون ونحن نعيش في عصر احتضار الثورة، ولن نرى النور إلاّ بالإيمان بالنور ومعانقة النور، فذلك وحدة كفيل برؤية الأشياء على حقيقتها بلا زيف ولا تضليل.

لا يصلُح آخر هذه الأمة بما صلُح به أوّلها، فالزمان غير الزمان، والقوم غير القوم، والحاجات والتطلعات غير الحاجات والتطلعات، ولكن أبى المتخلِّفون إلاّ العيش مع الأشباح ومغازلة الأشباح، وعدم التصديق بأنَّ الأشباحَ أشباحٌ. هذه براعة الأشباح عند من يؤمنون بالأشباح!

سادساً

الغموض في القرآن

إنّ وضوح الألفاظ من وضوح الرؤية، والرؤية النقيّة يصنعها الفكر النقي واللّفظ النقي، أمّا اللّفظ الغامض فلا يأتي إلاّ بالمعنى الغامض. كثيرة في القرآن هي الآيات التي صُنعت من مادّة الغموض، فلا تنقاد للعقل ولا تبين بالفهم. ألغازٌ تختال أمامك فما تدري لها وجهاً، وكلماتٌ تستحيل إلى طلاسم غير مدركة كأنَّ العقل منها في عقال. وهذا مما فتح الباب واسعاً للقَصَص الشعبي والخيال الأسطوري والإسرائيليّات وعلوم الأسرار، وما هبّ ودبّ من المعاني الغريبة، والصور العجيبة، وكان كلُّ غواص يَخرج بدُرٍّ ثمين!!

1. وأوّل هذه الألغاز هي **الحروف المقطّعة** في أوائل بعض السور: ألم (البقرة، وآل عمران، والعنكبوت، والروم ولقمان، والسجدة)، وألمص (الأعراف)، وألر (يونس، وهود، ويوسف، وإبراهيم، والحجر)، وألمر (الرعد)، وكهيعص (مريم)، وطه (طه)، وطسم (الشعراء، والقصَص)، وطس (النمل)، ويس (يس)، وص (ص)، وحم عسق (الشورى)، وق (ق)، وحم (غافر، وفُصِّلت، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف)، ون (القلم).

ما هذه الألغاز؟ هل هذا من القرآن الذي فُصِّلت آياتُه بلسانٍ عربيٍّ مبين؟ أين الإبانة يا قوم؟ هل هي في الإلغاز؟ هل استحالت البلاغة في القرآن إلى مجموعة من الألفاظ التي لا تعني لنا شيئاً، أم لعلّ الأمر تشابه عليه سبحانه، فحَسبَنَا مثله نحيط بكلِّ

شيءٍ علماً حتّى كنّا إيّاه وكان إيّانا؟ هل الإعجاز هو الإلغاز؟ إنَّ أحد أهم شروط البلاغة مخاطبة الناس بما يفهمون، أم لعلَّ الأمر على خلاف ذلك عند مَن أوْحى بذلك؟ إيتوني بعلم إن كنتم تعلمون؟

2. ولا يقف الأمر هنا عند هذا الحدّ. فإذا كان الغموض هنا يلفّ الحروف، فسنرى بعد قليل أنه أيضاً يلفّ الآيات «البينات». لقد حاولتُ أنْ أقرأ بعض الآيات، والقراءة المخلصة ممتعة ولكنها مرهقة أيضاً. تتوالى الكلمات لا يتبع بعضها بعضاً. بل يقفز بعضها على بعض، ويصطدم بعضها ببعض. تتقارب وتتباعد، تتشابه وتتدافع وتتعارض، تقف ثم تستأنف.

إنقطع السياق ثمّ انظر، ها هو يعود فجأة السياق! أعاجيب من فن القول وصناعة الألفاظ ترتسم أمامك فيما يشبه الوشي المنمنم الذي تسيطر عليه وحدة غامضة. لقد استطاعت الكلمة أن تصنع من الحروف شيئاً أقرب إلى الطيف، والطيف لا حدود واضحة له. فالصنعة البيانيّة قادرة على أن تحيل السياق إلى تناغم غامض ليس له مدلولٌ دقيق، ولكنّه يستطيع أن يخرجك من الحياة وأثقالها وأهوالها، وينقلك إلى جنّة عدْن.

هذه طاقة الكلمات. فالكلمات مخاتلة مراوغة حمَّالة أوجه. إنهاّ تُروِّع بتداخلها وتفاعلها وتناوشها... إنّها فيض فيّاض، إمّا أن تغرق فيه، وإمّا أن تسبح سباحةَ الماهر الذي يبحث عن نفسه بمعزل عن سلطان الكلمات.

وهذا في نظري ما يفسّر فعل القرآن العجيب في عقول العامّة وأرواحهم، بل في عقول الخاصة وخاصة الخاصة، من علماء وأدباء وشعراء وفلاسفة ومن على منوالهم ممن لا يُجيدون السباحة، بل إنّ هؤلاء يطلعون علينا كلَّ يوم بفتوحات «علميّة»

سبق إليها القرآن منذ أربعة عشر قرناً على لسان رجل أمّيٍ لا يقرأ ولا يكتب، نشأ في صحراء نائية بعيدة عن مراكز العلم والحضارة. وهذا ما يستهوي العامة ويزيدهم إيماناً بإعجاز القرآن.

3. والغريب أنّ القرآن كثيراً ما يندفع في تفاصيل لا موجب لها بل لا معنى لها، ويُقصِّر في أخرى كان من الواجب تبيانها وعدم التلكؤ فيها. خذ هذه الآية مثلاً: «واذكُرْ في الكتاب موسى، إنّه كانَ مُخلَصاً وكانَ رَسولاً نبيّاً. وناديناه من جانب الطورِ **الأيمَنِ** وقرَّبْناه نجيَّاً» (19/ 51 . 52).

أنا لا أفهم أيّ معنى لكلمة **«أيمن»** في شعابٍ واسعة لا معالم لها وكلُّ شيء فيها يصلح أن يكون على يمين شيء آخر أو على يساره. فالجهات من المضاف، أي ليس لها معنى مطلق بل هي نسبية يتحدد معناها بالقياس إلى غيرها.

4. كذلك نرى القرآن عندما يعرض لقصة أهل الكهف وكلبهم الأمين، نراه يأتي على تفاصيل بلغت مبلغ السخف، ومع ذلك لا يستقرّ على عدد معيّن لهم، فيقول، كشأننا نحن البشر عندما نعجز عن تقرير معنى ما: «يقولون سبعة، ويقولون ثمانية» مع أنّ الله علاّم الغيوب!

5. كذلك لا يفوتني أنْ أذكر هنا أيضاً هذه الآيات . الألغاز حكايةً عن موسى بعد أن نزل من الطور ووجد قومَه يعبدون العجل، فاستطار غضباً وأخذ بخناق أخيه المسكين هرون:

«فرجع موسى إلى قومِه غضبانَ أسِفاً. قال يا قوم! ألم يعِدْكم ربُّكم وعداً حَسناً، أفطالَ عليكم العهد؟ أم أردتم أن يَحِلَّ عليكم غضبٌ من ربِّكم فأخلفْتم موعدي؟ قالوا: ما أخلفنا موعدَك بِمَلْكنا، ولكنَّا حُمِّلْنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها،

فكذلك أَلقَى السامريُّ، فَأخرَجَ لهم عِجلاً جَسداً له خُوَارٌ، فقالوا: هذا إلهُكم وإلهُ موسى فنسي. أفلا يَرون ألاَّ يَرجِعُ إليهم قولاً ولا يملِكُ لهم ضَرّاً ولا نفْعاً؟ ولقد قال لهم هرونُ مِن قَبلُ: يا قومِ! إنما فُتنتُم به، وإن ربَّكم الرحمنُ، فاتَّبعوني وأَطيعوا أمري. قالوا: لن نبرحَ عليه عاكِفِينَ حتّى يَرجِع إلينا موسى. قال: يا هرون! ما منعَك إذ رأيتَهم ضَلُّوا ألاّ تَتَّبِعَنِي، أَفَعَصَيتَ أمري؟ قال: يا ابنَ أمَّ: لا تأخذْ بِلحيتي ولا برأسي، إنّي خَشِيتُ أن تَقول فرّقتَ بين بني إسرائيل وَلم تَرقُبْ قولي. قال: فما خَطبُكَ يا سامريُّ؟ قال: بَصُرْتُ بما لم يَبصُروا به فقبضْتُ قبضةً مِن أَثَرِ الرسولِ فنبذْتُها، وكذلك سَوَّلَتْ لي نفسِي» (20/ 86 . 96).

مجموعة من الألغاز في هذه الآيات، كالكلمات المتقاطعة اضطرّت المفسِّرين إلى أن يُفرّجوا عن كلِّ مخزونهم الأسطوري ويثرثروا على هواهم ليفكّوا طلاسمها ويزيلوا الغموض الذي يحيط بها. فمن المعروف في علم البلاغة أنّ الإيجاز في غير محلِّه إخلال بالمعنى، كما أنّ التطويل يُفسد المعنى.

فما المقصود بقوله تعالى: «ولكنَّا حُمِّلْنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها» (20/ 87). أينَ قذفوها؟ يقول المفسِّرون إنّهم قذفوها في النار. كيف عرفوا ذلك لولا أساطير التوراة التي يقول القرآن إنّها محرّفة؟ فما ضرَّ لو ذكر كلمة (نار)؟ لِمَ يُلجئنا إلى كتابٍ «محرَّف» لنفهم غير المحرّف؟

ولكنّ اللغز الكبير يتجلّى في الآية الأخيرة التي بلغ فيها الخلل أقصاه: «بَصُرْتُ بما لم يَبصُروا به فقبضْتُ قبضةً مِن أَثَرِ الرسولِ فنبذْتُها» (20/ 96). ما هي هذه القبضة؟ وعن أيِّ رسولَ يتحدّث؟ ما أخصبها من تربة لإنعاش الإسرائيليّات وحشد الأساطير طبقات فوق الأساطير، وبالتالي أسطرة المؤمنين بقرآن عربي «غير ذي عِوج لعلهم يتّقون» (39/ 28).

6. وإذا أردتم مزيداً من الألغاز في آيات القرآن فدونكم هذه الآية: «ولقد فتنَّا سليمان وألقينا على كرسيِّه جسداً ثمَّ أناب» (ص 34).

لا شيء كالأسطورة يضفي المعنى على هذه الآية. مرحى مرحى بهذه الآيات التي لا يضاهيها شيء في تغذية عقول المسلمين بالأسطورة وشل أذهانهم، وصرفهم عن العالم الذي يدور من حولهم ليسبحوا في عالم الغيب بعيداً عن عالم الشهادة!! أتعرفون ما هو هذا الجسد الذي ألقاه الله على كرسي سليمان؟ إنه جنِّيٌّ يبدو أنّه عربيٌّ لأنّ اسمه «صخر»، جلس على كرسي سليمان الذي تزوج بامرأة هَويَها كانت تعبد الصنم، وكان مُلكُه في خاتمه المشهور فنزعه مرَّة عند إرادة الخلاء ووضعه عند امرأته، فجاءها ذلك الجنيُّ في صورة سليمان وأخذِه منها وجلسَ على كرسي هذا الأخير. فخرج سليمان في غير هيئته الأصليّة التي سلبه الجنِّيُّ إيّاها ورأى الجنِّيُّ على كرسيه. فقال للناس أنا سليمان فأنكروه، ثمّ أنابَ إلى الله ورجع إلى ملكه بعد أيام!!

7. وكأنّ هذا الكمّ الكبير من الغموض الذي يلفّ القرآن ويضع فكرة الإعجاز فيه على كفّ عفريت، لا يكفي، فأضاف إليه عبثاً جديداً. فممّا يُثقل القرآن بالغموض ويزيده غموضاً إلى غموض، هو كثرة استعماله للألفاظ المتضادة، أي الألفاظ التي تفيد معنَيين متضادَّين في وقت واحد، حتَّى في المسائل العقائدية وآيات الأحكام، وهذا كان من الواجب أن يكون من المحرَّمات في كتاب لا يُؤتى بمثله.

فالفعل (غَبَرَ) مثلاً له معنيان متضادان: مضى وبقي. فقد وردت هذه الكلمة سبع مرات في سبع آيات تتحدّث عن امرأة لوط: «ولما جاءت رُسلُنا إبراهيمَ بالبشرى قالوا إنّا مهلكو أهل هذه

القرية، إنّ أهلها كانوا ظالمين. قال إنّ فيها لوطاً، قالوا نحن أعلم بمن فيها، لنُنَجِّيَنَّهُ وأهله، إلاّ امرأته كانت من الغابرين» (29/ 31 . 32)، وهكذا فقد أخرج ملائكة العذاب لوطاً وأهله من القرية وأبقوا على امرأته فكانت من الغابرين أي الباقين في القرية لتنال حظَّها من العذاب.

8. وقد يكون استعمال هذا اللفظ الذي يفيد معنيين متضادين غير ذي أهمية هنا لأنه لا يتعلق بقضية إيمانيّة، لكن الأمر غير ذلك في كلمة أخرى لها معنيان متضادان أيضاً غاية التضاد وتمسّ هذه المرة قضية أساسية من قضايا الإيمان، وأعني بها **(ظَنّ)**، وهذا الفعل يفيد الشكَّ ويفيد اليقين، ومع ذلك فإنّ القرآن لم يجد حرجاً في استعمالها: «وَاستعِينوا بالصبر والصلاة، وإنّها لَكَبيرةٌ إلاّ على الخاشعين الذين **يَظُنّونَ** أنّهم مُلاقو ربِّهم وأنّهم إليه رَاجعون» (2/ 45 . 46).

فهل يصح استعمال الفعل **(ظنّ)** في هذا الموضع. إذْ قد يكون معناه ههنا أنّه ليس من الضروري أن يبلغ إيمان المرء باليوم الآخر مبلغ اليقين، بل يكتفي الله من العبد في هذه الحالة الظنّ وهو أضعف الإيمان. فما المانع أن يكون معنى الآية كذلك والنصّ لا يمنع ذلك؟

9. وهناك لفظ آخر في القرآن له معنيان متضادان وهو يتعلّق بحكمٍ شرعيٍّ أساسيٍّ في الدين وأعني به الكلمة **(قُرْء)** فهي من المضاد، إذ معناها حيض المرأة وطُهرها، أي خروجها من الحيض في وقت واحد. فإذا كان أمرها كذلك، فكيف عسانا نفسّر قوله تعالى وهو أصدق القائلين: «والمطلَّقاتُ يتَرَّبصن بأنفسهنَّ ثلاثة قُرُوء» (2/ 228)، فأيّ المضادَّين هو المقصود هنا؟ المسألة فيها قولان!

10. ومن هذا القبيل أيضاً كلمة **(إحصان)** ومشتقّاتها. فهي تعني العفّة، أي عدم الزواج: «ومريم ابنة عمران التي أَحْصَنَتْ فرْجَها» (66/ 12)، وتعني الزواج: «فإذا أُحْصِنَّ» (4/ 25)؛ كما تعني أيضاً العتق والحريّة: «فإذا أُحْصِنَّ فإن أتينَ بفاحشة فعليهنَّ نصف ما على المحصنات» (4/ 25)، فقد استعملت هذه الكلمة هنا بمعنيين مختلفين في آية واحدة. ومَن يدري، فلعلّ في ذلك قمّة الإعجاز!

قولوا لي بربكم: مَن المسؤول عن هذا الغموض؟ ما حيلة المفسِّرين أمام هذه الآيات . الألغاز؟ تُرى هل كان في وسعهم أن يفعلوا غير ما فعلوا؟ مَن ألجأهم إلى ذلك؟ هل لو كان القرآن واضحاً، أكان بإمكان الغموض أن يكرَّس هكذا في كتب التفاسير؟ أم لعلّ الإلغاز باب من أبواب البلاغة ودليل من دلائل الإعجاز؟

لو كان القرآن واضحاً حقّاً، لو حدَّث الناس بما يفهمون لا بما لا يفهمون، لو كان أكثرَ رزانةً وعقلانيّة، لأورث المفسِّرين عقليّة رزينة صلبة يتعاملون بها مع القرآن بجدّيّة أكبر، ولما غرق المسلمون في الغيبيّة الأسطورية التي لم تفارقهم يوماً، بل ظلَّت تنمو وتتعاظم كلما ابتعدنا عن لحظة الإلهام الأولى، حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه من جهلٍ وتخلّفٍ لا أمل في الخروج منهما في المستقبل المنظور على الأقل!

سابعاً

غريب القرآن

في إعجاز القرآن باب غريب أسهم كثيراً في غموض القرآن، وهو إلى التعجيز أقرب منه إلى الإعجاز، ويُسمَّى هذا الباب (غريب القرآن).

والمراد بـ (غريب القرآن) مفردات من القرآن وألفاظ وتعابير وتراكيب غريبة جاءت فيه على اصطلاح لم توضع له في العربيّة قبله. فهي في غير المعنى الذي يفيد في وضعها الأصلي الأوّل، فكانت كما يقول الرافعي «مستغربة في التأويل، بحيث لا يتساوى في العلم بها أهلُها وسائرُ الناس. وجملة ما عدّوه من ذلك في القرآن كلِّه سبعمائة لفظة أو تزيد قليلاً»[50]. كما يقول السيوطي في توكيده لغرابة هذه الألفاظ بأنّ العرب وهم «أصحاب اللغة الفصحى ومَنْ نزل القرآن عليهم وبلغتهم توقّفوا في ألفاظ لم يعرفوا معناها»[51].

وغريب القرآن يقع عادة في ألفاظه الغريبة، وفي ألفاظه من غير لغة قريش، وفي ألفاظه من غير لغة العرب أصلاً؛ كذلك يقع غريب القرآن في أشياء أخرى ذكرها السيوطي لا يتّسع لها المقام هنا، وهي في استعمال الضمائر، وفي الوجوه والنظائر، والتراكيب غير المعهودة في كلام العرب.

---

(50) مصطفى صادق الرافعي، **إعجاز القرآن**، ص 34.

(51) جلال الدين السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، 1/ 119.

ولمّا كانت الألفاظ الغريبة في القرآن تُعَدُّ بالمئات فإنّي سأكتفي هنا بذكر بعض الأمثلة فقط.

فقد أخرج أبو عبيدة عن إبراهيم التيمي أنّ أبا بكر الصّديق سُئل عن قوله تعالى: «وفَاكِهَةً وَأَبًّا» (80/ 31)، فقال: «أيُّ سَماءٍ تُظلُّني، وأيُّ أرضٍ تُقلُّني، إنْ قلتُ في كتابِ اللَّهِ ما لا أعلم؟»[52].

وأخرج الغريابي عن ابن عباس قال: « كلُّ القرآن أَعلَمُه إلاَّ أربعاً: غسْلِين (60/ 36)، وحَنَاناً (19/ 13)، وأَوَّاهٌ (9/ 114)، والرقيم (18/ 9)[53].

ومِن الألفاظ الغريبة أيضاً: (قلوبنا غُلْف) و(ما ننسخ) و(مثابة) و(جِنَفاً) و(بهتاناً) (غير متجانف) و(مدراراً) و(يضاهئون) و(صنوان) و(جُذاذاً) و(كَطيِّ السجلِّ للكتب) و(ثاني عِطْفه) و(هيهات هيهات) و(الأجداث) و(زخرفاً) و(برزخ) و(رواكد) و(يوبقهن) و(ذي المعارج) و(سبلاً) و(جَدُّ ربنا) و(فلا يخاف بخْساً) و(ولا رهقاً) و(كثيباً مهيلا) و(وبيلا) و(شواظ) و(يطمثهن) و(نضّاختان) و(رفرفٍ خضر) و(مترفين) و(فَرَوْح ورَيحان) و(نبرأها) و(لا تجعلنا فتنة للذين كفروا) و(انفقوا) و(ومن يتّق اللَّه يجعل له مخرجاً) و(عتت) و(فسحقاً) و(لو تُدهن فيدهنون) و(زنيم) و(يوم يُكشف عن ساق) و(مكظوم) و(مذموم) و(ليزلقونك) و(طغى الماء) و(يوم عسير) و(أمشاج) و(مستطيراً) و(قَمْطريراً) و(رواسي) و(ألفافاً) و(جزاء وفاقاً) و(فُراتاً) و(المعصرات) و(كواعب) و(الرادفة) و(سَفَرة) و(قَضْباً) و(عسعس) و(عِلّيِّين) و(ضريع) و(حسير) و(يتمطّى) و(أتراباً) و(مرساها) و(ممنون) و(أرائك) و(معاذيره)[54]...

---

(52) **المرجع السابق** نفسه، 1/ 119.

(53) **المرجع السابق** نفسه، 1/ 119.

(54) **المرجع السابق** نفسه، 1/ 119 ـ 142.

هذه كلها ألفاظ عربيّة وردت في القرآن تختلط فيها لغة قريش بلغات قبائل عربية أخرى، لكن هناك أيضاً ألفاظ غريبة غير عربية تزيد على المئة وردت في القرآن مثل: (سندس) و(إستبرق) و(أباريق) و(أبْ) و(الأرائك) و(الأسباط) و(أكواب) و(الأوّاه) و(ربّانيّون) و(الرَّقيم) و(زنجبيل) و(سجِّيل) و(سرادق) و(غسّاق) و(القسطاس) و(مشكاة) و(صراط)...

***

والآن هل هذه الألفاظ الغريبة، عربية كانت أو أعجمية، من دلائل الإعجاز في القرآن؟ كيف يصحّ للقرآن أن يتحدّاهم بالإتيان بمثله وهو بلغات لا يعرفونها؟ هل هذا إعجاز أم تعجيز؟

أين الوضوح في هذا، بل، باصطلاح القرآن، أين الإبانة في هذا: «ألر. تلكَ آيات الكتاب المبين» (12/ 1)؟ كيف يجوز وصف القرآن بالمبين وهو غير مبين؟ أم عدم الإبانة هي إبانة شئنا أو أبينا على طريقة «صدقَ الله وكذب بطن أخيك»؟

والغريب أنّ المسلمين الأوّلين، بدلاً من أن تساورهم الشكوك في هذه الغرائب، حملوا المبخرة في كلِّ مكان وصلوا إليه، وأبلَوا في الدفاع عنها أحسن بلاء. هنا يبلغ الترقيع و«اللفلفة» أقصاهما وعلى غير شعور منهم، وهم يظنون، بطبيعة الحال، أنَّهم يُحسنون صنعاً. ولم يقتصر الأمر عند بعضهم على حدِّ الدفاع ونثرِ البخور على كلِّ آية غريبة، بل لقد جعلوا هذه الغرابة من دلائل الإعجاز!

ومن أعجب هذا الإعجاز ما أخرجه ابن جرير بسندٍ صحيح عن أبي ميسرة التابعي الجليل قال: «في القرآن من كلِّ لسان»[55].

---

(55) **المرجع السابق** نفسه، 1/ 142.

ورُوي مثله عن سعيد بن جُبير ووهب بن منبّه: «فهذه إشارة إلى حكمة وقوع هذه الألفاظ في القرآن أنّه حوى علوم الأوّلين والآخرين، ونبأ كلِّ شيء. فلا بدّ أنْ تقع فيه الإشارة إلى أنواع اللغات والألسن ليُتمَّ إحاطتَه بكل شيء. فاختير له من كلّ لغة أعذبُها وأخفُّها وأكثرُها استعمالاً للعرب»[56].

ويضيف السيوطي أنّه رأى ابنَ النقيب صرح بذلك فقال: «مِن خصائص القرآن على سائر كتب اللّهِ تعالى المُنزلة أنّها نزلت بلغة القوم الذين أنزلت عليهم، لم ينزل فيها شيء بلغة غيرهم. والقرآن احتوى على جميع لغات العرب، وأُنزل فيه بلغات غيرهم من الروم والفرس والحبشة شيء كثير»[57].

ويؤكّد السيوطي ذلك بأنَّ «النبي (ص) مرسَلٌ إلى كلِّ أمّة، وقد قال تعالى: «وما أرسلنا من رسولٍ إلاّ بلسانِ قومِه» (14/ 4). فلا بدّ وأن يكون في الكتاب المبعوث به من لسان كلِّ قوم»[58].

أرأيتَ إلى هذا التهريج، إلى هذا المنطق الذي هو لَعمري أغرب من غريب القرآن الدخيل؟ أرأيتَ إلى هذا التعجيز الظالم لأهل اللسان العربي المبين بكلام دخيل لا يعرفونه، من كل لسان، وإذا عرفوه، وإذا عرفوا معناه لا يتذوّقونه لأنّه ليس من أصول لغتهم البيانية.

---

(56) **المرجع السابق** نفسه.

(57) **المرجع السابق** نفسه، 1/ 142 . 143.

(58) **المرجع السابق** نفسه، 1/ 143.

ثامناً

ركاكة القرآن

وثالثة الأثافي في ضعف آيات القرآن هي الركاكة. نعم الركاكة، وقد تجدُ صعوبة كبيرة في تصديق ذلك، وتنسُبني إلى التحامل على كتاب الله، فالقرآن هو عنوان البلاغة والفصاحة والبيان، حتى ليؤمن الملايين بعد الملايين أنه ليس من جنس كلام بني البشر، فكيف يكون ركيكاً ولا يلحظ ذلك أعداء القرآن وهم يتربّصون به الدوائر؟ هذا غير معقول. هذا غير معقول!

إنّ هؤلاء الأعداء إمّا أنّهم ماتوا في الحروب التي اندلعت بين المسلمين والمشركين فضاعت اعتراضاتهم أو ضُيِّعَت في ما ضاع أو ضُيِّع، وحيل بينها وبين الوصول إلينا، وإمّا أنّهم دخلوا في الإسلام في مَن دخل واندمجوا في البيئة الإيمانيّة العامة بجهازك الدفاعي الضخم وماكيناتها التبريرية، وانتحلوا شواهد من الشعر الجاهلي يستشهدون بها على صحّة النص الركيك، بل يشيدون بما ينطوي عليه من نُكت بلاغيّة وحِكَم عظيمة لا تدركها أفهامنا.

إنّ الإيمان وحده قادر على صنع الأعاجيب، فكيف إذا أعانه على مُرامه عقلٌ تمرّس بالبحث والنظر. ثمّ دارت الألسن بهذا الركيك ودارت حتى صقله الاستعمال اليومي وكرّسه التكرار، وأزال ما فيه من عوج، وزيَّن ما يبدو عليه من عوار، ومن هنا دخل في الموروث والمألوف والآثار، وهكذا حصل قسراً عنّي وعنك بل قسراً عن دهاقنة علماء اللغة وأمراء البيان وأصحاب القرار، على حق الدخول إلى عرين اللسان العربي وقدْس أقداسه فلا خِيَرَةَ لأحدٍ

ولا اختيار، وأصبح جزءاً من الذائقة اللغوية، يُحتَجّ به ويقاس عليه، فاعتبروا يا أولي الأبصار**!!**

1. قال تعالى في بيان فضله على الناس وجحود الناس لهذا الفضل: «هو الذي يُسيِّركم في البرِّ والبحر، حتّى إذا كنتم في الفُلْك **وَجَرَيْنَ بِهِمْ** بريح طيّبة **وفرحوا** بها، جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كلِّ مكان، وظنّوا أنّهم أُحِيطَ بهم، دَعَوا اللّه مخلِصين له الدين، لئن أنْجَيتَنا لنكونَنَّ من الشاكرين. فلمّا أنجاهم إذا هم يَبغونَ في الأرض بغيرِ الحقِّ» (10/ 22 . 23).

إنَّ نقطة الضعف بل والركاكة في الآية السابقة هي سوء استعمال الضمائر إساءةً من شأنها إحداث اختلالٍ في السياق. إنّ سوء استعمال الضمائر إذا صدر عنّي أو عنك نسبونا إلى الجهل، واتّهمونا بنقص معلوماتنا اللغوية، ونصحونا بدراسة علم الصرف والنحو من جديد. وأمّا إذا صدر ذلك عن القرآن فهو من البلاغة، بل أفردوا له باباً من أبواب البلاغة.

ويهمنا من هذه الأبواب هنا باب الالتفات**!!** ودونكم الآية السابقة مرّة أخرى لتروا موضع الخلل فيها، هذا ما لم تكونوا قد تنبّهتم له من تلقائكم، لأنّه اختلال صارخ لا يمكن أن يمرّ عليه السامع من غير أن يحسَّ بنشازٍ في أذنيه: «هو الذي يُسيّركم في البرّ والبحر، حتّى إذا كنتم في الفُلك **وَجَرَيْنَ بِهِم**» بدلاً من «وَجَرَيْنَ بِكُم»، «وَفَرِحْتُم» بدلاً من «وَفَرِحُوا»، صدِّقوا أو لا تصدِّقوا أنّ هذا النشاز من بلاغة القرآن. فلولا الأعرجان ما ظهرت بلاغة القرآن. إنّه ليس نشازاً إلاّ في عقولنا المعوجة، وإنما هو التفات، والالتفات باب من أبواب البلاغة اختُرِع ليكون مخرجاً لهذه الآية وأمثالها.

2. وهناك باب آخر يسمّونه (أسلوب الحكيم). فقد سُئل النبي عن **الأهِلّة**، أي اختلاف أوجه القمر من يوم إلى آخر. وبدلاً من

أن يفسِّر لهم ذلك على قدر عقولهم . ولو فعل لكان ذلك منه إعجازاً حقيقيّاً . فقد تهرّب من الجواب الذي كانوا يتشوّفون إلى سماعه مِن الذي خلق الأهِلّة ليتلقَّوا منه جواباً مخيّباً للآمال يعرفه الصغير والكبير: «يَسألونَكَ عن **الأَهِلَّة**. قلْ: هي مَواقيتٌ للناس والحجِّ» (2/ 189)[59].

يا لَلجواب المذهل الخارق! لقد خلق الله الأهِلّة للناس ليعلموا بها أوقات زرعهم ومتاجرهم وعدّة نسائهم وصيامهم وإفطارهم وحجّهم إلى بيته الحرام، كما يقول المفسِّرون! حسناً. فإذا صح ذلك، فماذا عسانا يا تُرى نُفسِّر اختلاف أوجه القمر . بل الأقمار . في المرّيخ والمشتري وزُحَل وغيرها من الكواكب الأخرى؟ هل هناك بشرٌ مثلنا في هذه الكواكب يحجّون إلى الكعبة المشرَّفة ولهم اهتمامات ومصالح كما لنا، ونساء كنسائنا يحضن ويطهُرن من الحيض استعداداً للصلاة والصوم؟

والحق أنّ أسوأ أنواع التوقيت هو التوقيت القمري الذي ابتُلينا به والذي أحدثَ فينا شرخاً لا أملَ في رأبه. فضلاً عن أنّ هذا الجواب فيه توكيد صارخ لمركزيّة الأرض في العالم: وشمس واحدة وقمر واحد، وعبادات ومناسك واحدة. وهكذا صرَفَهم القرآن عمّا يطلبون إلى ما لم يخطر ببالهم أن يطلبوا، وعن معرفة ما لا يعرفون إلى ما يعرفون.

لقد صُدِم علماء البلاغة حقاً بهذا الجواب ولم يُصدموا. وكيف يُصدمون وهو صادر من لدن حكيم عليم؟ لقد رجعوا إلى الحظيرة، واشتروا البلاهة والغباء بوجوب النقد لإحقاق الحقّ

---

(59) علماً أنّ هذه الآية لا تدخل في باب الركيك من الكلام؛ ولكن تخريجها هذا التخريج فعل على السفسطة واللفلفة والترقيع.

ومعرفة وجه الصواب. لقد صرفهم الله عن الجواب، باسمِ تأديبهم وتوجيههم وتعليمهم كيف يكون السؤال. وفضلاً عما في هذا الجواب من ازدراء بالسائل وتقريع له، فهو في نظري جواب لا معنى له إلاّ وجوب الكفِّ عن السؤال. وكأنما السؤال جريمة لا تُغتفر. وفي ذلك لَعمري تجاهل للتوق الميتافيزيقي الذي يشتعل في الإنسان. الله هو الحكيم الذي يعلم حاجات عباده، ويبيّن لنا الأسلوب في توجيه خطابه. هذا هو (أسلوب الحكيم)، وهو أيضاً باب من أبواب البلاغة.

مسكينةٌ هذه البلاغة، كم تخرَّصوا باسمها!! وارتكبوا من أكاذيب ومفتريات عليها!!

ويبدو أنّ هذه اللعبة لم تكن تخفى على المتنبِّي. فقد انتقد بعض النحاة شعره، إذ وقع فيه على خطأ لغوي لا يحضرني الآن، فاستشاط المتنبي غضباً وأجاب النحويَّ بكبرياء الواثق بنفسه: «عليَّ أن أقول وعليكم التخريج». ولعل لسان حاله يضيف هذه العبارة الموحية «أليس هذا ما تفعلونه في القرآن؟ فالقوالب إنما وضعت للصغار. وأمّا الكبار فيُباح لهم ما لا يُباح للصغار، خسئتَ، فارجع إلى قبيلك وأهل عشيرتك الصغار».

والرأي عندي، أنّ من أهمّ أسباب نشأة علم البلاغة في الإسلام الدفاع عن القرآن على أيِّ وجه اتّفق وإيجاد الحلول لما اعوجَّ فيه، لا لوجه العلم والحق والبيان. فقد عثروا فيه على أشياء كثيرة حيَّرتْهم وبلبلت أذهانهم. لقد رابهم فيه ما لو كان في كتابٍ غيره لبلغوا في التشهير به غاية المدى. ولكن ما العمل وقد أُنزل من لدن عزيز عليم «قُرآناً عَربيّاً غيرَ ذي عِوَج» (39/ 28)؟ هذه مسلّمة المسلّمات لا يمكن لأيِّ مسلم التفريط فيها.

إنّ كلّ مسلم صادق الإيمان يتّهم نفسَه ولا يتّهم قرآنه،

مهما بدا له في القرآن ما يمكن الطعن فيه أو على الأقل يستوقف النظر. هنا جاءت علوم البلاغة والبيان والبديع... لرتقِ ما انفتق، ورأبِ ما انصدع، وسدِّ ما انثلم، وقطعِ دابرِ ما انشقّ وفَجِيَ ولم ينتظم. فلا انفتاق ولا انثلام ولا تصدع ولا فجوات في القرآن، إنما كلُّ ذلك قصور في عقولنا نحن بني الإنسان. وعلم البلاغة والبيان كفيل بتحقيقِ اختراقٍ عظيم في هذا الشأن.

بالسخف والسفسطة والهراء يمكنك أن تكشف ما تريد، وتحجب ما تريد، وتستطيع ما تريد، وتفسِّر ما تريد، وتخبر بما تريد، وتسوّي كلَّ عِوَج تريد.

كنت دائماً أقول: أعطِني مجنوناً وأنا أستطيع أن أستخرج لك من كلامه حكمةَ الأوَّلين والآخرين. ولكن يبدو أنّ المفسّرين الذين تربّوا في أكثر من مدرسة من مدارس الفصاحة والبلاغة، وحُمّلوا أوزاراً من زينة البيان والبديع والمعاني... قد سبقوني أشواطاً في هذا الباب.

3. «مَن كَفَرَ باللَّهِ مِن بَعْدِ إيمانه، إلاّ مَن أُكْرِهَ وَقلبُه مطمئنٌّ بالإيمان، ولكن مَن شَرَح بالكفرِ صدْراً، فعليهم غضبٌ مِن الله ولهم عذابٌ عظيم» (16/ 106).

أستحلفكم بمن تحبّون: هل فهمتهم شيئاً؟ قلتُ في نفسي لعلّ في هذه الآية خطأً في النسخ، أو لعلّ فيها كلمة ناقصة أو كلمة محرّفة. فرجعتُ على طبعاتٍ مختلفة من النسخ كُتبتْ في أزمنةٍ مختلفة، عسى أن أجدَ بينها اختلافاً ما. ولكنْ عبثاً، فهناك تطابق تامّ بين جميع النسخ وفي جميع الأزمان والأمكنة. هل هذا حقّاً كلام ربِّ العالمين الذي تحدّى الإنس والجن أن يأتوا بمثلِه؟ أعان الله المفسِّرين الذين يَنحتون الصخر بأظافرهم ليحصلوا على قليل من الماء!

إن جميع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها يتلون هذه الآية كلَّ يوم صباح مساء، في صلواتهم وعباداتهم ويَسمعونها في إذاعات القرآن الكريم، من غير أن يشعر أيٌّ منهم بأيِّ ضعف فيها أو تشويش أو نشاز.

لقد تكسّرت النصال على النصال فلا يبالي المؤمن على أيِّ جنب كان «مقتلُه». فقد تبلّد الحسّ اللغوي فيه، ورثّت ذائقتُه، وضعفت سليقتُه. لقد مات الشعور بالنشاز فيه في ما يتصل بآيات القرآن فقط، وبقي سليماً معافىً في كلِّ شيءٍ آخر. كلُّ شيء فيه لا يزال على فطرته الأولى، بل ازداد دقّةً وأداءً، واكتسب مهارات وقدرات ومواهبَ في كلِّ شيء إلاّ هاهنا. فإذا طغى الإيمان ارتفع العقل، ويفعل الإيمان ما لا يفعله العقل!!

أعترف بكلّ صدق أنّي لم أتنبّه لهذه الآية وكثير من أمثالها إلاّ الآن. ولولا أنّي في أساس عملي أدرس القرآن دراسةً نقديّة تحليليّة ممحّصة آية آية، ولولا أنّي قسّمتها أبواباً وفهارس لهذه الغاية، لظلّت الغشاوة على عينيّ. فما قولك بمَن لا يعبأ بهذا من المتعبِّدين؟! ألا ترون ذلك العدد الكبير من المفكّرين المسلمين وأساتذة الجامعات الذين لا يقلّون إيماناً بأسطورة إعجاز القرآن عن أي رجل من العوام؟ إنّهم ليسوا في موقع تشريح آيات القرآن وهتك أستاره. بل لا يقدرون على ذلك.

فالقراءة قراءتان: قراءة تعبّدٍ تعمى عن المكشوف الذي يكاد يفقأ العين في مخالفته للمعقول والمقبول. وإذا كان في هذه القراءة من تدبّر فهو تدبّر الدفاع والتبرير الذي يرى في الآية حكمةَ الأوّلين والآخرين؟ وقراءة فحْص ونقد وتحليل تَزيد المكشوفَ انكشافاً، وتضع أيدينا على ما لا يريد المتعبِّدون أن يروه والاعتراف به. ولذلك يداورون ويناورون ليوارَوا سَوْآتِه بشتّى العلل والتعلاّت والتعليلات!

ولعلّ هذا الكتاب يستطيع أن يُحدث لديهم . أو لدى طائفة منهم على الأقلّ . صدمات موجعة. فهناك فنّ جديد من العلاج هو العلاج بالصدمات!

4. وهاكم آية أخرى تشبه الآية السابقة في الضعف والركاكة وإن كان فهمُها غيرَ عسير، فسرِّحوا النظر فيها لعلّكم أفصح منّي لساناً وأكثر بياناً، على أن تبتعدوا عن المفسِّرين الميامين الذين لا يجدون فيها عوجاً ولا أمْتاً. لا بأس أن ترجعوا إلى كتب التفسير، لكن بمقدار، بل يجب أن ترجعوا إليها على أن يكون ذلك بمنتهى الحذر: «وَهُوَ الذي أنْزَلَ من السماءِ ماءً، **فَأَخْرَجْنَا** بِهِ نباتَ كلِّ شيء، **فَأَخْرَجْنَا** مِنه خضيراً **نُخْرِجُ** مِنه حباً متراكماً» (6/ 99).

ليت شعري! أتشعرون بشيء غير طبيعي عند سماعكم هذه الآية؟ في هذه الآية عَيبان، أو «بلاغتان»، إذا شئتم: بلاغة الالتفات «هو الذي أنزل من السماء ماءً فأخرجنا»، هذا أولاً، وثانياً تكرار الفعل «أخرج» ثلاث مرات تكراراً يخدش الأذن ويشعرها بالضيق والتبرّم، ما لم يكن الضيق والتبرّم من دلائل الإعجاز! ولو تردّى ابن المقفع أو الجاحظ أو غيرهما من أمراء البيان في مثل هذا السقم لهشمّوهما ولأوسعوهما نقداً وتجريحاً. ولكن ما العمل إذا كان الصقل والتكرار وقراءة التعبّد أورثتْ أصحابَها تبلُّد الحسِّ وفقدانَ الشعور بالنشاز!!

5. وهاكم آية أخرى تشبه الآية السابقة في الضعف والركاكة لم أفهم منها شيئاً فسرِّحوا النظر فيها لعلّكم أحدُّ منّي بصراً وأكثر فهماً، على أن تبتعدوا عن المفسِّرين الميامين الذين يجدون فيها كلَّ شيء! لا بأس أن ترجعوا إلى كتب التفسير، بل يجب أن ترجعوا إليها، على أن يكون ذلك بمنتهى الحذر: «وإذْ نادَى ربُّكَ موسى أنِ ائتِ القومَ الظالمين، قومَ فرعون، ألا يتّقون؟»

(26/ 10 . 11)، وفي حواره مع فرعون سأله هذا: «أَلَمْ نُرَبِّكَ فينا وَليداً ولبثتَ فينا من عمرِكَ سنين؟ وفَعلتَ فَعلَتَك التي فَعَلْتَ... قال فَعلتُها... ففررتُ منكم لمَّا خِفتُكُم، فوَهَبَ لي ربِّي حُكْماً وجعَلَني مِنَ المرسَلِين. وتلك نعمةٌ تَمُنُّها عليَّ أنْ عبّدتَ بني إسرائيل» (26/ 18 . 23).

الآية . اللغز هنا هي الآية الأخيرة. وما سبق من الآيات فهو تمهيد لها. إقرأوها ثمّ أعيدوا قراءتها مثنى وثُلاث ورُباع وعُشار، وزيدوا في القراءة ما تشاؤون، وقولوا لي بصدقٍ وإخلاص هل فهمتم شيئاً؟ وأنا لكم من الشاكرين.

أنا لم أفهم كيفَ يكون (التعبيد) أي الاستعباد كما يقول المفسِّرون، نعمة يُمنُّ بها فرعونُ على موسى. وإذا أُريد لهذه الآية أن يكون لها معنى، فلا بد من قراءتها على الشكل التالي: «وتلك نعمة يمُنُّها اللَّه عليَّ» أي: «أن أكون من المرسَلين نعمة يمُنُّها اللَّه عليَّ».

أمّا بقية الآية «أنْ عبَّدتَ بني إسرائيل» فهي محرّفة لا معنى لها؛ أو هي بقيّة آية منسوخة؛ أو شيء من هذا القبيل، وقد تلقّاها النسّاخ والقرّاء والمقرئون على الوجه الذي ورد في القرآن كما يتلقّى الصُمُّ والبُكمُ والعُميُ ما يُلقَى إليهم بلا اعتراض ولا معارضة، بل يقولون «كلٌّ من عند ربنا». وجاء المفسِّرون في أعقابهم فلم يجرؤوا على إحداث أيِّ تغيير فيها، وتفنّنوا في اختلاق شتّى المعاني لها؛ ولم يقل أيٌّ منهم: لا ترهقوا أنفسَكم فالآية على هذا الوجه لا معنى لها!!

6. كذلك اقرأوا الآية . اللغز التالية وأعيدوا قراءتها ضمن الشروط السابقة وقولوا لي هل فهمتم شيئاً: «قلْ لا يَعلمُ مَنْ في السمواتِ والأرضِ الغيبَ إلاّ اللّهُ، وما يَشعُرون أيّانَ يُبعَثُون. بلِ

ادَّارَكَ عِلمُهم في الآخِرة، بل هم في شكٍّ منها، بل هم منها عَمُون» (27/ 65 . 66).

تُرى، هل في هذه الآية الأخيرة ذرّة من البلاغة؟ هل يبلغ الكلام من الارتباك والالتواء والركاكة والتشويش أكثر منه هنا؟ إنه لعمري الإعجاز في عدم الإعجاز!!

أنا لا أنكر أن هذه الآية وأمثالها من الآيات . الألغاز لا بدّ أن يكون لها معنى، ولكن هذا المعنى لا يزال مخبوءاً في بطن صاحبه. فالألفاظ المذكورة غير صالحة للكشف عنه، لما فيها من ركاكة وارتباك والتواء، وبالتالي لما فيها من عجز عن التعبير الواضح عن المراد، وهذا مما ترك الباب مفتوحاً أمام هراء المفسرين وسخفهم وتخرّصاتهم.

ما هكذا تكون البلاغة. كلاّ. وما هكذا يكون الإعجاز. فنحن هنا أمام عجز فاضح لا أمام إعجاز. أين سلاسة الإعجاز الذي نجده عند الجاحظ، بل أين انسياب الكلام البليغ الذي جاء به كاتبٌ أعجميٌّ كابن المقفع بلسان عربي مبين لم يدَّعِ يوماً أنّه أُنزِل من لدن حكيم عليم؟ فعلى قدر ما يبقى المعنى محجوباً، يكون عجز؛ وعلى قدر ما يسرع إلى الظهور، يكون إعجاز.

7. «وإذْ قال مُوسى لِفَتاهُ: لا أَبْرَحُ حتّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ البَحرَينِ أو أَمضِيَ حُقُباً. فلمّا بَلَغا مجمعَ بينهما نَسِيا حُوتَهما فاتّخذَ سبيلَه في البحر سَرَباً. فلمّا جاوزَا قالَ لفتَاهُ: آتنا غداءَنا. لقد لَقِينا مِن سَفَرِنا هذا نَصَباً. قال: أَرأيتَ إذ أَوَيْنا إلى الصخْرةِ؟ فإنّي نَسَيتُ الحوتَ، **ومَا أَنْسَانِيهِ إلاّ الشيطانُ أن أَذْكُرَهُ**، واتَّخذ سبيلَه في البحر عَجَباً» (18/ 60 . 62).

يقولون إنّ كلام الله ليس فيه زيادة، فالألفاظ فيه على قدود المعاني بلا زيادة ولا نقصان! حسناً. لكن هذه الآية فيها زيادة

أحدثتْ فيها خللاً ظاهراً. هذه في رأيي ليست زيادة بل حشوٌ كما في كثيرٍ من آيات القرآن. إنّ كلمة **«مَا أَنْسَانِيهِ إلاّ الشيطانُ»** كافية لتأدية المعنى المطلوب، فما الحكمة «البالغة» من إضافة **«أن أذْكُرَهُ»**؟ وإذا كان القرآن حريصاً على كلمة **«أنْ أَذْكُرَهُ»**، فما فائدة الضمير في **«أَنْسَانِيهِ»** هنا؟ لقد كان من الواجب أن يقول «وما أنسانيه إلاّ الشيطان»: أو «وما أنساني إلاّ الشيطان أن أذكره»، وأما الجمع بينهما معاً فهو نشاز صقلَه اللسان فمات الإحساس به

8. «وسخَّر لكم ما في السموات وما في الأرض جَميعاً **مِنْهُ**. إنّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكّرون» (45/ 13).

أنا لم أفهم لهذه الـ **«مِنْهُ»** أيَّ معنىً أو وظيفة. إنّها حشو في حشو، ولم يبقَ على البلاغيّين إلاّ أن يجعلوا الحشو باباً من أبواب البلاغة. ولعلها ذيلٌ لآية أخرى نُسخت فأثبتها النسّاخ سهواً فانسابت في النص من غير أن يخطر على بال أحد أن يشكِّك فيها. قد تكون لها حكمة لا يعلمها إلاّ الله! وهنا دخلت الحذلقات والمماحكات المعروفة لإخراجها من عزلة اللاّمعنى وإدخالها زوراً وبهتاناً في رحاب المعنى، إنقاذاً لها من محنتها حتّى ولو كان هذا المعنى هو عين اللاّمعنى، فقيل: «سَخّر لكم... جميعاً منه»، أي سخّرها كانت منه تعالى! فهي هنا حال إذن، ولم يسأل أحد نفسه: ما ضرورة هذا الحال؟ فهل هناك سفسطة أكثر من هذه السفسطة: «كائنة منه» يا أساتذة السفسطة بدلاً من شطبها وحذفها من النص نهائياً؟ ولكن مَن يجرؤ على ذلك؟

9. «وسِيق الذين كَفروا إلى جهنَّمَ زُمَراً، حتّى إذا جَاؤوها فُتحتْ أبوابُها وقال لهم خَزَنتُها: أَلَمْ يأتِكم رُسُلٌ منكم يَتلون عليكم آياتِ ربِّكم؟.. قالوا: بلَى... قيلَ ادخُلُوا أبوابَ جهنَّمَ خالدين فيها، فبئسَ مَثوَى المتكبِّرين. وسِيقَ الذين اتَّقَوا ربَّهم إلى الجَنَّة

زُمَراً، حتَّى إذا جاؤوها وفُتحتْ أبوابُها وقالَ لهم خزَنَتُها: سلامٌ عليكم، طِبْتُم فادخُلُوها خالِدين. وقالوا: الحمدُ لله الذي صَدَقَنا وعْدَهُ، وَأورَثَنَا الأرضَ نَتَبَوَّأ من الجنَّة حيث نشاءُ. فنِعْمَ أجرُ العاملين. وترَى الملائكة حافِّينَ مِن حَول العرشِ يُسبِّحون بحمدِ ربِّهم، وقُضِي بينهم بالحقِّ، وقيلَ الحمدُ لله ربِّ العالمين» (39/ 71 . 75).

هذه الآيات هي في رأيي من الروائع لولا أنّ فيها عيبين شوَّها جمالَها كفتاة رائعة الجمال نبت الشعر في شاربها و ذقنها. لكنَّ دورانَ الألسنة بهذه الآيات طويلاً أخفى التشويهَ كما تُخفي المساحيقُ عيوبَ وجه الحسناء.

فهناك عدم توازٍ بين الآيات التي تصف دخول الذين كفروا إلى جهنم ودخول الذين اتَّقَوا. فعندما سيق الذين كفروا إلى جهنم ووصلوا إليها فُتحت لهم أبوابها. فالوصول أدّى إلى فتح الأبواب. أي لقد جاءت المقدمة (الوصول) وتبعتها النتيجة في الحال. ولكن ذلك لم يحدث ما يوازيه للذين اتَّقوا: فالآيات التي تصف وصول هؤلاء هي، في الظاهر على الأقلّ، مجموعة مقدّمات بلا نتيجة، وإن كانت النتيجة معروفة بالإستنتاج. النتيجة في الآيات الأولى معروفة لفظاً واستنتاجاً، وأمّا في الآيات المتبقّية فالنتيجة معروفة استنتاجاً فقط.

وبعبارة أكثر تبسيطاً: نجد في آية المتَّقين **(واو العطف)** زائدة شوّهت المشهد كلَّه حتّى ليظنَّ الإنسان أن هذه الآية لا جواب لها. في الآية الأولى يأتي الجواب في الحال: «حتّى إذا جَاؤوها فُتِحَتْ أبوابُها». بينما لا جواب في الآية لدخول حرف العطف: «حتى... وفتحت» فكيف انزلقت هذه الواو الثقيلة هنا؟ يقولون إنّها زائدة، ولكنها زيادة على حساب أهل الجنّة المتلهّفين لمعرفة مصيرهم! فإذا فعلتُ ذلك، أنا وأنت عُدَّ تقصيراً منّا، ولكن إذا فعله القرآن فهو إعجاز. مسكينان أنا وأنت!!

والعيب الثاني في هذه الآيات هو الفعل **«سيق»** الذي يستعمل للدواب ولا يجوز تطبيقه على الإنسان. فكما يُساق الحمير والبغال والماشية على أنواعها، هكذا يُساق البشر في القرآن. وليت الأمر اقتصر على ذلك، بل لقد سُوّيِ في هذا الاستعمال الظالم بين **«الذين كفروا»** و**«الذين اتقوا»**، وهي تسوية أمعن في الظلم، وفيها احتقار شديد للذين **«اتّقوا»**. فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ أم أنّ في الأمر هنا حكمةً خفيت على العقول والأذهان؟ وكأنما أحسّ المفسِّرون «الملفلفون» بقبح هذه التسوية وما فيها من هُجنة وإجحاف بحق المتّقين فرقّعوا كلمة **«سِيق»** الأولى بإضافة كلمة «بعنف»، ورقّعوا الثانية بإضافة كلمة «بلطف»؛ فقالوا: «وسيق الذين كفروا بعنف إلى جهنم زُمَراً»، «وسيق الذين اتّقوا بلطف إلى الجنّة»، ونسوا أن السَّوق هو السَّوق، سواء كان بعنف أو بلطف!

10. «قل أئنَّكُم لَتكفُرون بالذي خلَق الأرضَ في يومَينِ وتَجعلون له أنداداً، ذلك ربُّ العالمين. وجعلَ فيها رَواسي مِن فوقِها وبارَك فيها وقدَّر فيها أقواتَها في أربعةِ أيَّامٍ سَوَاءً للسَّائلين. ثمّ استَوى إلى السماء وهي دُخانٌ، فقال لها وللأرضِ: ائتِيَا طَوعاً أو كَرْهاً. قالتا: أتَينا طائِعينَ. فقضَاهنَّ سبعَ سمواتٍ في يومينِ، وأوحى في كلِّ سماءٍ أمرَها. وزيَّنَّا السماء الدنيا بمصابيحَ وحِفْظاً. ذلك تقديرُ العزيز العليم» (41/ 9 . 12).

هذه الآية كسابقاتها يختلط فيها الغموض بالركاكة. وبتعبير أدقّ إنّ غموضها من ركاكتها ومن تعارضها مع آيات أخرى في القرآن. وقد يكون العكس هو الصحيح. فعدم وضوح الرؤية في ذهن صاحبها يورثه الارتباك بل الالتواء في التعبير عنها. فيخبط ذات اليمين وذات الشمال، فتتناثر المعاني بعيداً عن الألفاظ، وتبتعد الأعداد عن المعدودات. لقد فقَدَ النصُّ اتّساقه،

فكلّ شيء بعد الآن متوقَّع منه. فلا ترى إلاّ قفزات تقطع حركة السياق وتُوقف اندفاعه نحو بلوغ أغراضه.

إنَّ شيئاً من هذا القبيل قد حدث في الآية التي نحن الآن بصددها وفي آيات أخرى سابقة مشابهة تعاني من التفكك والإنفكاك:

إنّ كلّ ما جاء في القرآن بخصوص عدد الأيام التي خلق الله فيها العالم تحصر هذا العدد في ستّة أيام. إلاّ الآية الأخيرة، كما أنّ جميع الآيات المتعلقة بعدد أيّام الخلق في القرآن تدخل إلى الموضوع مباشرة بلا نوافل أو طفيليات ضارة إلاّ ههنا. فبصرف النظر عن عزلة هذه الآية وعدم ارتباطها بما قبلها وما بعدها كما عوَّدَنا القرآن، فقد بدأت بداية غريبة: **«قُلْ أَئِنَّكُم»**. فهل هذا سؤال؟ أم إنكار؟ أم تقرير لواقع؟!. أم ماذا؟! أفتوني في أمري، وأنا لكم من الشاكرين!

كذلك إنّ هذه الآيات الأربع نشاز يجمع بين أطرافٍ متباعدة: التعريض بالمشركين الذين يَكفرون بالله الذي خلق الأرض في يومين، ولا يكتفون بذلك بل يجعلون له أنداداً. ثمّ يأتي بعد هذا بيان أنّ الذي خلق كلَّ ذلك هو ربّ العالمين. ثمّ اتبع ذلك بتقوية الأرض بالجبال وتقدير أقواتها في أربعة أيام.

وهكذا تكون الأرض وحدَها قد تطلبت منه سبحانه ستة أيام عمل مستمر. وهي تستحق هذا الجهد منه تعالى نظراً إلى أهمّيتها البالغة في العالم. وهذا مفهوم عند القدماء، كيف لا وهي مركز العالم وقلبه النابض، وما تبقَّى فأشياء تافهة: شمس وقمر وسبع سموات تزيّنها عدّةُ مصابيح يهتدي بها الناس في البر والبحر، وهذه كلّها يكفيها يومان فقط بالتمام والكمال.

صدِّق أو لا تصدِّق أنّ خلق السموات لم يستغرق سوى يومَين، ما لم تكن سموات من كرتون، بل من ورق ضعيف القوام تفيض عن حاجة الملائكة التي لا أقدام لها كأقدام البشر ثقيلة الوزن، شديدة الوقع، قويّة الوطء. فالملائكة لها أقدام أثيرية لطيفة جداً لا تستخدمها في المشي بل لها أجنحة رقيقة تُغْنيها عن المشي. وهذا يذكّرني بقول أحد الشعراء الفرنسيين في وصف حبيبته هذه ترجمته:

للهِ ما ألْطفُ أقدامِها تمشِي على العشبِ فلا يَشعر!!

والخلاصة، إن الله بعد أن أتمّ خلق الأرض في ستة أيام خلق السموات السبع في يومَين. ثم نثر المصابيح هنا وهناك في السماء الدنيا زينة لها، دون السموات الأخرى على ما يظهر، فبقيت مظلمةً، لأنَّ السموات مقرُّ الملائكة، فهي لا تحتاج إلى مصابيح لأنَّ الملائكة أجسام نورانيّة. ولعل مصابيح السماء الدنيا من الشمع، وآية ذلك قصر المدّة التي استغرقها خلْق السماء!

وختمت الآية ذلك كله بأنه من تقدير العزيز العليم. فتبارك الله أحسن الخالقين.

لقد حار المفسِّرون في فهم هذه الآيات التي تتوسّع في عدد أيام الخلق فتجعلها ثمانية، وفي التوفيق بينها وبين جميع الآيات الأخرى التي تكتفي بستة أيام فقط، فقالوا إنّ الأيام الأربعة التي أتمّ الله فيها خلق الأرض يدخل فيها اليومان الأوّلان اللّذان خلق الله فيهما الأرض. مخرج لطيف لا بأس به، ولكنّه إنْ صحّ أفلا يدلُّ على ركاكة القرآن الذي كان في مقدوره أن يستعمل ألفاظاً أكثر وضوحاً وبياناً، فعدل عنه إلى الركيك الغامض، لا سيّما وإنّ الإبانة صفة ملازمة للقرآن تتكرر في كل صفحة تقريباً «بلسان عربي مبين»؟!

11. «ولقد أرسلْنا نوحاً وإبراهيمَ وجعلنا في ذرِّيَّتهما النبوَّةَ والكتاب، فمنهم مهتدٍ وكثير منهم فاسقون. ثم قَفَّينا على آثارهم برُسُلِنا وقفَّينا بعيسى ابنِ مريمَ وآتيناه الإنجيل، وجعلنا في قلوب الذين اتَّبعُوه رأفةً ورحمةً، ورهبانيَّةً ابتدعوها ما كتبْناها عليهم إلاَّ ابتغاءَ رضوانِ الله، فما رَعَوها حقَّ رعايتها. فآتَينا الذين آمَنوا منهم أجرَهم، وكثيرٌ منهم فاسِقون» (57/ 26 . 27).

لا يمكن لأحد يُنقِّبُ عن الآيات المرتبكة في القرآن أنْ يمرَّ على الآية الأخيرة بسلام. فلا يعرف المرءِ هل الرهبانيّة من ابتداع النصارى أم إنَّ الله كتبها عليهم وأمرَهم بها؟ والغريب أنّ القرآن جمع النقيضَين وأثبت المتعارضَين، فكيف يستقيم لها معنى؟ كيف ابتدعوها وكيف كتبَها الله عليهم.

ولمّا كان المفسرون لا يملكون إلاّ أن يَقبلوها على علاّتها وبكلِّ قضِّها وقضيضها من غير أنْ ينبسَ أيٌّ منهم بكلمةِ نقدٍ واحدة، فقد اتَّهموا أنفسَهم من غير أن يجرؤوا على اتّهام الآية: «فعِلمُها عند ربّي، لا يضلُّ ربِّي ولا يَنسى». ولإعطائها شيئاً من المنطق قالوا في تفسير: «إلاّ ابتغاءَ رضوان الله» بإضافة جملة مقدّرة هكذا: «**لكنْ فَـَعَلُوهَا** ابتغاءَ مرضاة الله» لقد أعطوها معنى بعد أن لم يكن لها معنى. وليتهم لم يفعلوا لأنّ أحداً لا يقتنع بهذا المعنى، فهل يُصلح العطّارُ ما أفسد الدهر؟ ومتى كان التشويش من دلائل الإعجاز؟

12. وكأنّ هذا التشويش لا يكفي، وكأنّ الركاكة مطلب بلاغيّ كبير، لذلك اقتضت الحكمة الإلهية . فتنة للذين كفروا . أن تتلو هذه الركاكة ركاكة أخرى تزيد في تشويش القرآن، وذلك بعد آية واحدة من الآيات السابقة: «يَا أيُّها الذين آمنوا! اتَّقُوا اللَّهَ وآمِنوا برسوله، يُؤتِكم كِفلَينِ مِن رحمتِه، ويَجْعلْ لكُم نوراً تَمْشُون به، ويَغفِرْ لكم، واللّهُ غَفورٌ رحيم، لئلاّ يعلمَ أهلُ الكتاب

ألاّ يَقدِرونَ على شيءٍ مِن فضلِ الله، وأنَّ الفضلَ بيدِ اللّه يؤتِيهِ مَن يشاء. واللهُ ذو الفضل العظيم» (57/ 28 . 29).

في هذه الآية عقدتان من الأحاجي لا ندري أيَّتهما أكبرُ من إختها، وضَعَتا المفسِّرين في موقفٍ لا يُحسدون عليه. ويبدو أنّ القرآن يجد نشوةً في إنهاك هؤلاء المساكين الذين لا يقدرون على شيء غير الهراء:

العقدة الأولى هي هذه الـ **«لئلاّ»** المحيِّرة. إنّها هنا كالزئبق لا تستطيع أن تلمس أيَّ معنى أو أيَّ وظيفة لها. ومما زاد في شدّة هذه العقدة على المفسرين أنها لم تكد تفرغ شحنتها في أذهانهم لتأخذ بتلابيبهم، حتى أعقبتْها عقدة ثانية أشدُّ وطأة، كأنّها الراجفة تتبعها الرادفة التي تحدّث عنها القرآن في سورة النازعات. قلوب يومئذ واجفة. وكلّها من علامات الساعة والعياذ بالله تعالى، وقانا اللّه من شرورها!!

ما أشقى هؤلاء المفسّرين الصّابرين وما أصعب الأعباء والمهمّات الملقاة على عاتقهم! إنّ كلمة «أفٍّ» واحدة لم تصدر عنهم. لم يتذمّروا ولم يعترضوا، بل استبسلوا وأقدموا وغاصوا في اللجج ليجمعوا كلام اللّه ويحيطوا على قدر الطاقة البشرية بالأبعاد والمرامي التي ينطوي عليها، وكان كلُّ غوَّاص يخرج بلآلئ جديدة أحسن من أخواتها!!

إنّ معنى الآية الأخيرة ظاهر، شريطة ألاّ تلتزم بالألفاظ التي تُثقلها وتخرج بها عن معانيها. فالنفي **«لئلاّ»** حشوٌ لا معنى له. بل هو مضلّل أساء كثيراً إلى الآية، وجعلها من الأحاجي والألغاز، مع أنّ المعنى المراد بسيط جداً.

كما أنّ إثبات النون للفعل المضارع **«يقدرون»**، رغم حرف النصب، مضلّل آخر. كلّ ما يريد القرآن أنْ يقوله في هذه الآية:

«ليعلم أهلُ الكتاب أنّهم لا يقدرون على شيء من فضل الله». ولكن الحشو أثقلها حتّى أفقدها كل ما تبقَّى لها من معنى. ومَن يدري فلعل الحشو من دلائل الإعجاز! فكلّما كنتَ أكثرَ حشواً كنتَ أكثرَ إعجازاً، فلا يُحسن الحشوَ إلاّ النادرون!!!

13. «ن. والقلَمِ ومَا يَسْطُرُونَ. ما أنتَ بنعمةِ ربِّكَ بمجنونٍ، وإنَّ لكَ لأَجْراً غيرَ ممنون، وإنَّك لعلَى خُلْقٍ عظيمٍ. فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرونَ: بأيِّكُمُ المفتونُ؟» (68/ 1 . 6).

في هذه الآيات معانٍ سهلة بسيطة ينساب السياق فيها على رسله انسياباً جميلاً، لكنّه يختل في الآية الأخيرة اختلالاً مشيناً، لحكمة أرادها الله. فقد أبى القرآن . كعادته في حالات مشابهة أقف حائراً أمامها . إلاّ أن يُخرِّب ما بنى ويُفسد ما أتقن، على قاعدة «أبى اللَّه أنْ يرفع شيئاً إلاّ وضعه»، هذا ما فعله حرف الباء المشؤوم «بِـ أيّكم المفتون» ومع أن الصُمَّ البُكمَ العُميَ ينفون الزيادة عن كلام الله، فإنّ حرف الجر هذا حرف زائد، شاءوا أو أبَوا، هذا إذا كان معنى الآية: فستبصر ويبصرون: «أيّكم المفتون» أي المجنون.

وإذا لم يكن حرف الباء هنا حرفاً زائداً وقعنا في إشكال آخر وهو كلمة «مفتون»، وهي كلمة لا معنى لها هنا، والأصح أن تكون «فتون» أيْ جنون: هل الجنون بك يا محمد أم بهم؟ والحقيقة، إنّ المفسِّرين الذين قالوا بهذا الرأي قد صحّحوا «كلام الله»، وهم يظنّون أنّهم يفسرونه، وإلاّ فلا معنى لها.

وسواء أخذنا بهذا التفسير، أو ذاك، أي سواء كان حرف الجر حرفاً زائداً أو كانت كلمة «مفتون» بمعنى «فتون»، فإنّ الآية في نصّها الأصلي مختلّة ركيكة لا معنى لها، ما لم يكن في الأمر خداع ما.

14. وهاكم تصحيحاً آخر لكلام الله قام به «الملفلفون» الثرثارون وهم يظنّون أنهم يفسّرونه: «فَلا أُقْسِمُ بربِّ المشارق والمغارب إنّا لَقادِرونَ على أنْ نُبَدِّلَ خَيراً منهم، وما نحنُ بمَسْبُوقِينَ» (70/ 40 . 41)، أي بعاجزين عن ذلك.

فإذا كان القرآن يريد هذا المعنى فلم عدل عنه واختار له لفظاً آخر غريباً عنه، وغير مناسب له، ولا علاقة له به بوجه من الوجوه؟ لِمَ لمْ يقل «وما نحن بعاجزين»؟ أوَليس ذلك أكثر فصاحة وبياناً يا أهل الفصاحة والبيان؟ والحقُّ أنه لم يكن أمام المفسِّرين خيار آخر غير هذه الكلمة لإنقاذ هذه الآية . الورطة! فما أكثر الورطات التي أوقعهم فيها القرآن، ما لم يكن وراء ذلك «حكمة بالغة» تخفَى على الأوّلين والأخرِين استأثر بالعلم بها ربُّ العالمين!!

هل هذا كلام الله حقاً؟ هل هذا ما تحدّى الإنسَ والجِنَّ أن يأتوا بمثله؟!! لو كان القرآن كلُّه من الروائع لهان الأمر ولكن الروائع فيه كحلقة في فلاة. أو قل هي واحات متناثرة هنا وهناك في صحاري شاسعة لا بداية لها ولا انتهاء. وحتى لو كان القرآن كلّه من الروائع فالتحدّي لا معنى له، لأن الروائع لا يؤتَى بمثلها، إنما يؤتى بأحسن منها أو بأقلّ منها أو في مستواها، أما أنْ يؤتى بمثلها فهذا من المستحيل، فكيف إذا كانت هذه الروائع كتلك التي يزدان بها القرآن؟ إنّ كلام ابن المقفع والجاحظ وأبي حيان التوحيدي[60] على مستوى عال من الجودة والرفعة، فهل يمكن لأحد أن يأتي بمثله، لا سيّما إذا تذكّرنا أنّه ليس في كلامِ أيٍّ من هؤلاء ما نجد في القرآن من تشويش وتفكّك وركاكة وغموض؟

---

(60) وكدت أقول: «والمعرّي»، لولا أنّه غامض كالقرآن. لكنّه يظلّ على مستوى واحد من الجودة لا اختلال فيه.

تاسعاً

التناقض سمة بارزة في القرآن

وحبذا لو أنّ الأمر وقف بالقرآن عند الآفات التي ذكرنا. فهناك آفات أخرى أشدّ خطراً لعلّ أهمها التناقض الصارخ، أجل، إنّ القرآن مليء بشتى التناقضات التي لا يمكن السكوت عنها، فالتناقض سمة بارزة في القرآن.

دونكم هذه الآيات التي يختلط فيها الغموض بالتناقض:

1. «شهرُ رَمَضَانَ الذي أُنْزِلَ فيهِ القُرآنُ» (2/ 185). فالمعلوم أن القرآن «نزل منجَّماً»، أي متفرِّقاً على دفعات وفي آجال مختلفة وليس جملةً واحدة. فما معنى نزول القرآن في رمضان إذن؟ لا حلَّ لهذا التناقض إلاّ بالأسطورة. فقد كان القرآن أوّلاً في «اللّوح المحفوظ»، ومن «اللوح المحفوظ» نزل منجّماً إلى السماء الدنيا. وهكذا حُلَّت المشكلة بجرّة قلم.

2. لكن في أيِّ يوم من رمضان نزل القرآن؟ «إنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيلَةِ القَدْرِ» (97/ 1). وكأنّ الغموض الأوّل لا يكفي فأردفه بغموضٍ آخر إمعاناً في الغموض والتعمية، فحدّد النزول بليلة القدر وهي مجمع الأساطير: «ومَا أدراكَ ما ليلةُ القدْرِ؟ ليلةُ القدْرِ خيرٌ من ألفِ شهرٍ. تَنَزَّلُ الملائكةُ والروحُ فيها بإذنِ ربِّهم من كلِّ أمرٍ، سلاَمٌ هي حتّى مطلعِ الفجْر» (97/ 2 ـ 5).

هل فهمتم شيئاً؟ فالغموض في القرآن لا يفهمه المؤمن إلاّ بالمزيد من الغموض! أوَتلومون المفسِّرين بعد ذلك إذا لم يجدوا

سبيلاً لإزالة الغموض إلاّ بالأسطورة. ففيها المخرج من كلِّ غموض!! فما أكثر أساطير القرآن التي حِيكت في ليلة القدْر، وما أكثر الفتوحات التي فتح اللّهُ بها على عباده المقرَّبين في ليلة القدر!!

3. «أينما تكونوا يُدرِكّمُ الموت، ولو كُنتُم في بروجٍ مشيَّدةٍ. وإنْ تُصِبْهُم حَسَنَةٌ يقولوا هذه مِن عندِ اللهِ، وإنْ تُصِبْهُم سَيِّئَةٌ يقولوا هذه من عندكَ. قلْ كلٌّ مِن عند اللهِ، فما لِهؤلاءِ القومِ لا يَكادونَ يَفقهونَ حديثاً؟ ما أَصابَك من حَسنة فَمِن الله، وما أصابك من سَيِّئة فمِن نفسك، وأرسلناك للناس رَسولاً وكفَى بالله شهيداً» (4/ 78 . 79).

إنّ الآيات المتناقضة في القرآن تكون في العادة متباعدة، متناثرة هنا وهناك تفصل بينها مسافات واسعة، إلاّ في حالات قليلة نادرة كما في الآيتين السالفتين حيث جاءت الآية الثانية معارضة للأولى، ولمَّا يتلاشَ صداها في الأذن، إذ لم تكد الآيةُ الأولى تقرِّر أَنَّ الخير والشرَّ كليهما من اللّه حتّى جاءت الآية الثانية التي تليها مباشرة لتقرر العكس. وهو أنَّ الخير فقط من اللّه وأنّ الشرّ من الإنسان!!

4. والآيتان التاليتان على نمط الآيتيْن السابقتيْن: «سَيقول الذينَ أشركوا: لو شاءَ اللّه ما أشركْنا ولا آباؤنا ولا حَرَّمْنا مِن شيء، كذلك كذَّب الذينَ مِن قَبْلِهم حتّى ذاقوا بأسَنا. قلْ هَلْ عندَكم مِن علمٍ فتُخرِجوه لنا؟ إنْ تتَّبِعون إلاّ الظنَّ، وإنْ أنتم إلاّ تَخرُصون. قلْ فللَّهِ الحجَّةُ البالغةُ، فلو شاءَ لهداكم أجمعين» (6/ 148 . 149).

نعم عندنا ألف علم وعلم، وكلّها تستند إلى آيات كثيرة أهمّها الآيتان الأخيرتان واللتان قبلهما وآيات أخرى كثيرة، وهي

مجموعة من المتناقضات تستوعب جميع ما قيل ويقال وما سيقال في مقولتَي الجبر والاختيار إلى يوم القيامة. ثمّ ما معنى اتّهامه لهم باتّباع الظنّ، بل والأنكى من ذلك اتّهامهم بأنّهم يَخرُصون؟

فهل الاعتماد على الآيات الأربع السابقة وكثير غيرها ظنٌّ، بل وتَخرُّصٌ؟ هل هذا معقول. والغريب أنّه ختمَ الآيةَ بإثباتِ ما نفاه في أوّلها: «لو شاء الله ما أشركنا... كذلك كذّب الذين...»، وهذا ما أخذه عليهم!!

5. «وقال الذين أشركوا لو شاءَ اللهُ ما عبدّنا من دونِه من شيءٍ نحن ولا آباؤنا، ولا حرَّمْنا من دونه مِن شيء. كذلك فعل الذين من قبلهم...» (16/ 35).

فهل قولهم «لو شاء الله ما أشركنا»، «ولو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء» ظنٌّ؟ بل وتخرّص إنّ كلامهم حقّ وسليم وموزون، وهو فوق ذلك له سند من القرآن الذي لا تعدو أقواله في هذه المسألة على الأقلّ «كوكتيلاً» من التناقضات التي لا تستقرّ على رأي، والتي أرهقت المفسِّرين وأنهكت قواهم في عبث لا خير فيه.

6. اليهود شعب الله المختار بنصّ القرآن: «يا بني إسرائيل أذكروا نعمتي التي أنعمتُ عليكم وأنّي فضّلتُكم على العالمين» (2/ 47 و122).

كلاّ. اليهود ليسوا شعبَ اللهِ المختار، بل هم بشر كسائر البشر: «وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه. قلْ فلمَ يعذِّبكم بذنوبكم؟ بل أنتم بشرٌ ممّن خلق. يَعفر لمن يشاء ويعذِّب مَن يشاء، ولله مُلكُ السموات والأرض وما بينهما. وإليه المصير»

(5/ 18)، «قل يا أيّها الذين هَادوا إن زعمتم أنَّكم أولياءُ اللَّه من دون الناس، فتمنَّوا الموتَ إنْ كنتم صادقين» (62/ 6).

وسيسلط اللَّه عباده على اليهود حتى تقوم الساعة: «وإذ تَأَذَّنَ ربُّك لَيَبْعَثَنَّ عليهم إلى يوم القيامة مَن يَسومُهم سُوءَ العذابِ، إنّ ربَّك لَسريعُ العِقاب وإنّه لغفورٌ رحيم» (7/ 167).

ومع ذلك فسيعلون في الأرض بعد أن يفسدوا فيها مرّتين. أنا لا أفهم لِمَ حصر ذلك في مرّتين فقط مع أنّ حياتهم كانت كلُّها فساداً وإفساداً! «وقَضَينا إلى بني إسرائيلَ في الكتاب لَتُفْسِدُنَّ في الأرضِ مَرَّتين، وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كبيراً» (17/ 4).

7. والخلود في القرآن ثلاثة أنواع يناقض بعضها بعضاً: خلود مطلق إلى غير نهاية، وخلود مقيَّد بدوام السموات والأرض، وخلود مقيَّد بمشيئة الله، فأيّ هذه الأنواع هو الأحق بالاعتبار؟

في الخلود المطلق قال: «قال اللَّه هذا يومُ يَنفعُ الصادقينَ صدقُهُم، لهم جنّاتٌ تجري من تحتها الأنهار خالِدين فيها أبداً. رَضِيَ اللَّه عنهم وَرَضُوا عنه، ذلك الفوزُ العظيم» (5/ 119).

لكن أعجب أنواع الخلود هو الخلود المقيَّد بدوام السموات والأرض حيث لا سموات ولا أرض، فقد طُوِيَتَا بحلول يوم القيامة وذهبنَا إلى غير رجعة: «يوم نَطوي السماء كطيِّ السجلِّ للكتب» (21/ 104).

يليه الخلود المقيّد بمشيئة الله، وبهذه المشيئة لم يقيّد اللَّه نفسَه بشيء، وأكاد أقول إنّه نسف فكرةِ الخلود من أساسها، ونفض يده منها على طريقة شعبه المختار: «فأمّا الذين شَقَوا ففي النارِ، لهم فيها زَفير وشَهيق، خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلاّ مَا شاء الله، إنَّ ربَّكَ فَعَّالٌ لما يُريد» (11/ 106 . 107).

والغريب أنَّ النوعيْن الثاني والثالث قد وردا في آية واحدة؛ وهي المذكورة سابقاً. وهذا، إذا صحّ، فهو في مصلحة «الذين شَقَوا»، لأنّه يضع حداً لمعاناتهم. «وأمّا الذين سُعِدوا ففي الجنَّة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض، إلاّ ما شاء ربُّك، عطاءً غيرَ مَجذوذ» (11/ 108).

وهذا، إذا صحّ، ليس في مصلحة «الذينَ سُعِدوا»، لأنّ من شأنه أن يجعل «الذين شَقَوا» خيراً منهم، لأنَّ قطْعَ الخلود الشقي عن مستحقِّه ورفْع المعاناة عنه أعظم لذّةً من متعةٍ طال عليها العهد وكان مقدَّراً لها أن تكون خالدة، ثمّ انقطعت عن مستحقّها على حين غرّة، لارتباطها بمشيئةٍ اعتباطيّة لا قرار لها ولا استقرار، ولا تُسأل عمّا تَفعل. إنّ هذا لَعمري أشدُّ مضاضةً على النفس وإيلاماً لها من كلّ ما عانى الشقيُّ من عذابِ جهنم، فأين المساواة في هذا؟

8. «إنَّ الذين لا يؤمنون بآياتِ اللّه لا يَهدِيهِمُ اللّه ولَهم عذابٌ أليم» (16/ 104).

هل هذا صحيح؟ بل هل هذا معقول؟ ما هذا التعميم الغريب؟ ما هذا الحكم المطلق الذي لا يبرِّره منطقٌ ولا تاريخ؟ ما حكم أولئك الذين آمنوا بآيات اللّه بعد أن لم يكونوا مؤمنين؟ مَن هداهم؟ الشيطان؟ هل خرجوا من بطون أمّهاتهم مؤمنين؟ أوَلا تتعارضُ هذه الآية مع آيات كثيرة أخرى لا تُحصى يمنُّ اللّه فيها على المؤمنين أن هداهم للإيمان؟

9. «يَمُنُّونَ عليكَ أنْ أَسْلَموا. قلْ لا تَمُنُّوا عليَّ إسْلامَكم، بلِ اللّه يَمُنُّ عليكم أنْ هداكم للإيمان إنْ كنتم صادقين» (49/ 17)، «واعتصموا بحبل اللّه جَميعاً ولا تَفَرَّقُوا، واذكروا نعمةَ اللّه عليكم إذ كنتم أعداءً فألَّفَ بين قلوبِكم فأصبحتُم بنعمته إخواناً،

وكنتم على شَفَا حُفرَةٍ من النار فأنقَذَكم منها. كذلك يبيّنُ الله لكم آياتِه لعلّكم تَهتَدون» (3/ 103).

عجيب حقاً أمر هذه الآيات التي تنفي الهداية في المستقبل عن الذين كانوا كافرين أو مشركين أو فاسقين أو ضالين أو مضلّين وقت ظهور الإسلام، مع أنّ جميع الذين دخلوا فيه كانوا يَكفرون به من قَبْلُ، أو كانوا فاسِقين وضالّين، فمَن هداهم إذن بعد أن لم يكونوا مهتدين؟ ألم يَمُنُّ الله عليهم باستمرار أنّه هو الذي هداهم إلى صراطٍ مستقيم؟

والغريب أنَّ هذه الآيات تتكرّر كثيراً في القرآن حتّى ليخال المرء أنَّها وليدة النزوة والإنفعال أكثر منها وليدة التفكير والتروي.

10. «ومَن يَهدِ اللّهُ فهُوَ المهتدِ، ومَن يُضْلِلْ فلن تجدَ لهم أولياءَ مِن دونه، ونَحشرُهم يوم القيامة على وجوههم عُمياً وبُكماً وصُمّاً، مأواهُم جهنَّمُ، كلَّما خَبت زِدْناهم سَعيراً» (17/ 97).

فإذا صحّ ذلك فما مصير الآيات الأخرى التي يتلاوم فيها أهل النار ويقذف كلٌّ منهم بالتبعة على الآخر: «إذْ تَبَرَّأَ الذين اتُّبِعُوا مِنَ الذين اتَّبَعُوا ورَأوا العذابَ وتقطَّعتْ بهم الأسبابُ. وقال الذينَ اتَّبَعوا لو أنَّ كُرَّةً فَنَتَبَرَّأَ منهم كما تَبَرَّأوا مِنّا. كذلك يُريهِمُ الله أعمالَهم حَسَراتٍ علَيهم، وما هم بخارجينَ مِن النار» (2/ 166 . 167).

ليت شعري، أين ما تَنْسِب إليهم الآية السابقة من العمي والبكم والصم؟ إنهم أحدُّ بصراً منّي ومنك وأطلقُ لساناً وأشدُّ سمْعاً. إنّهم رغم ما هم فيه من عذاب جهنّم وأهوال الجحيم قادرون على رؤية أهل الجنّة وما هم فيه من النعيم، والطلب إليهم بلسان عربيّ مبين أن يُفيضوا عليهم من الماء أو مما رزقهم

الله: «ونادى أصحابُ النارِ أصحابَ الجنّة أنْ أَفِيضوا علينا مِن الماء أو ممّا رزقَكُمُ اللّهُ. قالوا إنَّ الله حرَّمَهما على الكافِرينَ» (7/ 50).

لقد اعترفوا بذنوبهم ودعَوا الله أن يعيدهم إلى الحياة الدنيا ليعملوا صالحاً ولكن عبثاً «تَلفَحُ وجوهَهُمُ النارُ وهم فيها كالِحون. ألم تكنْ آياتي تُتلى عليكم فكنتم بها تُكذِّبون؟ قالوا: ربَّنا غلَبتْ علينا شِقْوَتُنا وكنَّا قوماً ضالِّينَ. ربَّنا أخْرِجنا منها، فإنْ عُدْنا فإنّا ظالمونَ. قال اخْسَأُوا فيها ولا تُكَلِّمون» (23/ 104 . 108).

إلى غير ذلك من الآيات العديدة التي تدلّ على أنّنا لسنا بأبصر أو أنطق أو أسمع منهم. لقد رأيتم أنهم باعتراف القرآن يظلّون في جهنّم بكامل حسّهم ووعيهم لم يَفقدوا منهما شيئاً، فأين دعوى العمى والبكم والصمّ يا قوم؟

11. صدِّق أو لا تصدِّق! لقد أخرج الله بني إسرائيل من مصر وأورَثَهم مصر وخيراتِ مصر وكنوزَ مصر: «وَأوحَينا إلى موسى أنْ أَسْرِ بِعبادِيَ إنَّكم مُتَّبَعُونَ. فَأَرْسَلَ فرعونُ في المدائنِ حَاشِرِينَ... فأَخرَجنَاهُم مِن جنَّاتٍ وعُيونٍ، وكُنوزٍ ومَقَامٍ كريمٍ، كذلك وَأورثْناها بني إسرائيلَ» (26/ 52 . 59).

لا تعليق، فاللاّتعليق هنا أبلغ من التعليق! فقد أخرجهم الله من مصر فكيف أورثهم مصر؟ وحتّى لو كان الضمير في «أخرجناهم» يعود إلى المصريّين، كما يقول كثير من المفسِّرين، فكيف أورثَ الله مصرَ للإسرائيليّين بعد خروجهم من مصر؟

12. «إنّا أرسَلناك بالحقِّ بشيراً ونذيراً، وإنْ مِن أمَّة إلاّ خَلا فِيها نذيرٌ» (35/ 24)، لكن هذه الآية تعارضُها آيةٌ أخرى: «ولَو شِئْنا لَبَعَثْنَا في كلِّ قرية نذيراً» (25/ 51).

فالأمّة والمدينة والقرية لها معنى واحد تقريباً في القرآن. وكلّها تعني الجماعة المستقرّة التي تُقيم في أرضٍ تكفيها لتبادل المعايش والحاجات. بل إنّها تعني أيضاً الجماعة العابرة غيرَ المتوطِّنة: «ولمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدينَ وَجَدَ عليه أمَّةً مِن الناس يَسْقُونَ» (28/ 23). ولها في القرآن معانٍ أخرى لا تهمّنا هنا.

13. أوَتُريدون المزيد من تناقضات القرآن؟ دونكم تناقضاً يتعلّق بيونس: هل قذفَه اللَّهُ بالعَرَاء (بالساحل)، أم لم يقذفْه؟ للقرآن في هذه المسألة قولان متعارضان أحدهما يُثبت والآخر يُنفي:

«وإنَّ يُونُسَ لَمِنَ المرسَلين. إذْ أَبَقَ إلى الفُلْك المشحون. فَسَاهَمَ فَكَانَ من المُدْحَضِينَ، فالتَقَمَهُ الحوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ. فلولا أنّه كان من المسبِّحِينَ، لَلَبِثَ في بطنِه إلى يومِ يُبعَثونَ. فَنَبَذْنَاه بالعراءِ وهو سَقِيم» (37/ 139 . 145). لقد نبذه اللَّه بالعراء إذن. كلاّ. لم ينبذه: «فاصبِرْ لِحُكمِ ربِّكَ، ولا تكنْ كصاحب الحوت إذ نادى وهُو مَكْظُومٌ. لولا أنْ تَدَارَكَهُ نعمةً مِن ربِّه لَنُبذَ بِالعَرَاءِ وهُوَ مَذمومٌ» (68/ 48 . 49). لقد تداركه اللَّه بنعمته وإلاّ لنبذه!!

فاخترْ أيَّ المعنيَين تُريد!! فماذا فعل اللَّهُ به إذن بعد نفي النبذ واللاّنبذ؟ هل هناك خيار ثالث، يقال له «الثالث المرفوع» لا يعلمه إلاّ هو؟

14. عندما اختار اللَّهُ موسى لوحيه بعد انصرافه من مَدْيَن ومعه أهلُه، نُودي وهو بالوادي المقدس طُوى حيث رأى ناراً تحترق ولا تُحرَق، فأمره اللَّه أنْ يذهب إلى فرعون بآياته لعلّه يَذَّكَّر أو يخشى. فلم يملك موسى إلاّ أن يمتثل لأمر ربِّه. لكنّه اشتكى أنَّ لسانَه به عقدةٌ فلا يُحسن النطق، وسأل اللَّه أن يشفيَه منها، وأن يشرح صدره ويُيسِّر أمره، فاستجاب اللَّه دعاءه:

«قال: ربِّ اشرَح لي صدري، ويسِّر لي أمري، واحلل عقدة من لساني، يفقهوا قولي... قال: قد أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا موسى» (20/ 24 . 27 و36).

هل استجاب الله له دعاءه حقاً، أم إنَّ الأمر فيه ما فيه؟ الظاهر أنّه سبحانه قد فعل قبل أن يفرغ موسى من دعائه، إذ قال له في الحال وبلا أيِّ تأخير «قد أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا موسى»، كما رأينا.

لكنَّ هذه الآية تعارضها آيةٌ أخرى تفيد أنَّ موسى، رغم استجابة طلبه، قد ظلَّ يعاني صعوبةً في النطق تمنعه من الإبانة. والدليل أنّ فرعون كان يجد عِسراً في فهم أقواله: «ونادَى فرعونُ في قومه، قال: يا قومِ أليسَ لي مُلكُ مصرَ وهذه الأنهارُ تجري من تحتي، أفلا تُبصرون؟ أم أنا خيرٌ مِن هذا الذي هو مَهينٌ، ولا يَكادُ يُبِينُ» (43/ 51 . 52). فهو إذن لا يزال عاجزاً عن الإبانة، أي عن التعبير البيّن السليم الذي لا بدّ منه لتوضيح مراده والغاية من رسالته إلى فرعون. فهل أُوتي موسى سؤلَه حقاً أم لم يُؤْتِه؟

15. يوم القيامة هو يوم الفزع الأكبر، إنّه يوم الكرب العظيم ويوم الهول العظيم!! هناك «يُعرَف المجرِمونَ بسِيمَاهُم، فَيُؤْخَذُ بالنَّوَاصِي والأَقْدامِ» (55/ 41)، وبصرف النظَر عمّا إذا كان من الواجب القول «يُؤْخَذُونَ» بالجمع لأنَّها تعود إلى المجرمين، فإنّنا نتساءل: هل يُؤخذون هكذا بلا سؤال؟ هل معرفة الناس بسيماهم تكفي للحُكم عليهم؟ إنّ الأمر تشابه عليّ. ففي القرآن آياتٌ تؤكد السؤال وأخرى تَنفيه، ولذلك فأنا حائر لا أستطيع أن أقطعَ في هذه المسألة برأيٍ حاسم:

«فوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُم أجمعين، عمّا كانوا يَعْمَلون» (15/ 92 . 93)، «تَاللّه لَتُسْأَلُنَّ عما كنتم تَفْتَرون» (16/ 56). «ولو شاءَ اللَّهُ لجعلكم أمَّةً واحدة، ولكن يُضلُّ مَن يشاءُ، ويَهدي مَن يشاءُ،

وَلَتُسْأَلُنَّ عمّا كنتم تَعمَلون» (16/ 93). «وإنّه لَذِكْرٌ لكَ ولقومكَ، وسوف تُسْأَلُون» (43/ 44).

لكنّ هذا التوكيد للسؤال لا يلبث أنْ يُصبح نفياً له في آياتٍ أخرى يُزَجُّ أصحابُها في النار بلا سؤال ولا محاكمة، اعتماداً في الظاهر على معرفة المجرمين بسيماهم. فهذه المعرفة على ما يبدو تُغني عن السؤال أو الجواب، و. بلغة العصر . عن المحاكمة! وقد لا يدخل ذلك في عقولنا نحن البشر الضعفاء، لكن يظهر أنَّ الملائكة خبراء، محلَّفون، متمرّسون بمعرفة الناس، جديرون بالثقة في هذا الباب، وإلاّ لما أَطلَق اللّه أيديهم يستقلّون بالفعل والترك كما يشاؤون. فلا موجب إذن لإجراءات المحاكمة وتعقيداتها التي لا تنتهي. ولو كان سبحانَه يعلم أنَّ في ذلك ظلماً لعباده لما سمح به. هل نسيتم قوله تعالى: «... ووَجَدوا ما عَمِلُوا حاضِراً ولا يَظلِمُ ربُّكَ أحداً» (18/ 49)، تعالى اللّه عن ذلك علواً كبيراً!!

تذكّر جميلي إذ خلقتك نطفةً ولا تنسَ تصويري لشخصك في الحشا
ففوِّضْ إليّ الأمرَ واعلم بأنّني أدبّرُ أحكامي وأفعلُ ما أشا

لذلك لا خوف من الآيات التي تَنفي سؤال الناس عمّا كانوا يعملون «ولا يُسألُ عَن ذُنُوبِهِمُ المجْرِمون» (28/ 78) و«فإذا انشقَّتِ السماء فكانت وَرْدَةً... فيومئذٍ لا يُسألُ عن ذنبه إنسٌ ولا جانٌّ» (55/ 36 . 39).

16. ولا يمكنني أن أختم حديثي عن تناقضات القرآن من غير أنْ آتي على تناقضٍ لعلّ أفضل تسمية له هي (التناقض الأكبر) أو (سيّد التناقضات) بل (تناقض التناقضات). والغريب أنّ القرآن يتّخذ من هذا التناقض شاهداً وحجّة على قدرة اللّه تعالى قدرةً

مطلقة. فعلى حين يقول «سُنّة اللّه في الذين خلَوا مِن قبْلُ، ولن تجدَ لسنَّة اللَّهِ تبديلاً» (33/ 62) و«.. فهل يَنْظرون.. فلن تجدَ لسُنَّةِ اللَّهِ تبديلاً ولن تجدَ لسُنَّةِ اللَّهِ تحويلاً» (35/ 43).

هذه الآيات فيها تناقضان: عادي، كثير الوقوع، وتناقض آخر صارخ أسميناه (تناقض التناقضات).

فأمّا التناقض العادي فهو أنّ هذه الآيات قد جاءت في معرض الحديث عن الأوّلين، وكيف أنزل اللّه العذاب بالمخالفين منهم. فإذا كانت سنّة اللَّهِ في الأوّلين الانتقام منهم في الحال، أو على الأقلّ، إنزال العذاب بهم في الحياة الدنيا، فلِمَ لَمْ يحدث ذلك إلاّ في الماضي الذي لا يمكن التحقّق منه، بينما المخالفون . الذين جاءوا بعدهم، أي الذين عاشوا تحت أضواء التاريخ، وعلى الخصوص في هذه الأيّام .، يَعيشو بمنأى عن العذاب، بل يرفلون هانئين في أبهى حلل السعادة والنعيم؟

فإذا كان اللَّهُ في القرآن يعني ما يقول، فلِمَ أوقف العمل بهذه السُنة في العصور التاريخية مكتفياً بالوعيد اللفظي الذي لا يعني شيئاً على الأرض، وإنْ كان يعني كلّ شيء في الكلام الفضفاض على الطريقة العربية المعروفة التي شحننا بها القرآن وعمّق جذورها؟ وإذن علام يدل حرف **«لن»** في الآية السابقة؟ «**لن** تجد لسنّة اللّه تبديلاً»؟ كيف تبدلت هذه السُنّة في الحاضر عنها في الماضي رغم وجود حرف **«لن»** الذي ينفي التغيير في المستقبل؟

قد يقال: ألا ترى ما ينزل بالمخالفين اليوم من أمراضٍ مستعصية وأزماتٍ خانقة ومصائب لا قبل لهم بها؟ نعم أنا أرى ذلك. ولكنّه لا ينزل بجميع المخالفين بل بقلّة منهم، وهي قلّة غنيّة قادرة على مواجهته والتخفيف من وطأته. وحتى عندما تعجز عن ذلك فإنّها تظل قلّة ليست شيئاً مذكوراً في جمهور

المخالفين الآخرين، هذا أوّلاً، وثانياً إن ما ينزل بالمخالفين لتعاليم اللَّه لا ينزل بهم وحدَهم بل ينزل بلا تفرق بين مَن يطيع اللَّه ورسولَه ومَن يخالف أمرهما.

وإذن فلا شأن لرضى اللَّه وسخطه في ما ينزل سواء بالمخالفين أو المطيعين الملتزمين بأوامره ونواهيه، ولا سيّما عندما تفاجَأ أنّ اللَّه يَكيل بمكيالين: مكيال للماضي ومكيال للحاضر؛ مع أن جميع آيات القرآن تؤكّد أنّ مكيالَ اللَّه واحد.

كلّ هذا يدخل في باب التناقض العادي إذا صح التعبير، ولكن بإزاء هذا التناقض يوجد ما أسميته بـ (تناقض التناقضات). وهنا الطامة الكبرى. فالدليل على نبوّة إبراهيم عدمُ احتراقِه بالنار التي أوقدها له المشركون، والدليل على نبوّة المسيح إحياءُ الموتى... إذا ألقينا في النار جسماً قابلاً للإحتراق فأيُّهما سُنّة الله: أنْ يحترق أو أنْ لا يحترق؟ وإذا مات إنسان أيُّهما سُنّة الله: أنْ يُعيد الطبيبُ إليه الحياةَ، أو أنْ يقف دون ذلك مكتوفَ اليدين؟ فالمعجزة هي، في حقيقة الأمر، غير معجزة بنص القرآن نفسه «لا تبديل لكلمات الله». إذاً لا تبديل لقانون الاحتراق الذي استُثني منه إبراهيم، كما لا تبديل لقانون الموت الذي استُثني منه موت عيسى.

وهل نسيتم الآيات السابقة الداعمة للآية الأخيرة «فلن تجدَ لسُنَّة اللَّه تبديلاً»، «ولن تجدَ لسُنَّة اللَّه تحويلاً»، والآيات الأخرى التي على شاكلتها؟ وبما أنّ هاتين المعجزتَيْن (عدم الإحراق وإحياء الموتى) قد حدثتا في الماضي فقط ولا نظير لهما في الوقت الحاضر، فيجب ألاّ يؤخَذا مأخذاً جدِّياً، لأنَّ الماضي أشبه بالحاضر من الماء بالماء، كما يقول ابن خلدون[61]، بل يجب تناولهما بمنتهى الحذر. فما بُني على الباطلِ باطلٌ كما هو معروف.

---

(61) **المقدمة** 1/ 220.

عاشراً

القرآن والعلم

لا يمكن الحديث عن سلبيات القرآن من غير الحديث عما فيه من أخطاء علمية فاحشة تفقأ العينَين.

1. **فصورة الكون** في القرآن هي صورة من علم الفلك الأسطوري القديم كانت شائعة في عصور احتضار العلم اليوناني والفلسفة الإغريقية ممتزجة بأطياف شرقيّة وأخيلة دينية زاهية. فالأرض هي مركز العالم، وقاعدته الثابتة، تعلوها سبع سموات، طبقاتٍ بعضُها فوق بعضٍ، محمولة على أعمدة لا تراها العين. وليس لدى القرآن على ما يبدو أيُّ فكرة عن عالم لا نهائي مليء بالمجرّات والسَّدَم والثقوب السوداء والغبار الكوني. فعالَمُ القرآن عالَم مقفَلٌ موحِشٌ محدودٌ تضيئه الشمس في النهار، والقمرُ والكواكب والنجوم . المصابيح المعلّقة التي تزيّن السماء الدنيا . في الليل.

وهذه السماء (أو السماوات) ستنشقُّ يوم القيامة «فهي يومئذٍ وَاهية. والمَلَكُ علَى أرجائِها. وَيَحمِلُ عرشَ ربِّك فوقَهم يومَئذٍ ثَمانية» (69/ 16 . 17). ويظهر أنَّ العرش في السماء السابعة، لكنّها عندما تنشقّ سيتولّى عندئذ ثمانيةٌ من الملائكة حملَه. ولا أدري ما إذا كان العدد (ثمانية) هنا صحيحاً أم أنسابَ في آخر الآية انسجاماً مع القافية! إذ إنّ الشكلانيّة البيانيّة . إذا صحّ التعبير . لها سحرٌ طاغٍ في القرآن بل قلْ هي إحدى الأولويّات التي تضحِّي بالمعنى في سبيل المبنى!

2. لقد كانت **النار** أحد العناصر الأربعة في الفلسفة اليونانية وكثير من الفلسفات الشرقية القديمة، لها كيانها الخاص المستقلّ، كالماء والهواء والتراب سواء بسواء، وكذلك النور. فإذا كان اللّه قد خلقَ الإنسانَ من طينٍ، فقد خلق إبليسَ والجِنَّ والشياطين من نار. كما خلق الملائكة من النور. بل إن اللّهَ نفسَه من نور، أو قل هو نور، بل نور الأنوار «الله نور السموات والأرض» (24/ 35).

3. ويظهر أنّه يُعْقَدُ مِن وقتٍ لآخر، مجلسٌ إلهيٌّ في موضعٍ ما على أحد تخوم الأرض، لعلّه فلك القمر، يحضره سيّدنا جبريل عليه السلام وعلى الخصوص سيِّدنا عزرائيل وبعض الملائكة المختصِّين بشؤون العالم الأسفل للتداول في أحوال الناس وأرزاقهم وعباداتهم ومدى التزامهم بأمور دينهم. ومَن سيُخلق هذا العام ومَن سيموت، ومَن سيدخل الجنَّة ومَن حُقَّ عليه العذاب...

ويظهر أنّ الرقابة لم تكن مشدَّدة في هذه المجالس، فكان من الممكن الإفلات من الحرَس وحضور الجلسات، فيتسلّل الشياطين إلى هذه الاجتماعات لمعرفة ما يُجري فيها، وإبلاغِ أهل الأرض بذلك. ويبدو أنّهم يستطيعون سرقةَ بعض الأخبار، وهذا ما يسمّيه القرآن (الخَطْفَة):

«إنّا زَيَّنَّا السماءَ الدنيا بزينةٍ: الكواكب، وحِفظاً مِن كلِّ شيطان مارد. لا يَسَّمَّعُون إلى الملأ الأعلى ويُقذَفون من كلِّ جانب، دُحُوراً ولهم عذابٌ وَاصِب. إلاّ مَن خَطِفَ الخَطْفَةَ فَأَتْبَعَه شِهابٌ ثاقِبٌ» (37/ 6 . 10).

ويتكرّر هذا المعنى في آية أخرى: «ولقد جعلْنا في السماء بروجاً وزيَّنَّاها للنَّاظرين، وحفِظناها من كلِّ شيطانٍ رجيم، إلاّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ، فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبينٌ» (15/ 16 . 18).

وهذه عبرة لنا نحن أهل الأرض. فأجهزة المخابرات، مهما كانت صارمة، فإنّها تظلُّ دون المستوى المطلوب، حتّى ولو كانت مخابرات من صنع السماء!!

فليس في هاتين الآيتين أي فكرة عن الشهب بمعناها العلمي. إنّها شواظ من نارٍ يُراد به دحْرُ الشياطين ورجمُهم ومطاردتُهم لا إحراقهم، لأنَّ الشياطين لا يتأثّرون بالنار. إذ هم من نار!

4. إنّ **عمليّة التجسّس** على مجالس السماء مستمرّة بلا انقطاع. لكن يظهر أنّ هذه العمليّة قد توقّفت توقفاً تاماً لمّا بُعث النبي عليه السلام. فقد فوجئ الشياطين يوماً أنّ السماء «مُلئتْ حَرساً شَديداً وشُهُباً، وأنّا كُنَّا نَقْعُدُ منها مقاعدَ للسَّمْع، فمَن يستمعِ الآن يجدْ له شِهاباً رَصَداً. وأنّا لا نَدري أشَرٌّ أريدَ بمن في الأرض، أم أراد بهم ربُّهم رَشَداً» (72/ 8 ـ 10).

كلُّ ذلك بعد بعثة النبي. لا تجسُّس بعد اليوم. فالحراسة مشدَّدة جداً بعد أن كانت رَخوة مِن قَبل. فمن يستمع منذ الآن، تطارده الشهب من كلِّ جانب. فالتجسّس بعد اليوم مرامٌ صعب، إنْ لم يكن مستحيلاً. هذا ما توحي به الآية السابقة على الأقلّ[62].

5. «ولُوطاً إذ قَال لقومِه إنَّكُم لَتَأتُونَ الفاحشةَ. ما سبَقَكم بها مِن أحدٍ مِنَ العالمِين» (28/ 28).

هل هذا صحيح؟ هل الشذوذ الجنسي من اختراع قومِ لوط

(62) إنّ هذا الحدث الخطير الذي صحب مولد النبي عليه السلام يذكِّرني بحدث آخر لا يقلّ عنه خطورة وهو نجمة الفرس التي صحبتْ ميلاد السيد المسيح ودلّتْهم على المزود الذي وضعْته أمّه فيه! فمولد الكبار تعقبه الأحداث الكبار!!

فقط؟ إنَّ الشذوذ الجنسي صورةٍ من صور الإشباع الجنسي القديم قدم الإنسان، إنّه ينبع من الغريزة الجنسيّة التي يشترك فيها الإنسان والحيوان. إنّ هذه العادة منتشرة بين بعض أنواع الحيوان بل بين الحشرات، فكيف ينفيها القرآن هذا النفي المطلق عن إنسانٍ ما قبل لوط؟! إنّه خطأ كنت أربأ بالقرآن أنْ يقع فيه.

6. وهناك خطأ علميّ آخر وقع فيه القرآن، وهو سوء فهمه للأرض الميتة، والانتقال منها إلى موتِ الإنسان لإثبات قدرةِ الله على إحياء الموتى كما يُحيي الأرض بعد موتها بإنزال الماء عليها: «ومِن آياتِه أنَّك تَرى الأرضَ خاشعةً، فإذا أنْزَلنا عليها الماءَ اهتزَّتْ وَرَبَتْ. إنَّ الذي أحيَاها لَمُحْيِ المَوتَى. إنّه على كلِّ شيءٍ قدير» (41/ 39).

في هذه الآية مغالطة كبيرة مغطّاة بغلالة رقيقة جداً لا تراها العين الباصرة إلاّ بصعوبة بالغة جداً. هذا إذا تمكّنت من رؤيتها حقاً، وهي التوحيد البدائي الساذج، بين الموت المَجازي والموت الحقيقي. هناك مَوْتان كما هو معلوم: موت حقيقي وموت مَجازي، والخلط بينهما إمّا تمويه مقصود أ جهل فادح، ولا وسط بينهما. فالأرض الهامدة مَيتة لكن بمعنى مجازي فقط، وأمّا موت الإنسان عندما يتوقّف قلبُه ودماغه فهو موت حقيقي لا حيلة للإنسان فيه.

تُرى، كيف يشبّه الله في القرآن هذا بذاك ويصدر عليهما حكماً واحداً؟ ما هذا لعمري إلاّ غاية الإحالة. ليس الله وحده الذي يحيى الأرض بعد موتها، بل أنا وأنت أيضاً قادران على إحيائها من غير أن نكون إلهَين من دون الله، ما دام موتُها إنما هو موتٌ مجازي ليس له من الموت إلاّ اسمه. إذْ تعيش في التربة كائنات دقيقة من الطحالب والسراخس والجراثيم تعمل على نقل الأزوت من الجوِّ وتثبيته في الأرض ليأخذ النباتُ حاجتَه منه، وفي ذلك

صيانة للتربة تكفل لها الخصوبة واستكمال دورات الكربون والنتروجين أو الأزوت اللازمة لها. فالتربية إذن حيّة ناشطة متحرّكة ليست ميتة، ومع ذلك ينسب إليها القرآنُ الموتَ ليبني على ذلك قلاعاً وقصوراً من النتائج لا صلة لها بالمقدِّمات، ويغدق وعوداً ليس إلى إنجازها من سبيل.

فالمبنيُّ على الباطل باطل، مهما كانت المرجعيّة التي رفعتِ البناء. هذه قاعدة منطقيّة معروفة، ومن حقِّ المشركين . هذه العقول المتمرّدة الجبّارة التي كال لها القرآن شتّى التهم . أن يرفضوا بكلِّ حرّيّة وإباء ما استعصى على عقولهم قُبولُه، فكان جزاؤهم التقريع والتسفيه والتبكيت وإلصاق شتّى التهم بهم: «ختَمَ اللَّه على قلوبهم وعلى سمْعهم وعلى أبصارهم غشاوةً» (2/ 7)؛ ولذلك فهم «صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ، فهم لا يَعقلون» (2/ 171).

وقد صدّق المسلمون هذه الآيات وأخذوها مأخذاً حرفيّاً، وبنَوا عليها وعلى آياتٍ أخرى مشابهة، مذاهبَهم في الكسب والجبر والإختيار، وقاموا بمحاولات جدّيّة رصينة للتوفيق بين هذا الشعث وجمع شمله. ولم يخطر لأيٍّ منهم على بال أنّ هذه النعوت لا يراد بها تقرير واقع بمقدار ما يراد بها التعبير عن السخط والغضب على المخالِفين المنكِرين. لعنة اللَّه عليهم أجمعين!!

ولنرجع إلى ما كنّا فيه فنقول: أيُّ فضلٍ لله، لا في إحياء الأرض بعد موتها، في إيقاظها من سباتها، وهو إيقاظٌ لستُ أنا ولا أنت أقلّ قدرة عليه منه سبحانه. وأمّا الموت الحقيقي، فلا أنا ولا أنت. كلاّ. ولا هو أيضاً بقادرِين أن نفعل بإزائه شيئاً!

7. «إنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عندَ اللَّه اثْنَا عَشَرَ شَهراً فِي كتابِ اللَّه يومَ خَلَقَ السمواتِ والأرضَ. مِنها أربَعةٌ حُرُمٌ. ذلك الدِّينُ القَيِّمُ» (9/ 36).

طوبى لكِ أيّتها الأرض، يا قرارَ العالَمِ ومركزَه وقاعدتَه. إنَّ هموم اللَّه كلّها محصورة فيك، وحساباتِ الكونِ ومواقيتَ الزمان مبنيّةٌ عليك!! فلا زمان إلاّ زمانُك، ولا مكان إلاّ مكانُك، ولا قرار إلاّ قرارُك!! فالشهور شهورُك، والأعوامُ أعوامك، والدهر كلّه مِن صنع ترابك. ولولا أنّك موضع عنايةِ ربِّك من دون سائر العوالم، ولولا أنّك بمنزلة القلب من جميع الكوائن، لما جعل إنسانَك خليفتَه. مِن أديمك صنعَه، وعلى مثاله سبحانه خلقه وصوّره. ما أسعد هذا الإنسان، الذي كلأتْه منذ وجوده على هذه الأرض عينُ الرحمن، فلن تغفل عنه لحظةً ولن تنام. فطِبْ نفْساً وقرّ عيناً يا سيّدِ الأكوان. أنتَ في حرز وحصن حصين ولو تألّبتْ عليك الدنيا إلى يوم الدين، وكلُّ ما ترى غير ذلك فهو من خداع الحسّ ونزعاتِ إبليس اللّعين. صدق اللَّه وكذب بطنُ أخيك، فلا تكونَنّ من الممترين!!

8. «اللّهُ الذي رفعَ السموات بغيرِ عَمَدٍ تَرَونَهَا، ثمَّ استوَى على العرش. وسخَّر الشمسَ والقمرَ. كلٌّ يَجري لأجَلٍ مُسَمَّى. يُدَبِّرُ الأمرَ، يُفَصِّلُ الآياتِ لعلَّكم بِلِقاءِ ربِّكم تُوقِنُونَ» (13/ 2).

أتى عليَّ عهدٌ كنتُ أظنّ . أنا وكثيرون غيري . أنَّ السماء هي سقف العالم الأرضي، وفوق هذا السقف ستة أسقف أخرى، طبقاتٍ بعضها فوق بعض. هذا ما تلقّيته في البيت والكُتّاب والمسجد والشارع وجميعِ مَن كنتُ ألقاهم وأَجتمع بهم من شيوخٍ وشبابٍ وعجائز الحيّ. لقد كان هذا التصوّر الأسطوري للسماء إحدى المسلّمات الدينيّة التي يُوحي بها القرآن والأحاديث وأقوالُ السلف..

وبعد اطّلاعي على علم الفلك الحديث في مجلّة المقتطف أولاً وبعض الكتب النادرة في هذا العلم المنتشرة في بعض المكتبات آنذاك، لم أجدْ أيَّ أثرٍ للتصوّر الطبقي للسماء، وكذلك

فعل كثيرون غيري. وهكذا انحسرت الأسطورة السابقة، واختفتْ من الدوائر العلميّة، إلاّ الدوائر الدينيَّة من إسلاميّة ومسيحيّة وغيرهما من الديانات التي لا تنفكُّ تعمل على التوفيق بين علم الفلك الحديث والنصوص الدينيّة. وإنْ ظلَّ العامَّة يحتفظون بتصوراتهم الأسطورية الأثيرة.

وفيما يتصل بالمسلمين، فإنّ هذه الأساطير تحيي في نفوسهم كلَّ عامٍ قصَّةَ الإسراء والمعراج وانتقالِ النبي من سماءٍ إلى أخرى فوقها، بصحبة جبريل عليه السلام.

فبعد إسرائه إلى بيت المقدس (القدس) على ظهرِ البراق[63]، واجتماعِه بالأنبياء، صلَّى ركعتيْن، ثمّ عُرِج به إلى السماء الدنيا، فاستفتح جبريل، فقيل له: مَن أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومَن معك؟ قال: محمد. قيل: أَوَقَدْ أُرسِلَ إليه؟ قال: قد أُرسل إليه. ففُتح لهما الباب. فإذا هو بآدم. فرحّب به ودعا له بخير. ثمّ عُرِج به إلى السماء الثانية. فاستفتح جبريل، فقيل: مَن أنت؟ فقال: جبريل. فقيل: ومَن معك؟ قال: محمد. قيل: أوَقد بُعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه. ففُتح لهما الباب. فإذا بابنَي الخالة يَحيَى وعيسى. فرحبّا به ودَعَوا له بخير.

وهكذا حتّى بلغا (جبريل ومحمّد) السماءَ السابعة. فوجدَا في استقبالهما في السماء الثالثة يوسف الذي أُعطي شطر الحسن. وفي السماء الرابعة إدريس. وفي السماء الخامسة هرون ثمّ أخاه موسى في السماء السادسة. وإبراهيم في السماء السابعة، وهو مستند إلى البيت المعمور الذي يدخله كلُّ يومٍ سبعون ألف مَلَك لا يعودون!

---

(63) دابّة ركبها النبيّ ليلة المعراج، تضع حافرها عند منتهى نظرها.

ثمّ ذهب به جبريل إلى سُدرةِ المنتهى. فإذا أوراقُها كآذان الفِيَلَة، وإذا ثمرها كالقلال. فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيّرت، فما أحدٌ مِن خلق الله تعالى يستطيع أن يصفها من حسنها. فأوحى الله إلى عبده ما أوحى.

فإذا كانت هذه الصورة الرائعة لا تزال ترتسم في ذهني مع أنّي قد تخلّيت عنها منذ عقود طويلة، فما قولك بالعامّة الذين يتهافتون على سماعها في السابع والعشرين من رجَب الخير من كلِّ عام؟ والغريب في هذه الصورة أنّ الملائكة الموكلين بأبواب السماء لم يسمعوا بقدوم محمد. وكان قد أناف على الأربعين، رغم أن السماء يوم مولده مُلئتْ حَرَساً شديداً وشُهُباً، وضجّتْ بذكره الآفاقُ، كما مرّ معنا في آية سابقة. لقد كانوا جميعاً ينتظرون قدومه منذ زمن طويل. ولكنَّ أخبارَ بعثته، على ما يظهر ظلّتْ محصورةً بين السماء والأرض، ولم تتجاوزْها إلى السماء الأولى (الدنيا)!!

هذه هي صورة السماء في القرآن مهما حاول المفسِّرون المحدّثون تشذيبها وإعطاءها صورة معقولة مهذّبة تتّفق مع روح العصر. فالسماء في القرآن سبع طبقات «ألمْ تَرَوا كيفَ خلقَ الله سبعَ سموات طِبَاقاً؟» (71/ 15)؛ والسماء مبنيّة، أو هي بناء «والسماءَ بَنَينَاها بأيدٍ وإنَّا لَمُوسِعُونَ» (51/ 47) و«الذي جعلَ لكم الأرضَ فِراشاً والسماءَ بناءً» (2/ 22)؛ والسماء سقف محفوظ من الشياطين «وجعَلْنا السماءَ سقفاً محفوظاً» (21/ 32)؛ فمنها تنطلق راجمات الشياطين «وجعلنَاها رُجُوماً للشياطين» (67/ 5)؛ والسماء تُطوى كما تُطوى الكتب «يومَ نطوي السماءَ كطيِّ السجلِّ للكتب» (21/ 104)؛ والسماء تُلمس وتُملأ «وإنَّا لمسنا السماء فوجدناها مُلئت حرَساً شديداً وشُهُباً» (72/ 8)؛ والسماء تنشقّ وتتصدّع كأيِّ جسم مادّي مبني أو مصنوع «وانشقَّتِ